روايات
تاريخ الإسلام

أرمانوسة المصرية

فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الاسلام (٦٤٠ م) مع بسط حال العرب وعاداتهم واخلاقهم وازيائهم وحال الاقباط والرومان في ذلك العصر

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت

أرمانوسة المصرية

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* **هرقل**	: امبراطور الرومانيين
* **عمرو بن العاص**	: فاتح مصر
* **المقوقس**	: والي مصر عندما فتحها العرب
* **ارمانوسة**	: ابنة المقوقس
* **قسطنطين**	: ابن هرقل وخاطب ارمانوسة
* **بربارة المصرية**	: مربية ارمانوسة
* **أركاديوس**	: ابن الاعيرج القائد الروماني
* **ارسطوليس**	: ابن المقوقس
* **زياد العربي**	: صاحب يحيي النحوي
* **وردان**	: مولى عمرو بن العاص
* **عبادة بن الصامت**	: أحد قواد العرب
* **المندفور الاعيرج**	: قائد جند الروم

مراجع رواية أرمانوسة المصرية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في سرد حوادث الرواية :

- ★ الخطط للمقريزي .
- ★ تاريخ الطبري .
- ★ تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان .
- ★ تاريخ الواقدي .
- ★ تاريخ ابن هشام .
- ★ تاريخ ابن الأثير .
- ★ تاريخ ابن خلدون .
- ★ حسن المحاضرة للأسيوطي .
- ★ تاريخ عبد اللطيف البغدادي .
- ★ مؤلفات : شامبليون ، ومارسيل ، وماريت ، وولكنسن ، وشارب .
- ★ العقد الفريد .

- ١ -

فذلكة تاريخية

فتح الرومانيون وادي النيـــل ، وأقاموا به قرونا ظهر في أثنائها الدين المسيحي وانتشر في العالم ، ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الاقبــاط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية دينا لها بدلا من الوثنية ، وهدمت تماثيلهـا .

ولكن ما كادت تستقر الامور حتى حدث نزاع ديني بين كهنـة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، واشتد هذا النزاع حتى تسكنت الضغائن بين الرومانيين ، وهم الفئة الحــاكمة : وبين الاقبــاط وهم الشعب المحكوم . وعــرف المذهب الرومانــي بالملكي ، والمذهب المصري باليعقوبي . فآل ذلــك الى نفور الاقباط من الرومانيين واستبدادهم ، والى رغبتهم في التخلص من نيرهم بأيــة وسيلة .

وفي أوائل القرن السابع للميلاد ، كــان يحكم مصر وال يونــاني ، الأصل : اسمه المقوقس حنا بن قرقت ، وقد يدعونه بأسماء أخرى ، وكان

متنبيعـا لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم • وأقـام الاسكندرية شأن ولاة الرومانيين الى ذلك العهد ، لأنها كـانت عاصمة الديار المصريـة ومقـر الامـارة فيهـا • ولم تكن القاهرة قد وجدت بعد ، بل كـان في مكـانها بساتـين وغياض يتخللها بعض الأديرة والكنائس ، وقليل مـن البيوت مبعثرة بين جبل المقطم والنيل • والى جنوبها بلدة صغيرة اسمها بـابل ، بناها الفرس حـين قدموا مصر قبل الميلاد ودعوها باسم عاصمة دولتهم • وكـان موقعها فيما هو الآن دير مـار جرجس ومـا جاوره من البيوت ، وجامع عمـرو ، وبعض مصر القديسة •

* * *

وكان في وسط تلك البلدة حصن كبير يدعى حصن بابل ، أو قصر الشمع : مبنى على الطراز الروماني ، هو الذي يقوم في مكانه الآن ديـر مار جرجس • وكـان النيل يجري أمامه ، وتلاطم أمواجه بابا كبـيرا من أبوابه ، ما زال رسمه باقيا في سوره الغربي حتى الآن ، وقد طمـرت الأتربة أسفله حتى لم يعد ظاهرا منه الا عتبته العليا • الـى أن أزالـت الحكومة تلك الأتربة ، فظهر الباب كله • وهـو قائم بين برجـين كبيرين مستديري الشكل ، في أحدهمـا كنيسـة المعلقة حتـى الان ولكـن بناءهـا تهـدم •

* * *

أما مصر القديمة ــ ما بين هذا الحصن الى النيل ــ فلـم يكن لها أثر البتة ، لأن النيل كان يجري في موضعها بجانب الحصن كما قدمنـا • وكان بين هذا الحصن وجزيرة الروضة جسر من السفن ، يمر عليه الناس مـن البـر الشرقي الى الجزيرة ، وجسر آخـر من الجزيرة الى البـر

الغربي يسرون عليه الى الجزيرة ومنها يذهبون الى منف ــ عاصمة مصر القديمة ــ حيث كان المقوقس يقيم بعض أشهر الشتاء : برغم أنها في عهده كانت قد انحطت وكادت تؤول الى الخراب •

ولم يكن للأقباط هم في تلك الايام الا التخلص من الرومانيين والتحدث بنظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم : ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم . خوفا من سخطهم وزيادة الضغط عليهم •

- ٢ -

أرمانوسة بنت المقوقس

كان للمقوقس ابنة في ريعان الشباب ، جمعت بين الجمال الروماني واللطف المصري اسمها « أرمانوسة » • وقد خصها الله بلين الجانب وحسن الخلق حتى ضرب المثل بجمالها وذكائها • وكان والدها يحبها حبا جما لانه لم يكن له الا هي وابن اسمه ارسطوليس ؛ فأباح لها التصرف في بيته وجعل لها الامر والنهي في خدمه وحاشيته • وكان هرقل امبراطور الرومانيين قد سمع بها فخطبها لابنه قسطنطين ، وشاع ذلك وذاع حتى تحدث به الخاص والعام وحسدها الناس عليه ، لكنها لم تكن راضية بهذا الزواج وان لم تظهر شعورها لئلا يصيبها أو يصيب والدها سوء ، بل كظمت غيظها وصبرت على مضض ، حتى يأتي الله بأمر من عنده •

وفي سنة ٦٤٠ للميلاد كان المقوقس مقيما بالاسكندرية على عادته ومعه حاشيته ، وكلها من المصريين والمصريات وبعض الاحباش ، وليس

فيها أحد من الروم . وكـانت أرمانوسة في قصره بمنف ، في البر الغربي من النيل وراء الجيزة . وكـان ذلك القصر فخما عظيما أقيم بأنقـاض بعض هياكل المصريين القدمـاء ويشرف على النيل ، وتحف به حديقـة غنـاء ، وفيها من أغراس الكرم والنخيل والشجر ذي الثمر والريـاحين ما يبهج النظر وبينما هي في قصرها ذات ليلة صافيـة الجو اذ أحبـت الخروج للتنزه في النيل ، فكلفت خـادمتها الخاصة ـ واسمهـا بربارة ـ أن تكلف بعض الخدم باعداد قـارب تنزل فيه ، فأعدوه لها ، ونزلت وقد لبست ثوبا سماوي اللون يجر ذيله وراءهـا ، وضفرت شعرهـا مـن أعلاه ضفيرة واحدة باكليل صغير من الحجارة الثمينة مصنوع على شكل رأس الحية مثلمـا صنع قدماء المصريين ، وأرخت الضفيرة على كتفيهـا ، والجواري محدقات بهـا ، وخادمتها الخاصة تحمل طرف ثوبهـا من ورائها لئلا يمس الارض ، ولو أنه مسها لا خوف عليه لأنهـا مرصفـة بالرخام النقي ، ولأن طرق الحديقة مرصوصة بالفسـيفساء . فتجـاوزت الحديقة الى بابها الشرقي ، وكـان شاهقا قد نقش على عتبته العليـا رسم أوزيريس باسطـا جناحيه ، ومصراعـاه من خشب الجميز الصلب ؛ وعليه من النقوش البديعة ما يشغل النظر ، وأمامه من الناحيتين تمثالان كبيران لأبي الهول . وسارت بين صفين من شجر الجميز حتى أتت الشاطـيء ، فنزلت الى القارب على رصيف قديم البناء عليه نقوش هيروغليفية . وكان القارب مفروشا بالبسط المزركشة فجلست في صدره وبين يديها جواريها ؛ وقد أرخى النوتية الشراع فسار القارب الهوينى يخترق عباب النيـل ، والجو صاف وأشعة القمر تنعكس على سطح المـاء وتتكسر وتتلألأ ، والى كل من جانبي النيل غياض ومغارس للنخيل والدوم ، ومن ورائهـا كروم العنب وغيرها ، تتخللها قرى صغيرة وأبنية فخمة معظمهـا من الهياكل والتماثيل ، وأعظمها قصور منف تتخللها الهياكل والاصنام العظيمة ، لأن

هذه المدينة برغم عوامل الحدثـان كانت ما زالت أبنيتها شامخة تناطح السحاب ، وبخاصة أهرامها المعروفة الآن بأهرام سقارة .

وسار القارب بأرمانوسة وجواريهـا بين يديها ، وقد أخذن يعزفن على الآلات ، وعلى ضفة النيل شجر البردى متكـاثف يتمايل كالسكارى ، ولم يكن يسمع عند مسير القارب الا صوت الموسيقى يتخلله حفيف ورق البردى ونقيق الضفادع بين أغصانه ، وقد اختفى بين هذا وذاك صوت القارب في اختراقه عباب المـاء ، والطبيعة هـادئة والنسيم لطيف ، وبربارة لا تفتر لحظة عن تسلية سيدتهـا بطريف حديثها وغريب قصصهـا . أما أرمانوسة فكـانت مضطربة البال لا تبتسم الا تكلفـا ، كأنهـا تريد نسيان ما يخامرها من الهواجس ، وتود الانشغال عنهـا بمناظر الطبيعة ، فلما أدركت وصيفتها ذلـك جعلت تبالغ في تسليتهـا تارة بالأحاديث المضحكة ، وطورا بالاطناب في جمالهـا ، وقد لحظت انقباضها من قبـل وحاولت استطلاع كنهه فلم تستطع .

وبعد أن سار القارب مسافة ، رأت أرمانوسة انها قد بعدت عـن المدينة فخافت أن يهاجم التمساح القارب فأمرت النوتية بالرجـوع ، فأداروا الدفة وعادوا ، وكفت العازفات عن العزف فاستولى السكون على الجمع كأنهن شاركن الطبيعة صمتها ، وكل منهن تنظر الى ما حولها مـن الماء والشاطىء ، تتأمل ذلك المنظر وتستأنس بنقيق الضفادع ، وعلـى وجوههن أمارات السرور الا أرمانوسة ، فانها ما برحت منقبضة النفس ، ثابتة النظر الى جهة من جهات الشاطىء عن بعد ، وبربارة تسارقها اللحظ وتراقب حركاتها وسكناتها ، فاذا بها قد أخرجت منديلا من جيبها مسحت به عينيها وهي تحاذر أن يراها أحد ، فأمعنت بربارة النظر في تينك العينين المكحلتين بالسواد فاذا بهما تتلألآن وقد تناثرت الدموع منهما بغتـة ، فاضطرب قلبها وأرادت الاستفهام منها عن السبب ، ولكنها أمسكت حتى لا

تحرجها . وعولت على استطلاع الحقيقة عند عودتهن الى القصر .. على انها أخذت تتقاذفها الهواجس . اذ لم تدر موجبا لبكاء سيدتها وقد توافرت لها كل أسباب السعادة . وليس في وادي النيل فتاة أحسن حالا ولا أسعد حظا منها ، فانها ابنة الحاكم الآمرة الناهية ، وكل أهل البلاد في خدمتها . وقد خصتها العناية الالهية بجمال وصحة وسعة عيش حتى نالت حظوة في عيني أمبراطور الرومان فخطبها لابنه . فخافت بربارة أن يكون أمرا ذا بال .

* * *

عاد القارب الى منف ورسا بهن الى جانب القصر ، فنهض الجميع ونزلت أرمانوسة وسارت بين شجر الجميز والخدم بالمصابيح أمامها حتى أتت باب الحديقة فوقفت لحظة مسندة يدها الى أحد التشالين ، والتفتت الى النيل كأنها لم تشبع بعد من منظره ؛ ثم دخلت الحديقة وتحولت الى بعض طرقها ففهمت الجوار أنها تريد التجوال بين الأزهار والرياحين قبل دخول القصر ؛ فتحولن كل الى مخدعها الا بربارة فقد رافقت سيدتها وهي لا تزال تراقب حركاتها وسكناتها ، فرأتها قد مشت في الحديقة لا تدري الى أين تسير ؛ ولا يلفتها صوت النعام السارح ببعض جوانب الحديقة ، ولا أصوات الكراكي وغيرها من الطيور هناك ؛ ثم تحولتا الى القصر فدخلتاه وسارتا توا الى غرفة النوم ، وكانت الجواري قد أضأنها بالشموع والمصابيح ؛ وجعلن اكليلا من الزهور في اناء على مائدة فاخرة في وسط الغرفة مصنوعة في سوريا . من خشب الأرز ، تفوح منها رائحة زكية ؛ كان قد أهداها الى أبيها بعض أصدقائه الرومانيين في صيدا .

لكن أرمانوسة ما لبثت أن انسلت من الغرفة الى شرفة مطلة على

الحديقة والنيل وراءها ، ورائحة الأزهـار قد ملأت الجو ، وهناك كرسي مجلل بالحرير جلست عليه ، ووقفت بربارة تنتظر أمرهـا وتسترق النظر اليها فلاحظت أنها لا زالت مضطربة : لم تزدها تلك النزهة الا انقباضا . وبعد قليل قـامت أرمانوسة الى سريرها ، ونزعت حليهـا بمعاونة بربارة ثم استلقت تبغي الراحة لا النوم فلبثت بربارة واقفة تهم بسؤال سيدتها عن سبب اضطرابهـا فيمنعها التأدب ، ثم نظرت اليهـا فاذا هي تتلهى بالنظر الى ما على جدران الغرفة من الصور الملونة ، وفيهـا رسوم الطير والحيوان : ثم رأتهـا أطرقت تنظر الى أرض الغرفة كـأنهـا تتأمل أشكال الرسوم الجميلة المطرزة على الأبسطة : وهي تردد الزفرات وتتنهد خفية وقد أعياها الانقباض ، فلم تستطع بربارة مغالبة البكـاء لفرط حبهـا لسيدتها وغيرتها عليها ، فجعلت تمسح عينيها حتى أدركت أرمانوسة ذلك ؛ وخافت افتضاح أمرها فخاطبت بربارة قائلة : « ما بالـك يا بربارة » هل تبكـين ؟ » .

فتقدمت بربارة الى جانبها تحـاول مغالطتها وقالت : « ليس هناك يا سيدتي ما يبكيني وأنت بنعمة الله في صحة تامة وعيش رغيد ، اني سعيدة ما دمت أنت كذلـك ؟ » .

قالت : « ولكنني أراك تبكين ؟! » .

قالت : « كلا يا سيدتي ، واذا رأيت في عيني دموعا فان هي الا دموع الفرح ، اذ كل ما من الله به عليك من أنعامه وبركـاته انما هو مدعاة لفرحي ، ألا تعلمين أن أصدقاءك يغبطونك وأعداءك يحسدونك على ما قدر الله من وقوعك موقع الاستحسان لدى مولانـا الامبراطور حتى خطبك لابنه ؟ ولا ريب عندي أنك أهل له وهو أهل لك ، فان قسطنطين من أحسن الناس جاهـا ، وكفـاه فخرا انه ابن الامبراطور هرقل ، وعما قليل يعود من حروبه مع العرب فتتم سعادتك بالاقتران به » .

فتنهدت أرمانوسة تنهدا خفيا كأنها تذكرت مصائبها ، وأسفت لما هي فيه من الكدر مع ما خصتها به العناية من أسباب الرفاهية ، ومالت الى مكاشفة وصيفتها بمكنونات قلبها عساها أن تفرج كربتها ، وكانت تثق بها كل الوثوق لأنها ربتها منذ نعومة أظفارها ، وقد اختبرت صداقتها واخلاصها ، ولكن الحياء غلب عليها فأمسكت عن التكلم لحظة وهي شاخصة الى نافذة غرفتها المشرفة على النيل ، وقد امتلأ بضوء القمر ، ولكنها ما لبثت أن أجهشت بالبكاء على غير ارادتها .

فتقدمت بربارة الى جانب السرير وجثت على ركبتيها ، وأمسكت يد أرمانوسة بين يديها وجعلت تقبلها تكرارا ودموعها تتساقط عليها وهي تقول : « من منا الباكية يا حبيبتي ؟ أتسألينني عن سبب بكائي وأنت تبكين ؟ أستحلفك بالله أن تطلعيني على سبب اضطرابك ، فقد ضاق صدري وأنا ممسكة نفسي عن الاستفهام حتى عيل صبري » . قالت ذلك ونظرت الى سيدتها فاذا بها قد أغرقت في البكاء ، وجعلت المنديل على عينيها لتخفي ذلك عليها ، فأمسكت بيدها الثانية وألحت عليها وقبلت يديها ، ثم قبلتها بين عينيها وترامت على قدميها وقالت لها : « أستحلفك بحياة سيدي أبيك أن تخبريني عن سبب بكائك ولا تخفي علي شيئا ، وأنت تعلمين تعلقي بك واخلاصي لك ، لعلي أستطيع تفريج كربتك . أم أنت لا تثقين بي ؟ » .

قالت : « اني واثقة بك كل الوثوق يا بربارة ، وأنت تعلمين ذلك . ولكن ليس ثمة ما أخفيه عليك وما أنا باكية ولا ... » .

فقطعت عليها الكلام قائلة : « كفى اخفاء ومغالطة ، رأيت منك هذا الانقباض منذ أيام ، وكنت أخشى أن أثقل عليك بالاستفهام ، أما الآن وقد عيل صبري وصرت أخاف عليك فلن أسكت حتى تخبريني أو تطرديني من هذه الغرفة ! » .

فأمسكت أرمانوسة بيدها وهمت بالجلـوس قائلة : «حاشى لي أن أهينك بمثل ما تقولـين ، فانك بمنزلة الأم عندي ، فقد ربيتني منـذ طفولتي ، ولكن ليس عندي ما أخبرك به ، أو لعلي اذا أطلعتك عليـه تضحكين مني أو تهزئين بي ! » • فوقفت بربارة قائلـة : «معاذ الله أن يصدر ذلك وأنت سيدتي ومصدر نعمتي ، بل أنت روحي وحياتي ، فـلا تخشي بأسا من مكاشفتي بما في قلبك ، وسأكون مفرجة لكربك باذن الله • فثقي بي ، واكشفي لي عن سر هذا الاضطراب فقد نفد صبري » •

فصمتت أرمانوسة لحظة ثـم وقفت ودنت مـن المنضدة وجعلت تتشاغل بتقليب ما كان عليها من التماثيل الصغيرة ؛ وفيها أشبـاه أبـي الهول والجعلان من الذهب والفضه ؛ ثم عادت الى السرير مرتبكة تتلهى بتثنية منديلها بين أناملها ؛ وهي تنظر اليه وتحاول التكلم ويمنعها الحياء • فنهضت بربارة وقبلتها وقالت لها : « تكلمي يا حبيبتي لا تخفي علـي شيئا وأنـا أقسم لك بمريم العذراء صاحبة هذه الكنيسة (وأشـارت الى جهة حصن بابل حيث كنيسة المعلقـة) أن أحفظ سرك في قلبـي ، وأكون لك عونا في كل ما تريدين » •

فنظرت أرمانوسة اليها من طرف عينها ، وهمت بالكـلام فارتـج عليها ثـم قالت : « أنظري هل لا يزال أحد من الخدم مستيقظا ؟ » •

قالت : « لا تخافي فليس من يتجرأ على الدنو من غرفتك ، وسأذهب لأستطلع الامـر » • وخرجت والمصباح في يدها تاركة سيدتها وحدهـا في الغـرفة •

لبثت أرمانوسة تنتظر عودتها ، فلما رأتهـا أبطأت ، شغل بالهـا واستولى عليها القلق ، ولما ملت الانتظـار نهضت من السرير ودنت من الشرفـة ، وأطلت على الحديقة فسمعت ضوضاء الناس عند الضفة فازداد ضطرابها ، فأصغت فاذا بأصوات رجال ، ولمحت عند الشاطىء قـوارب

عديدة وقد خرج منها نفر يسرعون نحو القصر ، وأرادت أن تنادي أحدا تستطلع منه الخبر ، فاذا ببربارة قد عادت وعلى وجهها أمارات الدهشة ؛ فابتدرتها أرمانوسة قائلة : « ما سبب هذه الجلبة ، ومن هم هؤلاء الرجال يا بربارة ؟ أخبريني » .

قالت : « طيبي نفسا يا سيدتي ولا تضطربي ؛ فليس ثم غير الخير ان شاء الله » .

قالت : « قولي ما الخبر ، وما الداعي لهذه الجلبة ؟ » .

فقالت : « انها من دواعي سروري وسرورك ، فان سيدي أباك قد بعث بجماعة من خاصته بمعدات الاحتفال ؛ ليذهبوا بك الى عين شمس حيث يوافيهم أبوك لكي تسيروا جميعا الى بلبيس ، فتقيمي في انتظار خطيبك ريثما يسير بك الى القسطنطينية » .

* * *

اضطربت أرمانوسة عند سماعها الخبر ، واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلبها البكاء ، فازداد تعجب بربارة وهي لا تفهم لهذا البكاء سببا . فتقدمت اليها وقبلتها وضمتها الى صدرها ، وجعلت تتوسل اليها أن تخبرها بكنه الامر الى ان قالت : « لعلك شعرت بالوحشة عندما علمت بالسفر ومفارقة أبيك ومنزلك ، ألا تعلمين يا سيدتي انك ستنتقلين من قصر الى قصر أعظم منه ، ومن بيت مجد الى بيت مجد أرفع منه ؟ » .

وكانت أرمانوسة تمسح دموعها بيدها فلما سمعت كلام بربارة مدت اليها يدها وقبضت على ذراعها وقالت : « لا تذكري القصور والمنازل ؛ فان السعادة ليست في الابنية ولا في العواصم ، ولكنها في القلوب والعواطف . دعيني يا بربارة من هذه الاوهام وعزيني بغيرها ! » .

فعجبت بربارة من هذا الكلام واستغربته ولـم تفهم مـا وراءه ، وقالت : « بالله يا سيدتي افصحي عن حقيقة أمرك ، فقد أشكل على فهـم الواقع هل تكرهـين الاسفار أم ....» .

فقطعت أرمانوسة الكلام قائلة : « ليس ذلك ما يكدرني ، ولكنني لا أريـد السفر الى بلبيس ! » .

قالت : « وهل تكرهينها ؟ قولي لأبيك فلا يبعث بك اليها ، ويكتب الى الأمبراطور أن تنتقلي رأسا من هنا الى القسطنطينية » .

فصاحت أرمانوسة : « لا .. ولا أحب القسطنطينية ولا ساكنيهـا ولا من تسمى باسمها ، ولا أحب البقاء في الدنيا من أجلها ! » .

فأدركت بربارة أن سيدتها لا تريد الاقتران بقسطنطين ، ولكنهـا تجاهلت وأعـادت السؤال بالحاح قائلة لها : « الى هذا الحـد تخفـين مقاصدك علي ؟ أم لعلك لا تريدين قسطنطين ؟ » .

فأجابتها على الفور : « نعم لا أريده . لا أريده ! » .

فبهتت بربارة عند سماعها ذلك وقالت : « ولماذا يا مولاتي ؟ » .

فابتدرتها أرمانوسة قائلة : «لا تسأليني ، فاني لا أريده ، ولـن أريـده ! » .

وأجهشت في البكاء حتى علا صوتها ، فجعلت بربـارة تخفف عنها وتهون عليها الى أن قالت : « اذا كنت لا تريدينه فدعيـه وشأنـه ، ولا تحزنـي ولا تكدري نفسك » .

فتنفست أرمانوسة الصعداء وقالت : « نعم لا أريده ، ولكنني لا أستطيع التخلص منه ، وأبي قد اتفق مع أبيه على أن يلقيني بـين يديه ، ولست أفقـه غرضه من ذلك ! » .

فقالت بـربارة : « اذا أصر أبـوك على عزمـه ، ولم تري سبيلا للخلاص فأرى أن تطيعيـه وأنا واثقة كل الوثوق أنه لم يقبل زفـافك

الى قسطنطين الا وهو يرى ذلك سببا لسعادتك ، ولا أظن تمنعك الا خوفا من الاغتراب والابتعاد عن البيت الذي ربيت فيه ، وهذا ما تشعر به كل فتاة تنتقل من بيت الى آخر ، أو من مدينة الى أخرى عند الزواج . أما اذا تم الامر وصرت كنة الامبراطور ، فسيذهب عنك هذا الخوف ويسكن روعك » .

فتنهدت أرمانوسة وقالت : « كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معي فاذا سافرت الى القسطنطينية فاني أسافر بلا قلب ! » .

فأدركت بربارة أنها عالقة بغير قسطنطين وان هذا سبب عزوفها عن الاقتران به : وأرادت استطلاع مكنونات قلبها فأمسكتها بيدها وخرجت الى الشرفة لتلهيها عن هواجسها ، ثم تعود فتستطلعها حقيقة أمرها .

وكان النيل قد انعكس نور القمر على صفحته حتى تلألأت كالبلور ، وظلال شجر البردى والنخيل قائمة على الشاطىء كأنها سابحة في الماء ، فلبثت أرمانوسة صامتة مأخوذة ، غارقة في بحار الهواجس لم يشغلها شاغل ، ولا انتبهت لحركة القوارب الراسية هناك ، ولا الى لغط الذين جاءوا لحملها الى بلبيس . أما بربارة فصمتت هي الاخرى ولبثت تنتظر ما يظهر من سيدتها وهي تتأمل حالها وتجول بأفكارها ، وتراجع سيرة حياتها لعلها تتذكر حكاية تكشف لها عن هذا اللغز فلم تهتد ، فعادت الى حديثها فقالت وقد أرادت أن تمازحها : « ولكنني لم أفهم مرادك من قولك انك تسافرين بلا قلب أ فأين تتركين قلبك ؟ الا تخافين عليه العدو ونحن في حرب ؟ » .

فقالت : « لا أخاف عليه الحرب . ومهما يكن من أمره فانه يصبح في حال آمن له من حاله في القسطنطينية ! » .

فأرادت مداعبتها ثانية فقالت : « ولكن القسطنطينية آمن له ، فالبلاد

هنا بين خطرين عظيمين ، اذا سلمت من أحدهما لا تسلم من الآخر ! » .

فوقع قول بربارة من أرمانوسة موقعا غريبا فأحببت معرفة حقيقة الواقع ، وسألتها : « وكيف ذلك ؟ » .

قالت : « هل يخفى على سيدتي حالنا مع الروم واضطهادهم ايانا ، وما بين أبيك وبينهم من الضغائن ، وكم ساموا نحن الوطنيين أنواع العذاب ، لما بيننا وبينهم من اختلاف في المذهب ؟ انهم يقتلون كهنتنا وينفون بطاركتنا ونحن كاظمون الغيظ ، صابرون على البلوى ، حتى لقد سمعت سيدي والدك يتمنى أن يأتينا من يخلصنا من جور هؤلاء الحكام ؟ » . فقطعت عليها أرمانوسة الكلام وقالت : « انني أعجب لشكوانا وشكواكم ، وأنتم المصريون أهل البلاد أكثر عددا من هؤلاء الروم وهم غرباء قليلون ! فلماذا لا تخرجونهم من بلادكم ؟ » .

فتبسمت بربارة وقالت : « صدقت يا حبيبتي اننا أكثر عددا ولكنهم أصحاب السلطة ، وفي أيديهم الحصون والمعاقل ، وهم الحاكمون ومنهم العساكر والقواد ، ولا تظني أن المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ، ولكن دولة الروم كبيرة فكانت تبعث الينا بجنود لا قبل لنا بهم . وأنت تعلمين ان أباك يوناني الاصل ولكنه يحب أبناء البلاد ويميل الى الاحزاب الوطنية لأنه يراهم على حق . وخلاصة القول اننا أبناء وادي النيل لا نحب هؤلاء الرومانيين مهما يبالغوا في اكرامنا ، فقد كرهتهم نفوسنا ، وبخاصة لأنهم أهانوا بطاركتنا ، ولا يزال بطريركنا بنيامين فارا من وجوههم لا يعرف مقره الا القليلون ، وكلنا نشكو جور البطريق الروماني المقيم بالاسكندرية مع رجاله وجنده ، على أني سمعت سيدي والدك مرارا يتحدث عن قرب الفرج والتخلص من نير هؤلاء . ومما حكاه مرة لرجال مجلسه ـــ وقد سمعته خفية ـــ انه جاءه منذ سنين رجل من بلاد العرب الذين يسكنون جنوبي هذه البلاد يحمل رسالة مكتوبة باللغة العربية ترجمها الترجمان

الى لغتنـــا القبطية فاذا هي من كبير العرب ، وهو رجل عظيم سن دينا جديدا وتبعه جمع غفير ، وكل رجاله أشداء أقويـــاء وقد طلب منه في ذلك الكتاب أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته . وبينما كـــان سيدي يروي قصته أخرج الكتاب من جيبه فاذا هو جلد جاف مكتوب بلغـــة القوم . وقد سر سيدي بمجيء هذا الكتاب ولكنه لم يرد أن يغير دينـــه فبعث الى ذلك العربي الكبير هدايـــا من بينها ثلاث جوار احداهن مارية ، التي كانت عندك وكنت تحبينها ، ومعهن أيضا مقدار من العسل الـــذي يحمل الينا كل سنة من مدينة بنهـــا ، وأرسل اليه يقول انه لا يستطيـــع أن يسلمه البلاد بلا أمـــر من صاحبها هرقل ملك الرومانيين وهـــو في القسطنطينية . وبعد أن أتم سيدي قصته ، ذكر أنه يفضل أن يستولـــي العرب على هـــذه البلاد لينجو من هؤلاء الظالمـــين ، وسمعت جميـــع الحاضرين يصوبون رأيه ، ولكنهم أصروا جميعا على أن يبقوا على دينهم .

« وقد مضى على ذلك عدة سنوات ، الى أن حدث منذ بضعة أشهر أن جاء قارب فيه رسول من البدو قد التف بالشملة وعلى رأسه ثـــوب مطوي وطلب مقابلة سيدي فأذن لـــه ، فدخل وأعطاه كتابا ، ولا أدري ما دار بينهما ، ولكنني رأيت سيدي قد سافر الى الاسكندرية في اليـــوم التالي وطلب الى كل من رأى ذلك البدوي ألا يذكر عنه شيئا . ولبثت من يوم ذهابه أفكر في سبب قدومه ، وظننته جاء في مهمة خاصة . وقـــد فهمت من بعض هؤلاء القادمين أن العرب قد قاموا من بـــر الشام ولعلهم قادمون الى مصر ، ولكننا لا نعلم من أي طريق يأتون . وفهمت من هؤلاء الرجـــال أيضا أن مولاي أمر الجند الذي تحت أمرته أن يذهبوا مـــع قائدهم الرومي (المندقور الاعيرج) ويقيموا في حصن بابل مقابل الجيزة ، ولعله يريد بذلك أن يمنع العرب اذا قدموا من دخول عاصمة البلاد » .

وكانت أرمانوسة أثناء كـــلام خادمتها مصغية كل الاصغاء وعلـــى

وجهها امارات الوجـل ، فلما وصلت الى قولها : « وأمر الجند أن يذهبوا مع قائدهم الرومي الأعيرج » • علا وجهها الاحمرار بغتة ، ولكنها أخفت ذلك وقالت : « كيف تقولين ان أبي يريد أن يسلمهم البلاد ليخلص من الروم ، ثم تقولين انه يستعد لقتالهم ودفعهم ؟ » • فقالت بربارة : « نعم انه يود ذلك ، ولكنه لا يصرح به ، بل يسره في ضميره ، لأن القوة القاهرة هنا كلها للروم ، وكل جند القطر المصري منهم ، فاذا علموا قصده فلا شك أنهم يقتلونه ويقتلوننا كلنا » •

فلما سمعت أرمانوسة ذلـك صمتت لا تبدي حراكـا وكانت قد جفت دموعها وزالت هواجسها ، ولكنها عندما ذكرت بربارة الحصـن والاعيرج عاودتها تلك الهواجس وعـاد الانقباض الى وجهها ، وقالت بلهفة : « وهل أتى الأعيرج الآن الى الحصن ؟ » •

قالت : « نعم أظنه قدم ومعه كل رجاله » • قالت : « وهـل جاء معه أولاده أيضـا ؟ » •

قالت : « لا أعلم ، وفي كل حال ، ماذا يهمنا من أولاده لا ابقاه الله ولا أبقى أولاده فانهم يستوجبون النار ! » •

فأمسكتها أرمانوسة من يدها وقالت : « لا تلعني ولا تسخطي ! » • وترقرقت الدموع في عينيها ، فعجبت بربارة لهذه المظـاهر ولكنها حملتها على محمل الخوف ، وأنها أبت اللعن تورعا لكيلا يصاب والدها بسوء فقالت لها : « ألا تجوز اللعنة على القوم الظالمين يا بنيتي ؟ » •

قالت : « هبي انها تجوز ولكن •• ! » • وصمتت وراحت تبكي !

فقالت بربارة : « ما بالـك تبكين يا سيدتي وما الذي حملـك على البكـاء ، ونحن لم نكد نصدق أنك كففت عنه ؟ » •

فتنهدت تنهدا عميقا وألقت بنفسها على صدر بربارة ، وقد خارت قواهـا وأخذ منها الهيام مأخذا عظيما ؛ ثم تحولت الى الغرفة وهي تقول :

« اني أنشد نصحك يا خالتي فدبريني برأيك ، واكتمي أمري ، وساعديني في مصيبتي . فان كـانت حالتي تستحق البكـاء قبل أن رويت لي حكايتك هذه ، فانها الآن تستوجب النوح والندب .. آه من هذا القلب .. آه يا أركـاديوس ! » .

فنهضت بربارة وضمتها الى صدرها وقبلتها ، ومسحت دموعهـا وعرقها المتساقط من جبينها ، وأخذت تهون عليها ، وفهمت من حديثها أنها مولعة بأركاديوس بن الأعيرج الروماني ، وهو شاب جميل شجـاع يحبه كل من عرفه ؛ وكـان يأتي أحيانا لزيارة المقوقس مع مـا بين هذا والرومانيين من التنافر ، وكـان اذا التقى بأرمانوسة تسارقا اللحظ وتراسلا بالرموز وقلما تكلمـا .. لكن بربارة تجاهلت فضمت أرمانوسة الى صدرها قائلة : « مرحبـا بك يا سيدتي وحبيبتي ، اني رهينة أمرك قولي ما بدا لك ؛ واشرحي حالك ، لا تخـافي على سرك ، فقد قلت لـك مرارا أن هذا الصدر خزانة أسرارك ، وهذه الحواس كلها تقوم على خدمتك ، لا أراك الله ضيما » .

فجلست أرمانوسة على مقعد وتناولت المنديل بيدهـا ومسحت عينيها ووجهها ، وأرسلت شعرها الى الوراء ، وكـان قد استرسل عـلى خديها عندما ترامت على مربيتها ، وأجلست بربارة الى جانبها وقطرت اليها بطرف ذابل قد تكسرت أهدابه من البكـاء وغلب عليها الحيـاء وقالت : « ماذا أقول لـك وحالي ظاهرة مع مبالغتي في اخفاء حقيقتهـا عنك ؟ آه من الحب ما أحلاه وما أمره ! » .

فأمسكتها بربارة بيدهـا وأخذت تقبلها قائلة : « قولي يا حبيبتي .. ليس في الحب عار . ألم أقل لك أنك بمنزلة ابنتي ، وقد ربيتك وعقدت النية على خدمتك الى آخر حياتي ؟ » .

فتنهدت أرمانوسة وأسندت رأسها الى كتف بربارة برهة في صمت ،

ثم عادت فقالت لها : « اني قد وقعت في الحب ولكن لا سبيل الى بلوغ مرامي . لأني أحب عدوا لوالدي كما نطقت أنت ! اني أحب أركاديوس بن الأعيرج . فكيف لا أندب حظي ؟ » .

فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة : « لا تيأسي يا بنيتي من نعمة الله . فأنا نصيرة لك ولحبيبك الى الممات . أما أنت فانك بالغة مرادك باذن الله . فلا تخافي وعلي تدبير هذا الأمر . طيبي نفسا ولا تجزعي » .

فانتعشت أرمانوسة وصاحت قائلة : « أصحيح ما تقولين ؟ هل تسمح الايام بذلك ؟ آه اني ان نلت مرامي آكن أسعد فتاة على وجه هذه البسيطة . والا فأنا أشقى خلق الله ! » .

فقالت لها : « لا سمح الله بما يضرك . قري عينا واعتصمي بالصبر الجميل . وعلي ضمان ما تريدين . ولكن أخبريني كيف عرفت هذا السبب وكيف علقت به ؟ وهل هو يحبك مثل حبك له ؟ » .

فتأوهت أرمانوسة وقالت : « لا تسألي عما جرى كيف جرى . فهذا هو الواقع . أما حبه لي فلا أشك فيه وربما كان عنده ضعف ما عندي ، وقد عرفت ذلك جيدا فدبري الامر بحكمتك » .

فقالت بربارة : « سكني روعك الآن . ولنعمل الفكرة في وسيلة توصلنا الى المرام . فاتركي هذه المخاوف . وهلمي الآن الى الفراش فقد آن وقت الرقاد . وفي الغد نرى ما يكون ! » .

فقالت أرمانوسة : « من أين يأتيني الرقاد وأنا على هذه الحال ؟ ولكنني سأذهب الى فراشي التماسا للراحة . وأرجو أن تتحققي أكان أركاديوس في جملة من دخلوا الحصن مع المدافعين أم هو باق في الاسكندرية أو في مكان آخر ؛ لنرى ماذا يكون من أمره وأمر أبي وذلك الخطيب . آه منه ! » .

فقالت : « طيبي نفسا وقري عينا وتوكلي على الله . أما أبوك فلا

تعارضيه واذهبي الى بلبيس كما أراد ، وسنرى كيف ينتهي الامر ولا تظهري شيئا من نفورك لئلا يزداد الخرق اتساعا » .

فقالت أرمانوسة : « كيف أستطيع الرضا بهـذا الحكم الجائر ؟ وكيف أذهب وأنا أخشى ألا أعود ؟ » . قالت ذلك وأخذت في البكاء ، فضمتها بربارة الى صدرها وأخذت تطمئن بالها وتعدها بانقاذها من كل شر تخافه وان تدبر ذلك بنفسها . وكانت أرمانوسة شديدة الاعتماد عليها فأجابت طلبها وذهبت الى فراشها ، ولكنها لما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تستطع الرقاد تلك الليلة قبيل الفجر .

أما بربارة فذهبت الى غرفتها وهي تعجب لما وقفت عليه من أمر أرمانوسة ، وقد خافت عليها من وطأة الحب ، ولا سيما أن حبيبها من أعداء أبيها ، والبلاد في حالة حرب لا تتيح لها السعي فيما تريد ، ولكنها وطنت النفس على ما في وسعها خدمة لسيدتها .

وكانت بربارة ذات رأي صائب وحيلة محكمة ، وسيطرة على من في القصر من الخدم ، لأنها من أكثر الناس تقربا من المقوقس الذي كان يحترمها ويصغي الى مقالها . وكانت هي تحب أرمانوسة كثيرا ، فلما أقبل الصباح جاءت الى سيدتها وقد استيقظت من رقادها فأعدت لها ثيابها وأمرت الخدم أن يهيئوا معدات السفر فأعدوا المراكب وأنزلوا فيها المؤن ، وجاءوا بقارب خاص لارمانوسة وحاشيتها . ومضى ذلك اليوم في الاستعداد وأرمانوسة لم تذق طعاما . فلما جن الليل أظلمت الدنيا في عينيها ، وهاج بلبالها لعلمها انها تاركة قصر والدها في الصباح وقد لا تعود له ، فقضت الليل في البكاء خفية ، وأهل القصر فرحون بسفرها لملاقاة خطيبها ، وهم لا يعلمون بمكنونات قلبها الا بربارة فانها سألتها قائلة : « أأذهب معك أم أبقى هنا لأستطلع أمر أركاديوس ؟ » . قالت : « ان ذهابي وحدي يشق علي كثيرا اذ ليس بين هؤلاء من أركن

ابيه فأبثه شكاتي ، ولكنني كذلك أود ذهابك الى الحصن لترى أركاديوس . لعله اذا علم بما سيحل بي شاركك في تدبير وسيلة لانقاذي • وأنا أعلم أنه باسل اذا أراد أمرا لم يرجع حتى يناله • وها اني ذاهبة الى عين شمس لأرافق أبي الى بلبيس . وسأنتظر خبرا منك قبل وصول ذاك الذي لا أحبه ولا أريده • فاذا أبطأ الفرج فقد تسمعين ما لا يسرك ! »

قالت ذلك وترقرقت الدموع في عينيها • فبكت بربارة لبكائها وهونت عليها قائلة : « لا • لا سمح الله بان يحدث غير ما يسرك . فاذهبي على بركة الله وعلي تدبير الأمر •• » •

وفي صباح اليوم التالي . ارتدت أرمانوسة أفخر ثيابها . وأحاط بها الخدم والجواري . وأنزلوها الى زورقها الخاص بين الالحان والانغام . وهي تجر ذيل ثوبها المزركش بألوان تبهج الناظرين . وقد ضفرت شعرها وزينته . وتقلدت حليها الفاخرة وفيها رأس الثعبان المرصع على رأسها . والاقراط في أذنيها . وجعلت على صدرها قلادة من الذهب تتدلى منها زوائد من الذهب . وفي يدها سواران من الذهب الخالص كذلك على شكل ثعبانين ملتفين على معصميها ؛ وفي موضع عيونهما حجارة من الزمرد الثمين ؛ وتسنطقت بمنطقة من الحرير المزركش بالقصب النقي . وأرخت طرفيه الى جنبيها •

فلما وصلت الى الزورق أجلسها البحارة في مكانها . وجواريها بين يديها فيهن الحبشيات والنوبيات وبعض الروميات . ونزل الرجال في زوارقهم وقد نشرت الشراع وتحركت المجاديف ؛ حتى اذا مرت الزوارق بالقرب من حصن بابل وقفت برهة ريثما يفتح لها الجسر الموصل بين الحصن وجزيرة الروضة وهو مصنوع من قوارب مشدود بعضها الى بعض ؛ تغطيها ألواح غليظة من الخشب فتلفتت أرمانوسة نحو باب الحصن الجنوبي لعلها ترى حبيبها مارا أو واقفا ولكن القوارب مرت دون أن تراه •

- ٣ -

أركاديوس

مكثت بربارة بقية ذلك اليوم في القصر ، وهمت في اليوم التالي بالمسير الى الحصن قبل قدوم الجيش ، فركبت سفينة حتى اتت الجسر الممتد بين الجيزة والروضة فقطعته على قدميها الى الجزيرة ، ثم عبرت الجسر الآخر الممتد بين الجزيرة والحصن ، فدخلت من بابه الجنوبي الكبير فلم يعترضها الحرس لأنهم يعرفونها ، فصعدت الى كنيسة المعلقة فلاقتها الراهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس ، فتظاهرت برغبتها في زيارة الكنيسة وتقبيل الايقونات ، ثم أخذت تفكر في طريقة توصلها الى مرامها ، فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود في الحصن ، وأخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك ، فلما علمن بحقيقة الحال جعلن يصلين ويتضرعن الى الله تعالى أن يلطف بهن ويهيء ما فيه الخير . ورأت بربارة أن تمكث هناك تلك الليلة تنتظر ما يكون ، فلما كان المساء وصل الجنود مدججين بالسلاح ، وفي مقدمتهم موكب يرأسه أركاديوس بن الأعيرج وعليه لباس قواد الرومانيين . فلما رأته خفق قلبها قلقا على سيدتها ومكثت تلك الليلة ساهرة تدبر الحيلة ، بينما الجند يعدون معدات الدفاع من هدم وبناء ، والراهبات يتضرعن الى الله أن ينجيهن من عاقبة تلك الحرب .

ولما خيم الغسق ، سمعن طرقا عنيفا على باب الدير ، وجلبة وقرقعة نصال ، ففرغت الراهبات ، وذهبت احداهن لفتح الباب وفرائصها ترتعد ، فلم تكد تفتحه حتى دخل منه جماعة من الجند الرومان يتقدمهم شاب في لباس فاخر على رأسه الخوذة الرومانية والى جانبه السيف الصقيل ، وقد

تقلد الخنجر في منطقته وارتدى طيلسانا يجر ذيله وراءه ؛ فلما رأته بربارة عرفت أنه أركاديوس . وسمعتهم يكلمونها بلسانهم فلم تفهم مرادهم . ثم تقدم واحد منهم وكلمها بالقبطية قائلا : « ان القائد يأمركن باخلاء هذا المكان ليجعله معقلا لفرقة من الجند لأنه واقع فوق باب الحصن » . فنادت بربارة رئيسة الدير وأفهمتها الامر . فتضرعت هذه اليهم أن يختاروا مكانا غير الدير لأنهن لا يعرفن مكانا يلتجئن اليه سواه ، ولكنهم أصروا على عزمهم ؛ ولم ينتظروا رضاءهن بل جعلوا ينتهرونهن ويصيحون بهن فخرجن يولولن ويصحن باكيات . وخرجت بربارة معهن ، ولم يكن أحد من هؤلاء الرومانيين يعرفها ؛ ولو عرفها أركاديوس أو عرف ما جاءت من أجله لأذعن لما أرادت . فذهبت الراهبات وبربارة معهن الى مأوى تحت الكنيسة كي يدخرن فيه مؤونتهن من الطعام والشراب . فجلسن هناك وقد علا صياحهن وعويلهن ، فدنت بربارة من الرئيسة وخاطبتها على انفراد ؛ ووعدتها باعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال .

فقالت الرئيسة : « وما الوسيلة وقد أصبح هؤلاء الجند أبغض الينا من عدو يقتالنا ؟ أما كفانا ما يسوموننا من الخسف والجور واهانة رجالنا وقتل بطاركتنا ؛ حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصونا ؟ » .

فقالت بربارة : « طيبي نفسا ولا بد من أن يقتص الله من أهل الجور والفجور ؛ ولا بد لحكمهم من نهاية ؛ وأرجو أن يكون ذلك بخروج هذه البلاد من أيديهم ؛ وما على الله عسير » .

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات ؛ وقالت وهي تمسح دموعها بمنديلها : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدير أن يسقط في أيديهم ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم فان أية أمة تحكمنا بعدهم

أخف وطأة علينا منهم » فقالت بربارة : « آمين ، وكل آت قريب »

وكن أثنـاء ذلك يسمعن جلبة الجند فوقهن ، ينقلون العدة والذخيرة وأدوات الحرب ، أما بربارة فما فتئت تفكر في وسيلة تضمن لها الفوز بقضاء مهمتها ، وتذكرت سيدتها والحالة التي فارقتها عليهـا فانفطر لهـا قلبها ، وجعلت تبحث عن طريقة توصلها الى أركاديوس . ثم رأت انها ان وصلت اليه فلن تستطع مخاطبته لأنها لا تعرف اللغة اللاتينية ، ثم تذكرت انه ربي في مصر وتعلم لغتها وهو يفهمها ويحسن التكلم بها ، خلافا لبقية أبنـاء جلدته فقد كانوا يحتقرون لغة الوطنيين وينفرون ممن تعلمها ، أما هو فكان ميالا الى معرفة تاريخ البلاد ، كما كـان يحب أهلها اكراما لحبيبته ، ولكن كيف تصل اليه وهو فيما هو فيه من الانهمـاك والتأهب للحرب ؟

وقضت معظم الليل في هذه الهواجس لا تستطيع رقادا .

أما أركاديوس فقد دخل الكنيسة مع رجاله ليجعلوهـا معقلا لهم وتركهم ينزعون الايقونات ، ويحطمون كل مـا في طريقهم من الآنية أيـا كان نوعها ، وأخذ هو يهيء منازل رجاله ويرتب فرقهم ، فجعل كـل منهم في موقفه بسلاحه ، ثم نزل الى الأماكن الأخرى يرقب الجند بالنيابة عن أبيه الى منتصف الليـل . فلمـا انتهى من مهمته هذه عاد الى كنيسة المعلقة . وكـان الجند قد أعدوا فيها غرفة مشرفة على النيل من نافذة صغيرة ، فدخل الغرفة ونزع خوذته وسلاحه ، وجلس بجـانب النافذة وأطل على النيل وهو يجري بجـانب الحصن من غربيه ، ويحيط به من الجهـات الاخرى البساتين والغياض ، وفيها شجر النخيل والكرم ، وقد امتد شجر الدوم عـلى ضفاف النيل يتخلله البردى . ومد بصره الى البر الثـاني عن بعد فأشرف على ضفته الغربية ، بر الجيزة وما وراءهـا . وكـانت الليلة مقمرة كما قدمنا فوقع نظره على الهرم المدرج في جهات سقارة بقرب منف فاستأنس به لقربه من مقـام حبيبته ، فتذكر حاله معها

وحبه لهـا ، فهاجت عواطفه ، وود لو كـانت له أجنحة تحمله اليها ، وهو على يقين انها تحبه مثل حبه لها ، ولولا ما بـين أبيه وأبيهـا ، وبين طائفته وطائفتها من النفور لهـان عليه الامر ، ولكن المركب خشن ودون بلوغ المنى خرط القتاد !

* * *

لبث أركاديوس على تلك الحال حينا لا يتحرك ، وقد هـدأ الجو ورق النسيم ، واستولى السكون على الحصن فلم يكن يسمع فيه صوت غير خرير المـاء وملاطمة مجراه لجدار الحصن من جهة ، وحفيف سعف النخل على ضفاف النيل من جهة أخرى . ثم هب من غفلته بغتة فتذكر صديقه أرسطوليس شقيق أرمانوسة ومـا بينهما من الود والالفـة ، فقال في نفسه : « لمـاذا لا أكاشف هذا الصديق بما في قلبي من لواعج الغرام لعله يفرج كربتي أو يرفع عني أثقال هذا الكتمـان ، فاذا عرف قوة حبي لأخته فقد يأخذ بيدي وينصرني » . وفيما هو في تلـك الهواجس اذ سمع وقع أقدام قرب الغرفة واذا القادم واحد من رجاله جاء ليخبره بأن القائد أرسطوليس بالباب ! . فعجب لهذه المصادفـة وأذن بدخوله ، فلمـا دخل تصافحا وتعانقا ، ثم سأل أركاديوس صديقه أرسطوليس عن سبب مجيئه في ذلك الوقت ، فقال : « انما جئت أيها الصديق ملتمسا منك أمرا لا يصعب قضاؤه » .

قالَ : « قل ما شئت ، اني فاعل ما تريد » .

قال : « جاءني بعض من كن في هذا الدير من الراهبات يشتكين مما قاسينه من الاهـانة باخراجهن من بيتهن ، وأنت تعلم أنهن محترمـات لانقطـاعهن للعبادة والتقشف ، وقد كـان في امكـانكم حفظ كرامتهن ، فأرجو أن تخلي لهن مكـانا يقمن فيه أو يخرجن من هذا الدير باكرام » .

فقال أركاديوس : « ولكننا لم نخرجهن الا لنتخذ هـذا المكان حصنا ندفع به الأعداء عنا وعنهن . وهن اذا بقين فيه لا يعملن عملنا أو يدفعن مهاجمـا ؟ » .

قال : « لا يدفعن مهاجما ولكن كدرهن ونقمتهن على الجند لمـا لاقينه من الاهـانة : ودعاءهن على المسيء اليهن ، يقف عثرة في سبيل دفاعنا فاننا نعتقد أن دعاءهن مجاب » .

قال : « نحن لا نرى ذلك . ولكني على استعداد للقيام بما تشير به ، على شرط ألا يكون في ذلك ضرر على الجند . أمـا هذا المكـان الحصين فلا نتخلى عنه لأحد . فاذا رأيت أن يخترن لهن مكـانا غيره فاني أساعدهن في الحصول عليه » .

قال : « سأستخيرهن في مكـان يخترنه غير هذا المكان ، واذا رأين الخروج من الحصن فاني أرسل معهن من يوصلهن الى حيث شئن » .

ثم أمر أركاديوس باخلاء مكـان لهن بالقرب من الدير أقمن فيه ، وعـاد الى صديقه فقال : « وأنت ماذا فعلت ؟ هـل أعددت العـدة لجنـدك ؟ » .

قال : « أعددت كل شيء تقريبا ومتى جاء والدانا فاننا نتم تدبـير الأمر . فمتى يأتيان ؟ » .

فقال أركاديوس : « أما أبي فأظنه يصل الى الحصن غدا . وأما أبوك فلا أدري يوم مجيئه ، ولا ريب أنك أعلم مني بأمره . ولا أراه الا مترددا في شأن هذه الحرب ، ولم يغرني منه التظـاهر بالاستعداد وادخـالك في هذه الحملة ، ولا أنه يوناني الاصل ، فان ماضي أعماله يخالف كـل ذلك ، فهو قبطي المشرب قائم بدعوة الوطنيين ، لا يريد لنا سلطـانـا عليهـم ! »

فوقف أرسطوليس بغتة وهو يحـاول دفع هذه التهمة عـن أبيـه

فقال : « كيف تقول ذلك وأبي أول مدافع عن دولتنا ، فحالما سمع بقدوم العدو أخذ في التأهب للدفاع ، ووجودي في جندكم أكبر دليل على رغبته هذه ؟ » ٠

فتبسم أركاديوس مستخفا بتلك الحجة ، وقال له : « مهلا أيها الصديق ! فأنت تعلم حبي لك ، ولا تجهل اني أحترم قدر أبيك ، ولا أنكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الاقباط ، وما أنا بناس نفورهم لأن نفور أصحاب البلاد من فاتحيها أمر طبيعي لا مفر منه ، وبخاصة اذا لقوا منهم ما لقي أهل مصر من تحامل بعض حكامنا ، وما سبب ذلك الا الاختلاف في المذهب الديني الذي تعلمه ٠ ولكنني لا أسلم بأن والدك المقوقس غير قائل بقولهم ، وانه يود من صميم فؤاده خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها في حوزة غيرنا مهما يكن جنسهم ٠ أما دخولك في جندنا فلا تتخذه حجة لدفع هذه التهمة عنه بل قد يكون مؤيدا لها ٠ ولكن ما زلنا ولذلك الآن ، فسوف يظهر الحق ويزهق الباطل ٠ أما نحن فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا الى آخر نسمة من حياتنا ، وفي أيدينا أوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب عنه ، وأظنهم يحسبون الظروف تساعدهم هنا كما ساعدتهم في بلاد الشام وبيت المقدس ، ولو كان في رؤوس حامية تلك البلاد الشهامة الرومانية ما سلموا منها حجرا ، ولكنهم فسدوا وغدروا ولم يكن عندهم مثل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا » ٠ قال ذلك وكأنه شعر بما يتخلل عبارته هذه من الحدة فصمت برهة ريثما خفت حدته ، ثم عاد فخاطب أرسطوليس قائلا : « أخبرني الان هل أنفذت الرجال لعمل التحصينات كما أخبرتك ؟ » ٠

قال أرسطوليس : « وقد بدأوا بعملها منذ وصولنا ، ولكنهم ناموا الآن التماسا للراحة ولا يقبل الصباح الا وهم قيام على اتمامها ٠

وقد جئت بكل معدات التحصين وفي جملتها حسك الحديد لنبذره في قنوات الخندق فلا يستطيع البدوي عبوره قبل أن تدمى قدماه ويعجز عن المشي ، هذا اذا لم نقتله بسهامنا عند الاسوار قبل وصوله الى الخندق » .

فقال أركاديوس : « وأين هم الأعداء الآن ؟ » .

قال : « أنبأنا الجواسيس أنهم قاموا من العريش بعدتهم ورجالهم . ولكن دون وصولهم الى هذا الحصن خرط القتاد » .

وكان أرسطوليس عالما بمقاصد أبيه حق العلم ، وقد تحقق أن الحامية لا يمكنها دفع العرب ، وكان يحب أركاديوس كثيرا فأراد أن يكاشفه بذلك لئلا يكون في جملة من تقع عليهم المكيدة ، ولكنه خاف افتضاح الامر قبل أوانه فتضيع أعمال والده سدى فأبقاه مكتوما الى حين ، ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس الرقاد بقية ذلك الليل فودعه أركاديوس وعاد الى مقعده فعادت اليه هواجسه .

أما أرسطوليس فتحول عن الغرفة الى السلم وهو يفكر في شأن أبيه مع الرومانيين . وقد حمل سيفه بيده لئلا يصطدم بجدران السلم فيوقظ أحدا من الجند . فلما بلغ آخر درجة سار في زقاق ضيق مظلم قاصدا الى غرفته . فسمع صوتا منخفضا يناديه من جانب الزقاق . فنظر فاذا شبح قادم اليه أمسك بيده وهو يقول : « لعلك سيدي أرسطوليس ؟ » . فجذب أرسطوليس يده قائلا : « نعم . ومن أنت ؟ » . فسمع صاحب الصوت يقول : « أنا خادمتك بربارة يا سيدي ! » . وعرف صوتها فقال لها : « وما الذي جاء بك الى هنا ؟ وكيف تركت البيت ؟ » . قالت : « جئت لأمر ذي بال سأطلعك عليه اذا أذنت لي بخلوة » قال : « تعالي معي الى غرفتي » .

وسارا حتى دخلا بعض جوانب الحصن وأرسطوليس يحاذر أن

يراها أحد خوفا من وقوع الشبهة عليه ، فلمـا دخلا الغرفة وأضاء المصباح تأمل في وجهها فاذا هي هي بعينها فقال لها : « ما خبرك ؟ » .

قالت : « جئت بالامس لزيارة كنيسة المعلقة كعادتي ففوجئت بالجنود يدخلون الحصن ويخرجون من في الكنيسة من الراهبات فخرجت معهن يا سيدي ، وكـان من أمرنا ما قـد علمت ، فلبثت في ذلك الممر أنتظـر الصباح لأعود الى منف . وفيما أنا أخاطب رئيسة الدير أخبرتني أن راهبا جاء في صباح الامس يسأل عن سيدي المقوقس ومعه كتاب ، فسألتها عن ذلك الراهب فذكرت أنه خرج من الكنيسة في ضحى هذا اليوم ولم تعد تراه ولا تعلم أين هو ، ولكنه من رهبان دير في برية تيبايس يحمل كتابا من البطريق بنيامين الذي فر من بطريق الاسكندرية الى هناك ، ولمـا علم بقدوم الجند الرومانيين الى الحصن خاف أن يفتضح أمر الكتاب ، فدفعه الى الرئيسة لتخفيه ريثمـا يستطيع حمله الى أبيك ، فأخفته في صندوقها بين ثيابها ولم تكن تعلم أنهم سيخرجونها مع الرهبان ، فلمـا جاءوا الدير وأخرجوهن منـه لم تستطع لسرعتها ودهشتها أن تخرجه ، فبقـي في الصندوق وأخاف أن يصل الى أيديهم وربما كـان فيه ما يؤاخذ سيدي عليـه ! » .

فلمـا سمع أرسطوليس كلامها سكت لحظة وهز رأسه كأنـه أدرك المراد من قدوم الراهب بذلك الكتاب ، ولكنه خاف سوء العاقبة فاختلط عليه أمره وقال لبربارة : « وما السبيل الى الحصول على الكتاب الآن وأنا لا أستطيع أن أطلبه من أركاديوس صريحا ؟ » .

قالت : « اذن أعطني كتابا الى أركاديوس تقول فيه ان رئيسة الدير تود أخذ أيقونة من صندوقها للصلاة ، وتطلب منـه أن يأذن لـي في الدخول الى الكنيسة لاخراج تلك الايقونة فقد تنفع هذه الحيلة » .

فسر أرسطوليس بحيلتهـا وأخرج قطعة من ورق البردى كـانت

معه ثم ناولها اياها بعد أن كتب عليها ما أشارت به عليـــه ، وقال لها : « لا تطيلي الغيبة فاني في انتظـــار رجوعك » • فقالت : « طب نفسا ان غيابي لا يتجاوز فجر الغد » •

وهنا تذكر أرسطوليس شقيقته . فاستوقف بربارة وقال لها : « هل سافرت سيدتك أرمانوسة الى بلبيس ؟ » • قالت : « نعم يا سيدي » •

قال : « ولمـــاذا لم تذهبي معها ؟ » • قالت : « استأذنتها في البقـــاء بضعة أيام لأفي نذرا علي ثم ألحق بها » • وودعته وذهبت مسرعة •

ولبث أرسطوليس بعد ذهابهـــا وحده ، فنزع خوذته وسلاحه وتوسد مقعدا يلتمس الراحة بعد ما قاساه من التعب في تصفيف الجند أثنـــاء النهـــار : وأخذ يفكر في أمر الراهب وكتابه فأدرك أن الكتاب مرسل من بنيامين بطريرك الاقباط الى والده ، يحثه فيه على مسالمة العرب وبذل الجهد في التخلص من نير الرومانيين •

أما بربارة فسارت توا الى الرئيسة فتناولت منها مفتـــاح صندوقها ومضت الى كنيسة المعلقة فاعترضها الحراس فأرتهم كتاب أرسطوليس الى أركاديوس فأذنوا لها في المرور •

وكـــان أركاديوس لا يزال غارقا في هواجسه وقد أطل من النافذة على النيل يفكر في محبوبته ويبحث عن وسيلة توصله اليها ، وظل مترددا بين اليأس والامل لا يدري كيف يبلغها قصده ، وكـــان أكبر همه أن يطلعهـــا على شدة حبه لهـــا ، ويقنعها ان ما بين أبيه وأبيها لا يحول دون اقترانهما اذا بادلته هي حبه • على أنه كان يخشى عاقبة أمره اذا أطلع أباه على ذلـــك لعلمه بما في قلبه من الضغائن على المقوقس ، وما بـــين الامتين من النفور • ولكن الحب سهل عليه كل عسير حتى أنه أحب أمة الاقباط كلها من أجل محبوبته ، ومال الى التشيع لهم رغبة في مرضاتها ؛ ونقم على الساعة التي ولد فيها رومانيا ، وعلى الأحوال التي جعلت أباها

يتشيع للأقباط ، لأن كلا الامرين حائل بينه وبينها •

وفيما هو في ذلك اذ دخل عليه أحد رجاله يخبره بأمر بربارة وكتابها فعجب لأمرها وقال : « هات الكتاب منها » فقال : « انها لا تريد أن تسلمه الا بيدها » • قال : « فلتدخل » • فدخلت وحدها وقبلت يد أركاديوس فحالما رآها استأنس بمنظرها ؛ وخيل اليه أنه رآها مرة من قبل ، ولكنه لم يتذكر اسمها ولا الموضع الذي رآها فيه ؛ على أنه ابتسم لها وتناول الكتاب منها وسألها عن أمرها فقالت : « نسينا الايقونة يا سيدي في الصندوق ، وهذا هو المفتاح ، فهل تأذن لي بفتحه واخراجها ؟ » • فلما سمع أركاديوس كلامها ازداد استئناسا بها ، وأحب استطلاع حقيقة حالها فقال لها : « كيف تدخلين وحدك بين الجنود وهم يملأون الغرف ؟ » •

قالت : « وماذا يخيفني اذا كنت قادمة الى سيدي أركاديوس ؟ » •

وكانا يتخاطبان باللغة القبطية ، فقال لها : « لعلك من أهل هذا الدير ، ولكني لا أرى عليك لباس الراهبات » •

قالت : « انما أنا نزيلة جئت للصلاة ووفاء بعض النذور ، فلما جاء الجنود خرجت مع الراهبات ، وقد كلفتني رئيسة الدير أن آتيها بالايقونة » •

فقال : « ولماذا لم تأت بنفسها أو ترسل احدى راهباتها ؟ » •

قالت : « انها لا تجرؤ على مخاطبة سيدي أرسطوليس في شأنها ، فبعثت بي لأكلمه في شأنها ، فأعطاني هذه التوصية » •

فقال : « وكيف تجرأت أنت على ذلك ؟ » •

قالت : « لأني من بعض خدم قصره » •

فلما سمع أركاديوس ذلك خفق قلبه ، وتوسم الخير من حديثها ، فعول على تنسم أخبار محبوبته منها فقال : « وأي قصر نعنين ؟ » •

قالت : « قصره بمنف ، لأني وصيفة لشقيقته سيدتي أرمانوسة » .

فلما سمع اسم محبوبته هشت لها جوارحه . لكنه تجلد وقال : « لعلك خادمتها الخاصة ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدتي ، بل أنا مربيتها ، واذا شئت فقل اني بمنزلة والدتها » .

فتنهد حينئذ أركاديوس ودعا بربارة الى الجلوس فجلست وأخذ يخاطبها همسا لئلا يسمعه أحد ، وهي تناجي نفسها : « ها قد قربت من بلوغ المرام ! » .

فقال أركاديوس : « قد أصابت أرمانوسة باتكالها عليك ، لاني قرأت صورة الاخلاص على محياك .. فهل عندك للسر مكان ؟ » .

قالت : « اني جعبة أسرار عميقة ، فقل ما بدا لك ولا تخف » .

قال : « هل تعلمين من تخاطبين ؟ » .

قالت : « نعم يا سيدي اني أخاطب أركاديوس بن الأعيرج قائد الجيوش الرومانية في مصر » .

قال : « وهل تعلمين ما بين الرومانيين والاقباط في مصر ؟ » .

قالت : « اذا كنت تعني غير النفور بينهما فربما لا أعلم » .

قال : « لا بل اياه أعني ، ويظهر لي انك تعلمين من الاسرار ما لا يعلمه أعاظم رجالنا . فهل تعلمين بما في قلب أرمانوسة ؟ » .

قالت : « نعم أعلم انها تحب أباها ووطنها » .

قال : « لا تخيبي ظني فيك ، فأنا لم أسألك عما يخالج صدر كل قبطي ، ولكني أسألك سؤالا أرجو أن تجيبيني عنه جوابا يفسح لي مجالا للكلام معك فيما لم أكلم به أحدا بعد » .

قالت : « وما الداعي للتحفظ في الكلام ؟ قل وافصح ولا تخف فان نفسي في قبضة يدك ، وأقسم لك بحبيبتي أرمانوسة ان سرك لا يتجاوز

هاتين الشفتين الا باذنك » .

قال : « قد أحسنت الجواب . فاعلمي ان لي مأربا عند سيدتك أرمانوسة ، وقد أحببتها حبا شديدا . فهل تعلمين شيئا من ذلك قبلا ؟ » .

قالت : « وأي شيء تعني ؟ » .

قال : « ألم تخبرك بأمر هذا الحب . أو لمحت من حديثها انها تحبني ؟ » .

قالت : « يجدر بي أن أكون السائلة هذا السؤال » .

قال : « وماذا تعنين » .

قالت : « أعني أنك أعلم مني بذلك ، فهل تشعر أنت أنها تحبك ؟ » .

قال : « أراك تحاولين اخفاء الحقيقة ، فأنا لم أسألك اذا كنت أنا أحبها ولكني سألتك اذا كانت هي تحبني » .

قالت : « وهذا ما أردته من سؤالي لأن قلب المحب دليله كما يقال ، فاذا كنت تحبها حبا حقيقيا ، فلا شك في أنها هي أيضا تحبك ! » .

قال : « اني أحبها وعلى هذا فهي تحبني ، وهذا ما كنت أظنه ، وقد أحسنت الدفاع عنها وكتم حبها خوفا مما يخافه أهل الهوى في مثل هذه الحال . أما وقد تحقق ظني فأنا أعترف لك اعترافا قلبيا اني أحب أرمانوسة حبا جما يهون على كل صعب » .

فقالت : « ما الفائدة من حبك لها وأنت تعلم ما يحول دون الوصول اليها ، ولا أظن أن أباك يرضاها لك لما قدمت من الأسباب ، فما الفائدة من هذا الحب ؟ » .

فهز رأسه وتنهد ثم قال : « لا أرى دون الوصول الى أرمانوسة صعبا لا يذلله حد هذا السيف » . وأشار الى سيفه .

فقالت : « أنا أعلم أن عزائم الرجال تذلل الصعاب ، ولكن الامر أمر حقوق قد تكون أرهف حدا من الصوارم . فهل تعصى أباك يا

سيدي ؟ أرى الا تعرض نفسك لغضبه ، فانك أدرى بما ينجم عن ذلك . ولكن هب أنك ذللت كل هذه المصاعب فماذا تصنع بقسطنطين ؟ » .

فأدرك مرادها وكان قد سمع بخطبتها له ولم يصدق فقال : « وأي قسطنطين ؟ » .

قالت : « قسطنطين بن هرقل الامبراطور » .

قال : « وما علاقته بهذا الامر ؟ » .

قالت : « يا للعجب كيف تتجاهل شيئا لا يجهله أحد من أهل مصر ؟ »

قال : « وما هو ؟ قولي ! » .

قالت : « ألا تعلم أنها مخطوبة له ؟ » .

قال : « مخطوبة ؟ . هذا شيء عجيب ، وهل قبلت هي ؟ » .

قالت : « لا أدري ، ولكنني أعلم أنها سارت في صباح الامس من قصرها تصحبها الماشية مع أبيها الى بلبيس لتكون في انتظار خطيبها » .

فلما سمع أركاديوس ذلك نهض عن كرسيه بغتة وصاح بها : « ويحك .. ماذا تقولين ؟ » .

قالت : « أقول الصدق يا سيدي ، فانها برحت القصر قبل أن أبرحه أنا ، وهي الآن في طريقها الى بلبيس » .

فاشتد غضبه وجعل يخطر في الغرفة ينظر تارة الى بربارة وطورا الى النافذة ، ثم يتشاغل بفتل شاربيه وأخيرا وقف بغتة وقال لها : « يلوح لي أنها قبلت قسطنطين ، فكيف تقولين انها تحبني ؟ لعل قسطنطين أقرب الى قلبها مني ؟ » .

فقالت : « لم أقل يا سيدي انها أحبته أو آثرته عليك ، ولكنني قلت أنها سارت مع والدها الى بلبيس ، وأظنها فعلت ذلك اذعانا لأمره ، وهو لا يستطيع مخالفة الامبراطور . ومهما يكن من أمر فانها الآن في طريقها الى بلبيس ، ولا تدري متى يأتي خطيبها للاقتران بها . ها اني أخبرتك

بالأمر كما وقع ، وأما قلبها فاسأل قلبك عنه » .

فنظر اليها مغضبا وقال . « أما قلبي فيحدثني بأنهــا لا تميل الى سواي ولو أدى ذلك الى عصيان أبيها » .

فقالت : « كيف تتوقع منها ذلك وهي فتاة ، وقد رأيتك وأنت شاب باسل تتردد في مخالفة أبيك اذا منعك منها » .

فحملق وقد احمرت عيناه وقال : « كيف تقولين اني أتردد وأنـا أقول لك انه لا شيء يمنعني من نيلهـا الا الموت » . ووضع يــده على قبضة حسامه وقال : « مــا دام هــذا الحسام الى جانبي فلن يحولني شيء عن ودهــا ولو قاومني قسطنطين ، بل لو قــامت علي جنود أبيــه برمتها ، فما أنا براجع عن عزمي الا اذا كانت هي راضية به .. ولكــن من يخبرني بما في ضميرها » .

فأدركت بربارة أنه مصمم على الاقتران بها ولو حالت دونه المصاعب فقالت : « أن في معرفته حلا لهذه المشكلة » .

قالت : « هب أنهــا لا ترضاه وأنهــا باقية على حبك ، فمــا عقبى ذلــك ؟ »

فالتفت اليها وقد استل حسامه وهزه قائلا : « أمــا اذا تحققت بقاءها على ودي فاني أحارب في سبيل الوصول اليها جنود هرقل كلهــا ، ولا أنفك حتى أنالها أو أقتل ! » .

قالت : « خفف عنك ، واعلم أن ليس دون ذلك جنود هرقل فقط ، ولكن دونه أيضا غضب أبيك وأبيها » .

فقال : « ولكن اذا كان قلبها مثل قلبي فاننا لا نخشى شيئا ، ولو قامت علينا جيوش الدنيا كلها ! فاخبريني عن كنه نيتها ، وليكن في كلامك هذا القول الفصل : فأما أن أوطن النفس على أرمانوسة وأناضل عنها بحد هذا السيف ، وأما أن أقول عليها وعلى الدنيا السلام . قولي ولا تطيلي

الكلام » .

فلما رأت ما هو فيه من الغضب نظرت اليه مبتسمة وقالت : « اذا كنت تحب أرمانوسة فتفضل واجلس لأنبئك بمكنون قلبها » .

فأجابها وقد هدأ غضبه : « نعم اني أحبها .. قولي اذن » . وجلس .

فقالت : « اعلم يا سيدي أن أرمانوسة تحبك حبا ليس بعده غاية لمستزيد ، أما قسطنطين فهي لا تعرفه ، ولكن قلبها عالق بأركاديوس البطل الهمام . ولم آت هذا الدير الا لأستطلع مكنونات قلبك وأعلم مقدار حبك لها . أما وقد عرفت ذلك فقد هان الصعب وخاب قسطنطين ، ولن يدرك شعرة من رأسها . وها أنذا قد أخبرتك الحقيقة فتدبر الامر ، ولا ريب عندي أنها ثابتة في حبك ولا ترضى عنك بديلا ، مهما يكلفها ذلك من المشاق ، وبخاصة اذا علمت بما دار بيننا قبل مجيئي اليك . وقد فارقتها على أن أقابلك وتتواطأ على وسيلة تنقذها من مخالب ذلك الرجل » .

فأبرقت أسرة أركاديوس ونظر الى بربارة وقد فرح قلبه وأشرق وجهه وقال : « أما والحال على ما تقولين فلا نخاف أحدا ، وأنا لها وهي لي ، ولا عبرة بما يسعى فيه الناس ، فهم انما يضربون في حديد بارد . أما قسطنطين فاذا لم يؤخذ بسيوف العرب في حرب الشام فاني قاتله بحد هذا الحسام ، ولكنني أحب أن تعلم أرمانوسة ذلك لتزداد ثباتا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . وما عليك الآن الا أن تذهبي اليها وتخبريها بعزمي وتقولي لها ان أركاديوس حبيب ثابت في محبتك ثبات الجبال ، فاثبتي أنت وانتظري الفرج من عند الله ومن سيف أركاديوس » .

فقالت : « أما اخبارها بهذا فعلي أنا العاجزة التي تتعهد ببذل نفسها في سبيلكما ، فطيبا نفسا وقرا عينا ، وغدا ان شاء الله أدبر حيلة في الذهاب اليها وأطلعها على ما دار بيننا وأعلمك بما سيكون ، فقد سرني

كثيرا ارتباط قلبيكما » .

ثم فكرت قليلا وقلبها فرح بما علمت فرأت أن تثبت قوله بالعمل وتعود الى سيدتها بما يحقق أملها فقالت : « ولكن يا سيدي ما الذي يثبت قولي لها ويوطد علاقة المحبة بينكما وأنتما الى الآن لم تتشافها صريحا ؟ » .

فلبث أركاديوس يفكر ثم قال : « صدقت .. ولكن ماذا عساي أن أرسل اليها ، وما أنا على استعداد لذلك ؟ ثم مد يده الى خاتم في بنصره يريد اخراجه ولكنه توقف هنيهة ممسكا بالخاتم كأنه يهم بسحبه ويعترضه خاطر فيمنعه ، وأخيرا نزعه وقدمه الى بربارة وقال :

خذي هذا الخاتم فانه خاتمي ، وقد نقش عليه النسر الروماني واسمي ، وسلميه اليها يدا بيد ، واحذري أن يعلم أحد بذلك . واعلمي اني قد سلمتك شرفي ؛ ووضعت فيك ثقتي ، وهذه هي أول مرة خاطبتك فيها فلا تخيبي أملي . وأطلب اليك أن تحفظي ما دار بيننا ، واحذري أن تفوهي به أمام احد . فانك اذا أصغيت الى مقالي وسلكت مسلكا يرضيني نلت خير الجزاء . أما اذا بحت بالأمر أو خالفت وصيتي فأنت تعلمين جزاءك » .

فتناولت الخاتم وقبلته وقالت : « طب نفسا وقر عينا ، فاني الخادمة الامينة لك ولسيدتي التي هي أعز لدي من روحي » .

* * *

ثم نهضت فقبلت يده وطلبت اليه أن يأمر بمن يوصلها الى صندوق رئيسة الدير ، والا يتعرض لها أحد بشيء ، فنادى خادمه الخاص وأوصاه أن يرافقها الى حيث تريد ، فسارت وأخرجت الكتاب خلسة وتظاهرت بحمل الايقونة ، ونزلت حتى أتت مقام الرئيسة والراهبات فأعطتها

الايقونة ، وأخبرتها أنها أطالت المكث هناك حتى تمكنت من تدبير الحيلة لاخراج الكتاب وكانت قد خبأته في جيبها ، وأرادت الذهاب به لتوها الى سيدها أرسطوليس ولكنها خافت أن تقع في أيدي الحراس فيفتضح الامر ، فلبثت بقية ذلك الليل حتى اذا أقبل الصباح ذهبت بالكتاب اليه ، فاذا هو في انتظارها على مثل الجمر ، فلما رآها مقبلة نهض لملاقاتها وأدخلها غرفته وسألها عن الكتاب ، فمدت يدها الى ثوبها وأخرجت اسطوانة من القصب الفارسي دفعتها اليه ، فتناولها وقد علم أن الكتاب في داخلها ففتحها من أحد طرفيها وأخرج الكتاب فاذا هو رق من جلد مطوي ، اذ كان أكثر استخدام الرق للكتابة في بلاد العرب وعند سائر أهل البادية ، أما المصريون فكانوا يكتبون على البردي ، ففض الكتاب وقرأه فاذا هو مكتوب بالقبطية من البطريرك بنيامين الى المقوقس فتلاه وهاك ترجمته :

« ولدنا بالرب يوحنا قرقت حاكم مصر

« قضي علي بالانزواء في هذا الدير ، وأنت تعلم اني انما أبعدت اليه ظلما وعدوانا بأمر أعدائنا دينا ووطنا ورئيسهم البطريق الاسكندري، لأنهم ضلوا سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه . ولست أنا أول من صبر على هذا الاضطهاد ، فأنت تعلم أن كثيرين من البطاركة ذهبوا ضحية هذا الضلال . وأنا لا أطلب لهم الا الهداية الى الحق ، ولا أدينهم ولكن الله يدينهم . وأما ما أوجب كتابة هذا اليك فهو أنني علمت عن ثقة أن العرب الذين قد ظهروا بالدعوة الى الاسلام والجهاد في سبيله قد حاربوا الروم في العراق وفارس وسورية وفلسطين وتغلبوا عليهم ، وأخذوا البلاد من أيديهم . والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده . وقد علمت أنهم قادمون الى مصر لانتزاعها من أيدي أعدائنا ، وأنا أعلم انك لا تستطيع المخاطرة بالانحياز اليهم كما أخبرتني غير مرة ، لئلا يعود

ذلك علينا بالوبـال ، وقد أعجبني ذلـك منك لأنه دليل على الحـزم والدراية ولكنني واثق بثباتك مع سائر أولادنـا جماعة الاقباط الذين أثقل الدهر كـاهلهم بالاستبداد والعسف ؛ وقد مضت عليهم قرون وهم يئنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم .

« وقد رأيت في ليلتي هذه حلمـا تفاءلت منه خيرا ، وعلمت ان هؤلاء العرب أرسلهم الله لانقـاذنا من أيدي الروم . على أننـا لو أردنا دفعهم ما استطعنا اليه سبيلا ، لأن الله منحهم النصر فيما قاموا به ، فلم يهاجموا حصنا الا فتحوه ، ولا نازلوا جندا الا هزموه ، ولا يخفى عليك أن الروم قد دالت دولتهم ، ولو أراد الله نصرهم ما خرجت بلاد الشام من أيديهم . واعلم أيضا أن هؤلاء العرب قد قـاموا يدعون الناس الى دينهم ، فأما أن يقبلوا الدعوة أو يحاربوا الى آخر نسمة من حياتهم أو يستسلموا ويدفعوا الجزية . أما أنـا فلا أرى أن تخرجوا من دينكم الذي ولدتم عليه ، ولـكن الاستسلام ودفع الجزية لهؤلاء العرب أولى بنا وأقرب الى خلاصنا من الظلم . فاذا كنت لا تزال على ما أعلم فافعل وأنقـذ البلاد من الشر ، واحذر أن تتحـول عن عزمك ، وهـا اني أصلي ليلا ونهـارا وأدعو الله أن يأخذ بيدك ويلهمك ما فيه خيرك وخير البلاد .

« وأخيرا أهديك البركة وأدعو لك ولسائر أبنائنا وأخواننا بالروح ، والرب يحفظكم .

البطريرك بنيامين »

فما جاء على آخر الكتاب حتى كلل العرق جبينه ، وتذكر ما قام بين القبط والروم من الضغائن ومـا قاساه الأولون من الاستبداد والجور ، ثم لف الكتاب وخبأه في مأمن وقـال لبربارة : « اذهبي بسلام واذا رأيت أبي فاخبريه بأن له معي كتابا أريد اطلاعه عليه » . فقبلت يده وعادت تريد

الخروج فناداها فرجعت فقال : « الى أين تذهبين الآن ؟ » . قالت : « الى الدير » فقال : « لا تطيلي مقامك هنا لئلا تستبطئك سيدتك فيضطرب بالها لما نحن فيه . فأسرعي بالرجوع وأخبريها أننا في خير » .

قالت : « ولكنني أخشى ألا أدركها في عين شمس فيصعب علي المسير وحدي الى بلبيس » .

فقال : « وما العمل اذن ؟ » .

قال : « الرأي رأيك يا مولاي . وحبذا لو أذنت أن يرافقني اثنان من رجالك الى عين شمس . فاذا كان الركب لا يزالون هناك انضممت اليهم وعاد الرجلان . والا رافقاني الى بلبيس ، والأمر أمرك » .

فقال : « هل علمت أن أبي سار برفقة أرمانوسة ؟ » .

قالت : « بعث الينا ونحن في منف أن نسير بسيدتي الى عين شمس حيث يكون هو في انتظارنا فيرافقها الى بلبيس » .

قال : « الارجح أنك ستشاهدين سيدك في عين شمس ! فاليك هذا الكتاب وادفعيه اليه يدا بيد واحذري أن يراه أحد غيره » . ومد يده وأعطاها الاسطوانة وفيها الرق المعهود .

فتناولته وقالت : « وأين أخبئه ؟ فاني أخاف اذا رآه أحد من الروم أن يأخذه مني وينكشف الأمر ! » .

قال :: « اجعليه في ثيابك وهم لا يفتشونك لأنك امرأة . فضلا عن أنك من خدم أبي » .

ثم أمر باثنين من رجاله ، فأتيا ، فأوصاهما بأن يرافقاها الى عين شمس وهي على مسيرة ساعتين أو ثلاث من الحصن . فاذا ظفرا بركب والده هناك تركاها وعادا ، واذا كان الركب قد أقلع رافقاها الى بلبيس . وأعطاهما كتابا الى أركاديوس ليأذن لهما بالخروج من الحصن ، وأمر لهما بمركبة يجرها ثوران قويان ، فأخذا الكتاب وسارا الى دير المعلقة ،

وكان أركاديوس هناك يفكر في بربارة وأرمانوسة فلمـا جاءه الجنديان بكتاب أرسطوليس أذن لهما ، ونظر الى بربـارة بطرف خفي كـأنه يوصيها باتمام الأمر مع أرمانوسة والعودة اليه بالجواب حالا ، فأشارت اليه بعينيها مجيبة .

* * *

خرج الثلاثة من الحصن وقد مالت الشمس الى المغيب وليس في طريقهما الى عين شمس الا الغياض والبساتين من الكرم والجميز والنخيل وبعض الابنية ، ومعظمها كنائس وأديرة ، وفي بعض هذه البقعة ممـا يلي جبل المقطم بنيت بعد ذلك الفسطاط والقاهرة .

وركبت بربارة المركبة وتناوب الجنديـان الركوب على الثورين فمروا بتلك الحقول ، وما زالوا يجدون السير حتى دنوا من عـين شمس وكـانوا قد عرفوا مكـانها من مسلتها التي تشاهد عن بعد ، والمدينة اد ذاك قد تداعت الى الخراب وتهدم سورها سوى جزء صغير منه ، أما هيكلها الذائع الصيت فبعد أن كـان مدرسة تتسابق اليها الأمم من سائر أقطـار العالم لاقتباس علوم المصريين وفلسفتهم وكهانتهم أصبح خرابا بلقعا ينعق فيه البوم ، ولـم يبق منه الا بعض الجدران والاعمدة . وأما المسلتان العظيمتان عند بـابه فكانتا لا تزالان قائمتين شامختين تناطحان السحاب ، يكلـل رأس كل منهما تـاج من النحاس قد صدىء واخضر فلسـا نزل عليه المطر سال الصدأ على ما تحته ، أما الاصنام الهـائلة التي كان المصريون القدماء يعبدونهـا ابان دولتهم فكانت لا تزال قائمة ، وقد غشاها الذل وغطاها التراب ، على أن ضخامتهـا ما برحت داعية الى الرهبـة .

فلمـا بلغوا المدينة ترجلوا واجتازوا السور فاذا بالمدينة خالية خاوية ،

فأرادوا الاستفهام عن أمرها فشاهدوا بيوتا حقيرة قائمة على أنقاض السور من الخارج فتقدم الرجلان الى بيت منها وهما في لباس الجند ، فلما رآهما أهل البيت ذعروا وفروا وتركوا البيوت وشأنها • ثم سمع الجنديان نباح الكلاب وشاهدوا كلبين كبيرين هجما عليهما ينبحان نباحا شديدا فناديا أهل المنزل فلم يظهر أحد ، ثم سمعا خوار الثورين فالتفتا فاذا بهما قد ذعرا لنباح الكلاب فخافا أن يفرا بالمركبة ويتيها بين الأشجار ، فرجع أحدهما وأمسك الثورين وشدهما الى شجرة بحبل من ألياف النخيل ، وعاد الى رفيقه وبربارة وكانا قد مشيا وهما يحاذران أن يعضهما كلب حتى بلغا بيتا منهما فاذا بالباب مغلق فطرقاه فلم يجبهما أحد فعجبا لذلك ، وخافا أن يكون في الامر خطر ، فمضيا الى بيت آخر والكلاب تنبح ، فلاقاهما رجل شيخ يتوكأ على عصاه وقد حناه الكبر وكلله الشيب ، وأرسل شعر حاجبيه على عينيه وتدلت لحيته على صدره ، فتقدما اليه وسلما فحياهما وجلس الى حجر يلتمس الراحة ، فسألوه عن سبب ما شاهدوه من نفور هؤلاء الفلاحين وفرارهم فقال : « وهل أنتم من جند الروم ؟ » • قالا : « بل نحن من جنود مولانا المقوقس ، وما سبب سؤالك ؟ » •

قال : « ان على سؤالي هذا يتوقف جوابي ، أما وقد علمت أنكم من اخواننا القبط وتحققت ذلك من لهجتكم فأخبركم أن سبب نفور هؤلاء الناس منكم أنهم رأوكم بلباس الجند فظنوكم من جنود الروم • ولا يخفى عليكم ما آلت اليه حالنا من معاملتهم لنا بالقسوة والجفاء ، وكم مروا بنا مثل مروركم هذا وكلفونا ما لا طاقة لنا به من الأثقال حتى كانوا اذا رأوا عندنا متاعا أخذوه ، أو حيوانا ساقوه ، أو طعاما أكلوه • وآخر ما لاقيناه منهم منذ بضعة أيام اذ مر جماعة منهم يريدون قصر الشمع فلم يغادروا شيئا في طريقهم الا أفسدوه ، فداسوا الزرع ، وساقوا

المـاشية ، ونهبوا البيوت ، ولمـا كلمهم ابني وتضرع اليهم أن يشفقوا على حالنا أوسعوه ضربا ولكمـا ! فلا لوم على قومنا في الفرار ، وأنا والله لولا عجزي عن الركض ما وقفت أمامكم • فالحمد لله على مـا حصل ، واعلموا أننا رهن اشارتكم في كل ما تريدون ، فانزلوا عـلى الرحب والسعـة » •

قال أحد الجنديين واسمه مرقس : « أالى هذا الحد تخافون رجال حكومتكم ؟ » • فتأوه الشيخ تأوها عميقا ورفع نظره اليهما وقد بل الدمع عينيه ، وقال : « كأني بكما لغضاضة شبابكما وحداثة سنكما لم تذوقـا ما ذاقته هذه الشيبة ، ولا قاسيتما ما قـاساه هذا الشيخ ! الحق أن حالنا مع هؤلاء الروم يتفتت لهـا الصخر ، وقد مضى علي ثمـانون عاما لم أذق فيها الراحة يوما ، ولا سمعت خبرا مفرحا • وقد وقعت في الخطـر مرارا ، وذقت العذاب ألوانا • وكم تمنيت أن يملك بلادنـا هذه أهل البجة أو أهل الحبشة ، فانهم أقرب الى الشفقة والرحمة من هؤلاء • ويلوح لي ان الزمن المنتظر قد اقترب ! » • وكـان يكلمهما وهو مطرق لانحناء ظهره وهما مصغيان لكلامه حتى شغلا عن سيدهما والسؤال عنه • ولكن بربارة ذكرتهما بما جاءوا من أجله ، فقال مرقس للشيخ : « لقد سرنا حديثك ولذ لنا كلامك الذي هذبته الايـام وحنكته السنون ، ولكننا نسألـك قبل اتمـام الحديث عن ركب مولانـا المقوقس ، هل مر بكم من هنا ؟ » •

قال : « نعم انهم باتوا البارحة هنا وأصبحوا فجر هذا اليوم وأقلعوا شرقا وهم الذين بشرونا بقرب الفرج » •

فلمـا رأى الجنديان الا بد لهما من الذهاب الى بلبيس مع بربارة ، وان الشمس قد مالت الى المغيب ، عولا على المبيت حيث هم ، فاذا أصبحوا ساروا الى بلبيس • فمكثوا وقد طاب لهم حديث ذلـك الشيخ وقال له مرقس : « هل تأذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة ؟ » •

قال : «على الرحب والسعة يا ولدي » • ونادى أولاده فظهـروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين ، وأسرعوا مهرولين ، بعضهم قـد ركب على ثور ويجر خلفه حمارا يحمل بعض البرسيم ، وآخـر يسبوق أمامه الماشية ، وفيهم شاب قد ربط يده الى عنقه ، وكان مع ذلك يحمل بيده الاخرى عصا طويلة يسوق بها سربا من الأوز ، فالتفت الشيخ الى مرقس وقال : « هذا هـو أصغر أولادي الذي أشبعوه ضربـا كـما أخبرتك » • فتقدم الاولاد وهمـوا بتقبيل يدي الجنديين وهم يرتجفون خوفا ، فابتدرهم والدهم قائلا : « انهمـا يا أولادي من رجال المقوقس ، فلا تخافـوا » •وأمرهم بأن يعدوا لهما طعاما ومقاما للمبيت ، وأن يقدموا علفا للثورين ويربطوهما بعمود بالقرب من البيت •

فقال الجنديان : « هلم بنا يا شيخنا ندخـل هـذا الهيكل فنتـم حديثنا هناك ، واذا تعبت أسندناك » • فنهض على عكازه وأعانـه بعض أولاده فدخلوا جميعا من ثغرة في السور حتى بلغا الهيكل فاذا بآثـار وطعام وأقدام ، فعلموا أنها آثار المقوقس وحاشيته ، ثم جلسوا على أحجار ملقاة هناك وكانت من أحجار الهيكل فسقطت وفي جملتها قطعة من مسلة ، وقد قام في صحن الهيكل شجرة من الجميز هائلة تظلل ذلك المكان ، فجلس كل منهم على حجر وأخذوا بأطراف الحديث والشمس قد آذنت بالزوال ، وأخذ الشفق في الظهور واستولى السكون علـى تلك الخرائب حـتى يكـاد الرجل يخشى رهبة المكان ، واذا التفت حوله فلا يرى الا انصابا عظيمة تناطح السحاب ، وأصناما ترعب قلوب الأبطـال ، ولولا ذلـك ما دان لها الفراعنة العظام ! •

فلمـا استتب بهم المقام قال مرقس للشيخ : « رأيناك تبشرنـا بقرب الفرج ، فماذا عنيـت ؟ » •

قال : « قلت يظهر أن الفرج قد اقترب وأعني أن الله قد أراد انقاذنا

مـن هؤلاء الظالمين . ولكنني أتكلم الآن وأخاف أن يسمعني واحد منهم » . فقال الجنديان : « قل ولا تخف ، ليس منهم أحد هنا » .

فقال الشيخ : « سمعت من بعض جالية الشام أنه ظهر في بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس الى دين جديد ، والتفت حوله عصابة قوية من الرجال الاشداء ، حاربوا الروم في بلاد الشام وغلبوهم ، ويلوح لي أنهم لا يقعدون عن طلب مصر فانها أخصب بلاد الروم وأكثرها تاجا ، ولا أظنهم يلاقون في فتحها مشقة . وقد سمعت بالامس من بعض رجال مولانا المقوقس أن هؤلاء العرب قد عولوا على القدوم الينا ، والظاهر أنهم لا يزالون بعيدين » .

فقال مرقس ــ وكان أفصح من رفيقه جرجس وأكثر منه جرأة : « ما الموجب لظنك بعدهم ؟ » .

قال : « لأني أرى سيدي المقوقس ذاهبا بموكبه يهتم بتزويج ابنته أرمانوسة بقسطنطين بن هرقل ، وهذا ما علمته أيضا من هؤلاء ، فلو كان العدو على الابواب ما حمل ابنته الى بلبيس وهي في طريق العدو اذا جاء من ناحية الشام » .

فقال مرقس : « ان المصائب قد كتبت علينا ولا ندري عاقبة هذه الحروب ، ولكنا نرجو النصر لنا ، لأن حصوننا ومعاقلنا منيعة ، وليس هؤلاء العرب الا فئة قليلة من البدو يركبون الجمال ويرعون الماشية ، وأما جنود الروم فرجال محنكون ، وأما هرقل فانه شديد البطش . وقد حدثني أبي أنه هو الذي أخرج الفرس من مصر بعد أن ملكوها ورسخت أقدامهم فيها » .

فهز الشيخ رأسه ومشط لحيته بأصابعه كأنه تذكر أمرا ساءه ، ونظر الى مرقس وقال : « لقد ذكرتني يا ولدي أمورا كادت تذهب من ذاكرتي . نعم أن هرقل أخرج الفرس من مصر بالقوة ، ولكنه لا

يستطيع دفع العرب عـن بلاده . والظاهـر لنا من حاله وحـالهم أن دولته قـد دنا أجلها لأن النصر مرافق لهؤلاء القوم ، فلم يهاجموا مدينـة الا فتحـوها ، حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمـن وغيرها ، ولـم تستطع جنود الروم الوقوف أمامهم ، وما ذلك الا لمـا أراده الله مـن انقسامنـا وقيام بعضنا على بعض ، والا ما كان العـرب ولا غيرهم يقوون على جندنا . وكيف يستطيع هرقل دفـع هذا العدو عن بلاده وهو علـى ما تعلم من حاله معنا ؟ أتظن القبط اذا جاءهـم العرب محاربـين يقاومون حبـا في الروم ؟! بـل أقول لك وأنا أحد الأقبـاط اني أفضل أية دولة تحكـم هذه البلاد على دولة الروم لمـا قاسيناه من جورهـم واستبدادهم! نـعم انهم مسيحيون مثلنا ولكن الوثني خـير منهم ، اسألوا هذه الشيبة فتنبئكـم بمـا قاسيناه من ذلك ، فكم هدموا من كنائسنا ، وأهلكوا من بطاركتنـا ، وجردونا من أملاكنا ! أهذه أعمـال مسيحيين ؟ . أنظروا الى هذه البساتـين فاني أعمـل في فلاحتها مع أولادي وأحفادي فنزرعها كرما ونخيلا فلا يبقى لنا من النخيل الا بعض القطع نجعلهـا سقوفـا لبيوتنا ، وقليل من التمر نأكله ، ولا يكـاد يبقى لنا من الكرم الا بعض العنب نصطنع منه شيئا من الخمر ، وأما الباقي فيأكله المارون من جنـد الروم ويغتصبه الجباة وغيرهم ، فضلا عما يسوموننا من الخسف والذل . أمـا ماشيتنا فنصيبها مثل نصيب الزرع أيضـا ، وبعد أن كانت ثيراننـا عشرة نستخدمها للركوب أو لجـر الاثقـال لم يبق لنا منهـا الا هـذا الثور . وقد سمعت من رجـل قدم من الشام حديثا أن العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم ، وأباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم أحد في ذلك ، أليسوا اذن خيرا من الروم ؟ » .

« ولكن آه من حظنا نحن المصريين فان الشقاء قد كتب علينا ! وأذكر يـوم جاء الفرس بلادنـا منذ أربعين سنة ــ وقد كنت كهلا ، وكـان

مقامي في الاسكندرية أتجر في الغلال والذرة وكنت في سعة من العيش ـ أننا سمعنا أن دولة الفرس قامت على الروم ، وكان ملك الروم اذ ذاك يدعى (قوقا) وكان ضعيفا فحاربوه وفتحوا الشام وقدموا مصر . وكان ملك الفرس يدعى كسرى وقد اشتهر بشدة البأس ، فلما سمعنا بقدوم جنده الى مصر قلنا في أنفسنا عساهم أن يكونوا خيرا لنا من الروم فننجو من جورهم ، ولكن واأسفاه ، لم يمض زمن حتى علمنا بدخولهم بلادنا ، وكانوا كلما دخلوا بلدة قتلوا أهلها وخربوا كنائسها ، وكسروا نخيلها ، وقد أحصي عدد ما أحرقوه من الاديار فبلغ ستمائة ، فأسقط في يدنا وخفنا عاقبة أمرهم الى أن وصلوا الى الاسكندرية وأخذوها ، فأظهروا لنا في بادىء الامر أنهم يريدون بنا خيرا ، ولكنهم عاملونا بعدئذ معاملة لم يعاملنا بمثلها الروم ، وذلك أنهم دعوا أهل المدينة الى الاجتماع زاعمين أنهم يريدون الانعام عليهم واكرامهم ، فتقاطر الناس أفواجا الى مكان الاجتماع ، ولم أستطع الذهاب اليه لبعده وانشغالي بعملي . وكان اجتماعهم في قاعة كبيرة منيعة السور ، في المكان الذي كان أجدادنا المصريون يعبدون فيه الصنم سرابيس . وحكاية هذا الصنم تذكرني بما أتاه أباطرة الرومان القدماء من الخير لبلادنا . وما جاء به هؤلاء المتأخرون من الشر ! » .

- ٤ -

المسيحيون ومظالم الرومان

قال مرقس للشيخ وقد حلا له حديثه لكثرة ما أفاد منه : « وما حكاية الصنم سيرابيس يا سيدي ؟ » . فقال الشيخ : « لا يخفى عليكم

يا أولادي أن أجدادنا المصريين كانوا يعبدون الاصنام التي ترون بعضها أمامكم ، وأمثالها كثير في أنحاء القطر ، وبعد أن ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه الديار تنصر أجدادنا الاقباط وبقي حكامنا الروم على اعتقادهم الوثني ، وأذاقونا العذاب والاضطهاد ألوانا ، وأشد تلك الاضطهادات ما هو معلوم بيننا من أمر الامبراطور دقلديانوس المشهور بظلمه ، وهو الذي قتل الشهداء منذ ثلاثة قرون أو أكثر فكان ذلك شر ما جناه الروم علينا ، حتى اذا ما تولى قسطنطين الأكبر اعتنق الديانة المسيحية وحمى المسيحيين • وكانت أمه القديسة هيلانة التي ذهبت وعثرت على صليب المسيح كما تسمعون •

« غير أننا ما زلنا نقاسي الاضطهاد ممن خلفوه الى أن تولى العرش الامبراطور الطيب الذكر ثيودوسيوس الأعظم منذ قرنين ونصف قرن ، وكان حسن الايمان فأفرج عن الاقباط ، وبعث الى مصر بهدم الهياكل الوثنية وبناء الكنائس على رغم الشعب الروماني • وكان في الاسكندرية هيكل اسمه هيكل (سيرابيس) فيه صنم هائل كسروا فكه بالفؤوس فتراكضت منه أسراب من الفيران كانت تعيش فيه فسقطت منزلته لدى الوثنيين أنفسهم • ومن عهد ثيودوسيوس هذا ثبتت الديانة المسيحية وأخذت تنتشر ، وعمد المصريون الى اقامة الكنائس حتى قام ما قام من الانشقاق بين لاهوتيي الاسكندرية ولاهوتيي القسطنطينية بسبب مسألة الطبيعة والطبيعتين ، مما جر علينا هذا البلاء ، والبقية تعرفونها »•

قال مرقس : « وماذا كان من أمر الفرس واخواننا الاقباط بعد أن جمعوهم في مكان واحد ؟ » • قال الشيخ : « سمعنا أنهم قتلوا الآلاف منهم صبرا ، فلما سمعت بالواقعة حملت أولادي وأهلي وما خف حمله من المال ، وخرجت حتى جئت هذا الموضع وأقمت به ، وقد خسرت كل ما ملكت يداي ، ورضيت بالفقر والمسكنة تخلصا من الموت • أما

الفرس فأنهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وهي عـاصمة الروم كمـا تعلمون ، ثم علمت أن الروم لمـا رأوا ضعف ملكهم (فوقـا) عزلـوه ونصبوا (هرقل) هذا ، وكان قبلا واليـا على افريقية ، فجاء القسطنطينية وقتل فوقا وأخوته ، وحارب الفرس مرارا ، ثم يئس من الفوز ، فعـزم على أن ينقل مقر ملكه الى تونس ، ولكـن ذلك عظم على الروم ، وقام البطريرك اذ ذاك وشد أزره ، فرجع الى محـاربة الفرس ، فمكنه الله منهم حتى دفعهم عن بلاده ، وعادت مصر الى حوزته ، ولكنه عـاد الى ما كان عليه أسلافه من الاستبداد بنا واضطهـاد بطاركتنا ، وكان على الاسكندرية البطريرك بنيامين التقي الورع فاضطهده واستبدل به بطريركـا اسمـه قورش ، وأراد هذا القبض على بنيامين ففر من الاسكندرية الى بريـة أسقيط ، وأقام في (تيبايس) حيث يكثر نصراؤه وهو هناك الى الآن .

« على أن هرقل لم يكتف بهذا العمل ، فلمـا فاته القبض عـلى البطريرك قبض على أخيه مينـا ، وكان لا يزال في الاسكندرية وأرسله مغلولا الى القسطنطينية . وقد سمعت أن هرقل تملقه استجلابا له حتى يسلم برأيه وهو التعليم بالمشيئة الواحدة والطبيعتين ، فلم يذعن له ، فأمر به فطرح في النـار حتى كـاد يحترق ، ثم أخرجه منها وجعل يلكمه على فكيه حتى سقطت أسنانه ، وأمر بكيس فملىء رملا ثم وضعه فيه وأمر بالقائه في البحر حيث مـات شهيدا ! » .

وسكت الشيخ قليلا ، ثم استأنف حديثه فقال :

« هذه حكايتنا يا ولدي حكيتها لكم كمـا شاهدتها ، وتحدثني النفس أحيانا أن هؤلاء العرب يعاملوننا معاملة الفرس والرومـان فتكون البلية الثانية شرا من الاولى ، ثم تخطر ببالي معاملاتهم للبلاد التي افتتحوها الى الآن فأراهم أفضل لنا من الروم » .

ولم يستطع الشيخ أن يتم حديثه لشيخوخته وضعفه ، وكان الجنديان

وبربارة وسائر الحضور مصغين اليه وقد ارتاحوا الى حديثه واستأنسوا به ، فالتفت مرقس اليه وقال : « قد سرنا حديثك أيها الشيخ ، ولك شكرنا على ما جئتنا به من الفوائد ، وقد صدقت في قولك بأننا خلقنا لنشقى ، ولكننا نتوسم في قدوم هؤلاء العرب خيرا . أما اذا غلبتهم الروم فاننا في حوزة الروم نحارب بسيفهم ، لنا ما لهم وعلينا ما عليهم ، والا فاننا نكون مع الغالب » .

ثم نهض من مجلسه ودنا من الشيخ وهمس في أذنه قائلا : « ان مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت ، فاذا رأى الغلبة للعرب انحاز اليهم ، وهو سيدنا وْوالينا ، ولولا الحامية الرومية المراقبة لأعماله لفتح للعرب صدر بلاده ولم يرم عليهم نبلا » .

فقال جرجس ــ الجندي الآخر ــ وكان يسمع حديثهما : « ولكن كيف يكون هذا عزمه ويزوج ابنته لقسطنطين بن هرقل ويحملها بنفسه الى بلبيس ؟! » .

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلا : « لا تتجاهل يا ولدي الحقيقة . كيف تستغرب ذلك وأنت تعلم أن تمنعه يجر وبالا على جميع الأقباط ، وهو يود كتمان هذا الامر عن كل انسان الى أن يقضي الله ما يشاء » .

أما بربارة فكانت مستأنسة بالحديث فلما ذكرت حكاية أرمانوسة وقسطنطين تذكرت سيدتها وما تحمله اليها من الاخبار المهمة ، وخافت أن يسبق السيف العدل فيأتي قسطنطين ويأخذ سيدتها قبل وصولها اليها بخبر أركاديوس ، فقالت للشيخ : « اسمح لي أن أتطفل عليك بالسؤال عن أمر يهمني ، سمعتك تقول خلال كلامك انك عرفت رجلا قادما من الشام ، وهو الذي أخبرك عن معاملة العرب لأهلها ، فهل أخبرك بشيء عن مجيء قسطنطين » .

قال الشيخ : « أظنه قال لي ان قسطنطين قتل في بعض المواقع ،

ولكنني لم أتحقق الخبر » •

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبهـا في صدرها من الفرح ، وأحبت أن ترى المخبر فقالت : « ان الخبر اذا تحقق كان من الاهمية بمكـان ، اذ يترتب عليه عودة سيدتي أرمانوسة الى منف » •

فقال جرجس : « هل تظنين أنها تحزن اذا مـات قسطنطين ؟ » •

قالت : « لا أدري يا سيدي ، فقد تحزن لأن اقترانها بابن أمبراطور الرومان شرف عظيم ، ولكن الله يفعل ما يشاء ، وأود كثيرا أن أعـرف الحقيقة لأن أرمانوسة سيدتـي وأنا وصيفتها ، ويهمني هذا الخبر كمـا يهمها ، فهل أستطيع لقاء ذلك الرجل ؟ وأين هو ؟ » •

فقال الشيخ : « لا أعرف ، ولكنه كان هنا منذ بضعة أيام وقد سافر لزيارة بعض الاديرة ، ولا أدري أين هو الان ، على أن الخبر كان صحيحا فلا أظنه يخفي على مولانا المقوقس والمواصلات جاريـة بينه وبينهـم ، والجواسيس منبثة في سائر الانحاء ، ويغلب على ظني أن العرب أشاعوا هذا الخبر تثبيطا لعزائم الروم ، وعلى كل حال فلا خفي الا سيظهر » •

وبينما هم في الأحاديث اذ جـاء أحد أبناء الشيخ حاملا علبة من الخشب قدمها الى الشيخ وفيها شيء من الخمر المصنوعة من التمر ، فتناولها الشيخ وأعطى الجنديين اياها قائلا : « اليكما قليـلا من الخمر فانهـا من بقايا غلة نخيلنا هذا العـام ، وهي لذيذة » • فتناولا العلبة وشربـا قليلا وأعطيا الشيخ فشرب •

ثم قال الغلام : « أن الطعام قد حضر ، فهل تتفضلون بتناوله ؟ » •

فنهض الجميع وكـان الجوع قد أخذ منهم مأخذا عظيما ، وعادوا الى البيت فاذا بمصطبة صغيرة قد مد عليها سماط بسيط عليه بعض الأطعمة في آنية من خشب الجميز وأقداح من الخزف وبعضها من الخشب أيضا فيها بعض الخمر ، والمصطبة مصنوعة من الخزف الملون ، وقد مد فوقها

سقف من جذوع النخل وسعفه ، قائم على دعـائم من خشب السنط •
وجعل الشيخ يعتذر لضيوفه عن تقصيره في ضيافتهم ، فتناولوا ما حضر وقضوا هزيعا من الليل في الاحاديث الى أن جاءهم النعاس فناموا •

* * *

فلنتركهم نياما ولنذهب بالقـارىء في رفقة موكب المقوقس الى بلبيس • أما الموكب فكان مؤلفا من عربة المقوقس وهودج أرمـانوسة ، ورجال الحـاشية وفيهم الراكب والراجل ، وكـان يحمل الهودج ستة من العبيد : أربعة من الوراء واثنان من الامـام ، ووراء المركبة رجل يحمل مظلة من ريش النعام • ومركبة المقوقس يجرها فرسان من جياد الخيل عليهما السروج الفضية يقودهما سائسان في زي خاص بهمـا ، وكلما مر الموكب بقرية أو بلدة خرج أهلهـا لاستقباله بالزهور والرياحين ، وكـانوا قد برحوا عين شمس في الفجر على أن يدركوا بلبيس مساء ذلك اليوم ، فمالت الشمس نحو المغيب وقد أشرفوا على بلبيس ؛ وهي قائمة على أرض مرتفعة قليلا ، وفي منتصفها قصر شامخ أعدوه لاستقبال العروس ، وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها ورجال حكومتها بالازهار والموسيقى فاستقبلوا الموكب ، وتقدمت جماعة من الجواري تتقدمهـن نساء الحاكم بأكاليل الازهـار الى خارج السور ، فرافقنه حتى اقترب من القصر فأنزلن العروس من هودجها ، ودخلن الحديقـة بـين عزف الموسيقى وترتيل المرتلين ، حتى وصلن الى القاعـة المعدة لاستقبالها ، وهي مفروشة بأحسن الأثاث من الخز والديباج ، ومزينة بأحسن الرسوم •
ثم جاءت جواريها يعددن لهـا ملابسها لتغيير ثياب السفر بعد أن قدمن لها المرطبات والمنعشات ، وكانت امرأة الحاكم تعد نفسها سعيدة لنزول تلك الضيفة عليها •

أما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته وأنزلهم على الرحب والسعة ، وقد أووا الى الفراش مبكرين التماسا للراحة من وعثاء السفر . وفي الصباح أوصى المقوقس حاكم بلبيس خيرا بابنته وودعها على أمل اللقاء قريبا ، فبكت هي لفراقه بكاء مرا ، خوفا من أن يكون الوداع الاخير لعلمها بما هي فيه وما قد أعد لها من الشقاء ، وجلست بعد سفره وحيدة تفكر في حالها ، وقد هاج بلبالها ، وهي لا تستطيع بث شكواها لأحد وشعرت بافتقارها الى بربارة خادمتها الامينة اذ كانت لا تعلم بما جرى لها بعد دخولها الحصن ، ولما تصورت الحصن تذكرت أمرها مع أركاديوس وقسطنطين ، فاشتد عليها الحزن حتى بكت وهي تحاذر أن يراها أحد .

قضت سحابة ذلك اليوم في تلك الهواجس لا يهدأ لها بال ، ولا تنفك مطلة تارة من هذه النافذة وطورا من تلك ، تنتظر مجيء بربارة ، وتحسب شجر النخيل عن بعد أشباحا آدمية لفرط قلقها .

أما بربارة فقد باتت والجنديين في عين شمس على نية التبكير الى بلبيس ، فلما أصبحوا أعدوا المركبة وأطعموا الثورين علفا كافيا ، ولكنهم خافوا ألا يكونوا على بينة من طريقهم فسألوا الشيخ : هل يعرف أحد أولاده الطريق ؟ فقال : « ان ولدي هذا يعرفها جيدا ، وكثيرا ما ذهب لابتياع بعض الاقمشة وبيع ما يفيض عندنا من غلة أرضنا » . ثم ناداه فحضر فقال : « عليك يا ولدي بمرافقة أصحابنا الى بلبيس راكبا الثور أبيس فتصل بهم اليها ثم تعود بلا ابطاء لئلا نقلق عليك » .

فلما سمع مرقس اسم أبيس تذكر اسم العجل الذي كان المصريون يعبدونه قديما فقال : « أراك دعوت ثورك باسم اله المصريين القدماء » . فضحك الشيخ ثم قال : « انما دعوناه بذلك لحكاية غريبة اتفقت لنا وكانت سببا لنفع عظيم ! »

قال : « وما هي حكايته ؟ » . فقال : « ان هذا الثور قوي العضل ،

قــد عودناه المناطحة ففاق جميع الثيران ، ولا يخفى عليكم ان مناطحــة الثيران عادة قديمة في هذه البلاد ولكنها نادرة اليوم ، أما هذا الثــور فقد حافظ على تقاليد أجداده من اتقان هذا الفن ، فاتفق ان بعض الناس ممن يأتوننا للمبادلة على الغلة بالكرم كان عندهم ثور مناطح ، وكانــوا معجبين ببطشه ، فطلبوا الينا أن نراهنهم على مناطحته ثورنا فراهناهم على بقرة تأخذها منهم اذا غلب ثورنا أو نعطيهم غلة نخيلنا هذا العــام كلها اذا غلب ثورهم ، فقبلنا الشروط ، وتناطح الثوران ، وكانت الغلبة لهذا الثور ، اذ كسر قرن ثورهــم ، واستولينا على البقرة ، ودعوناه من ذلك الحين (أبيس) اشــارة الى براعته في المناطحة مثل أجــداده ثيران المصريين القدماء ! » •

فعجب الجنديان لهذه الحكــاية ، ثم أسرع المسافرون بالرحيل بعد أن تناولوا شيئا من الطعام ، وحملوا معهم التمر الجاف يتناولونه في أثناء الطريق اذا جاعوا لئلا يمتنع عليهم الطعام في طريقهم ، وملأوا قربتين من المــاء ، وساروا يتقدمهم ابن الشيخ راكبا الثور أبيس وقد كممه لئــلا تخطر له المنــاطحة في الطريق مع الثورين الآخرين ، وودعوا الشيــخ والقريــة وساروا •

وما انفك الجندي مرقس منذ برحوا الحصن في شغل شاغل ، وكان قد تمنى عند خروجه من الحصن الا يجد المقوقس في عين شمس رغبة منه في الشخوص الى بلبيس لحاجة في نفسه بالقرب منها ، ولكنه أسرها ولم يخبر بها أحدا • فلمــا جاءوا عين شمس وعلموا باقلاع المقوقس سر كثيرا ، وعند ركوبهم في الصباح عزم على أن يمر بالبلدة التي له فيها ذلــك الغرض دون أن يعلم رفيقه •

فساروا سحابة يومهم ، وبربارة قلقة خوفا من تأخر الرسالة ، فلمــا كانت الظهيرة وقفوا للاستراحة والغداء بالقرب من مزرعة لبعض الفلاحين ،

فيها ساقية تظللها جميزة كبيرة ، ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى أدركهم المساء وهم على مسافة طويلة من بلبيس : « فأرادت بربارة أن يواصلوا السير حتى يصلوا اليها ولو ليلا ؛ فقال مرقس : « الافضل أن نبيت الليلة في هذه البلدة ونصبح ببلبيس في الغد ، لأن الطريق لا يخلو من الخطر » . فاستحسن الرفـاق رأيه وعرجوا على بلدة بالقرب منهم ، وطلبوا مبيتا في منزل قسيسها فرحب بهم وبخاصة لمـا عرف أنهم من جند المقوقس ، فنزلوا عنده ، وأقامت بربارة في دار النساء فبالغن في اكرامها وهن لا يعرفنها ، أما صاحب أبيس فاستأذنهم في العودة لاستغنائهم عنه فأذنوا له وحملوه السلام لوالده .

* * *

سر مرقس كثيرا لنجاحه في مأربه ، وما كـادوا يصلون الى بيت القمص حتى ترك رفيقه هناك وسار الى طرف البلدة الآخر ، حتى بلـغ منزلا على ترعة صغيرة ، وقد خيم الغسق ، ووجد الباب مقفلا وعليه بعض الجند ، فلم يعبـأ بهم بل طرق الباب طرقا خفيفا فناداه مناد من الداخل : « من الطـارق ؟ » . فأجاب : « أنا مرقس ، افتحوا ! » وكـان ينتظر منهم انهم حالمـا يسمعون صوته يتهللون فرحا ، ويبادرون الى البـاب يرحبون بالقادم ، ولكنهم تباطأوا وسمع لغطا وبكـاء . ثم فتح الباب واذا بصاحب البيت وهو رجل شيخ يخرج وفي يده مصباح ، فلما رآه مرقس سلم عليه وهم بتقبيل يديه ، فقبله الشيخ في عنقه ، فشعر مرقس بدموعه تتساقط فبغت ونظر اليه وسأله عن سبب ذلك فقال : « ادخل يا ولدي لأنبئك بما جرى » . فدخلا الى غرفة الاستقبال وأقفلا الباب وراءهما ، فاذا بامرأة جالسة حزينة ، ومنديلها بيدها تمسح به دموعها ، فازداد ذهوله وألح في السؤال عن السبب وقال : « ما بالـك يا خالة ؟

ماذا جرى لكم ؟ وأين هي مارية ؟ » . فقالت المرأة وقد علا بكاؤها : « وأية مارية تعني يا ولدي ؟ » . فأجاب وقد بغت : « أية مارية ؟ أين هي مارية ؟ » قولي لي » . قالت وقد خنقتها العبرات : « ان مارية يا ولدي سيأخذونها بعد يومين ، ولن تراها عيوننا . آه منهم ! » . قالت ذلك وشرقت بدموعها .

فصاح مرقس وقد ثارت فيه الحمية : « والى أين يأخذونها ؟ ومن هم ؟ » .

قالت : « سيأخذونها منا ويقدمونها ضحية للنيل يا ولداه ! » .

فعلم مرقس ان الاختيار قد وقع عليها في هذه السنة لتلقى في النيل كما هي العادة عند المصريين ، اذ كانوا يلقون كل سنة في النيل فتاة بحلاها استدرارا للغيث ورغبة في الفيضان ، وتحقق لديه ان حبه لها وخطبته اياها قد ذهبا أدراج الرياح ، ولكن الحب غلب عليه فنادى بأعلى صوته : « انهم لن يأخذوها واني لأفتديها بروحي ومالي .. أريد أن أراها الآن » .

قالت : « وأين تذهب بها ؟ ألم تر الشرطة واقفين بجوار البيت يترقبون حركاتنا وسكناتنا ؟ فاذا أتينا أمرا فانما نجني على أنفسنا » .

فقال : « ولكن العادة الا يأتوا هذا الامر الا برضاء أبيها ، فهل رضي عمي بذلك ؟ » .

فقطع عمه عليه الكلام قائلا : « كيف أرضى بهذا الامر ؟ لقد حاولوا ارضائي فأبيت ، فأرادوا أخذها بالعنف بدعوى أنهم ينفذون قضاء الله وأن القرعة في السنة الماضية وقعت على فتاة اسرائيلية ، وفي هذه السنة وقعت القرعة على مارية » .

فصاح مرقس : « لا فاض النيل ولا ارتوت الارض اذا لم يكن ذلك الا بهذه الطريقة ، اطمئنوا وألقوا الامر علي وأنا أنقذها . أين هي

لأراهـا ؟ » .

فقالت أمها : « هي في غرفتها تندب وتبكي يا ولداه وتأبى أن تكلم أحدا أو تر أحدا » .

قال : « أريد أن أراها فلعلي أستطيع تعزيتها ، وأنا أعلم اني قادر على انقاذها » . وكـان قد تذكر بربارة ، وأنها مقربة الى المقوقس ، فبدا له أن يستنجدها ، فتذكر أمر مارية للمقوقس أو ابنته فيصدر الامر باستبدال أخرى بها . فقال : « أروني اياها ولا تيأسوا من رحمة الله » .

فأمسكته امرأة عمه وقادته الى غرفتها وهي ترعش كيدا وحزنـا ، ولما سمعت الفتاة وقع أقدامهما نادت بصوت ضعيف كالانين من فرط ما ناحت وبكت وقالت : « آه انقذوني من مخالب الموت ، أو أروني مرقس قبل مماتي » . ثم خنقتها العبرات فأجابها مرقس قائلا : « لا تخـافي يا مارية ها أنذا قد جئتك جاءك الفرج من عند الله » .

فلما سمعت صوته نهضت لساعتها ، وارتمت على قدميه قائلة : « آه ان مارية لم يبق لها في هذه الدنيا الا يوم وليلة ، فأشفق على ضعفي وانقذني اذا كان ثم أمل في الحياة . يا أبتاه ويا أمـاه : انتشلاني مـن مخالب الموت ، أشفقا على صباي . آه من الحيـاة : ما أحلاها ومـا أمرهـا ! » .

فلم يتمالك مرقس نفسه عند سماع كلامها عن البكـاء ، ثم تجلد وأخذ بيدها ، فاذا هي باردة كالثلج ، وكـانت الفتاة قد أغمي عليهـا فرشوها بالمـاء حتى أفاقت فأجلسوها ، وعينا مرقس لا تفارقانها وقلبه يكاد ينفطر ، ثم نظر اليهـا وقال : « لا تخـافي يا مارية ، فاني قد دبرت وسيلة لانقاذك ، وأنا واثق بـأن الله لا يحرمني من قربك » .

فلما سمعت الفتاة كلامه عادت اليهـا قواها وتجلدت ، وجلست وهي تنظر اليه بعينين مملوءتين بالدمع ، وقد ذبلت جفونهما ونكسرت أهدابهما ،

وامتقع لون وجهها ، ولكن الجمال بقي متجليا فيه ، فازداد هيام مرقس بها حتى هان عليه الموت في سبيل انقاذها ، ثم رأى الوقت يكـاد ينفد ، ولم يبق لميعاد أخذها الا يوم وبضع ساعات . فوقف ونظر الى الفتاة وقال : « قلت لك لا تخافي يا مارية ، فان الذي أنقذ يوسف من البئر ودانيـال من جب الاسود ، قادر على أن ينقذك من مخالب الموت ، وها أنذا ذاهب لأنظر في الامر وأرجع اليكم في الغد ان شاء الله » .

قال ذلك وهم بالخروج فأمسكت الفتاة بثوبه وقالت : « لا . لا تذهب لأني لا أرى حيلة تستطيعهـا لانقاذي ، وقد قدر الله أن أذهب فريسة العادات والطقوس ، فدعني أتمتع برؤيتك هذه الساعات القليلة » .

فازداد هيام مرقس ، وثارت المروءة في صدره ، واستسهل كل صعب وقال : « تشجعي يا عزيزتي وخففي عنك ، فقد قلت لك أني قادر عـلى انقاذك اذا ذهبت الساعة ، أما اذا بقيت هنا فالوقت يذهب وتضيع الفرصة من يدنا ، فاستودعك الله الى الغد لأن الميعاد الذي ضربوه لك لا ينتهي قبل صباح بعد غد ، وأنا أعود اليكم في ظهيرة الغد » .

وخرج فأحست مارية أن قلبها يتبعه ، وأما أبوها فرافقه الى الباب وقال له : « احذر يا ولداه أن يشعر الحرس بما أنت عازم عليه فيشددوا النكير علينا ، فاذا كـان لنا بقية أمل في النجـاة قطعوها » . قال ذلك وتنهد ، ولحقته امرأة عمه وهي تقبله وتقول : « اذهب يا ولدي في حراسة الله ، وهو يكون معك ويبارك عملك » . فودعهما وخرج لا يكـاد يرى طريقه لفرط ما ألم به ، وسار قاصدا بيت قسيس البلدة على أمل أن يكلم بربارة تلك الليلة ويتضرع اليها أن تخاطب سيدتهـا أرمانوسة في الامر ، وهذه تسأل أباها أن يفرج عن الفتاة أما بالعفو ، وأما بالاستبدال .

وبينما هو في طريقه رأى الحرس وقوفا بالسلاح ، وكـان لم يعرهم التفاتا حين مجيئه ، وأما الآن فكان يرتاب في كل أحد ، لفرط ما انتابه من الجزع • ولم يبلغ بيت القسيس الا بعد العشاء ، ولم يكن قد ذاق طعاما فطرق الباب فاذا القسيس قد أعد طعام ضيوفه واستبطأ مرقس ، فلما رآه عائدا رحب به واستقبله وقال : « لقد أبطأت علينا يا ولدي ، وهـا نحن في انتظـارك على المائدة » • فشكر له ودخل • وامـارات الكدر والكآبة تلوح في وجهه وهو يحـاول اخفاءها ، فلحظ القسيس فيه ذلك فسأله عن سبب كدره فغالطه ودخل معه الى المـائدة ، وكـان رفيقه جرجس في انتظاره ، وقد قلق لغيابه ، فسلم عليه وسأله عن سبب غيابه ، فذكر أنه ذهب لزيارة بعض أقاربه وعاد •

وأما مرقس فلم يكن يستطيع الأكل ، وأراد أن يكلم بربارة ، فعلم انها مع زوجة القسيس في الغرفة الاخرى تتناولان العشاء ولا يستطيع مقابلتها الا في الصباح ، فصبر على مضض وجلس الى المـائدة ، وتظاهر بأنه يؤاكلهم ولكنـه كـان مشغول البال لا يفوه بكلمة حتى كلمـه القسيس سائلا : « هل عرفت على من وقعت القرعة هذه السنة لتكـون ضحية النيل ؟ » •

فخفق قلب مرقس وارتعدت فرائصه عند سماع كلمـة ضحيـة النيل ، ولكنه تجلد وتجاهل وقال : « لا يا سيدي لم أعلم » • وغلب عليه الكدر حتى غص بالطعام ، ولكنه أراد سماع تتمة الحديث فقال : « ولكنك لم تقل لي على من وقعت ؟ « •

قال القسيس : « وقعت على مارية بنت المعلم اسطفانوس العسال ، وهي فتاة على جانب عظيم من التهذيب والتقوى والجمال ، وقد جـاء والدها الي بالامس وطلب أن أعاونه على انقاذها فتفطر قلبي لمـا شاهدته من لهفته على ابنته ، ولكن أنى لي أن أعينه ؟! » •

فقال مرقس وهو يحاول التجلد وتكـاد عواطفه تقتله : « ولكن ما هذه العادة القبيحة ؟ وهل تظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضحية تأثير في مجـراه ؟ » .

قال : « لا يا ولدي ، انها من العادات الوثنية التي تنفر منها أذواقنا ويأباها بالطبع ولا تسلم بها الديانة ، بل تنهي عنها لأنها قتل للنفس » .

فقال جرجس : « واأسفاه على هذه الفتاة ! كيف تكون حالها الليلة ؟ وكيف يأتيها الرقاد ؟ بل كيف حال أبويها ، وماذا يصيبهما اذا نفذ الامر فانهـا وحيدتهما ؟ » .

فقال القسيس : « واني لأعجب أيضا كيف يحكمون باختيارهـا ، وينفذون الحكم فيها بغير رضاء أبيها ، والعادة أنهم اذا اختاروا فتاة أرضوا أباها بمال أو شيء آخر حتى يسمح لهم بابنته ، وأنا أعلم يقينا أن المعلـم اسطفانوس لا يرضى ببيع ابنته ، فان ذلك عارا مبينا » .

فقال جرجس : « أي شيء يجري بيننا يا سيدي على سنة العدل ، ونحن نقاسي كل يوم من الامور ما تنهي عنه الديانة والطبيعة » .

فقال القسيس : « قلت لكم اني أعجب للحكم عليها بدون ارضاء والدها ، ولكنني أعترف لكم بأمر عرفته سرا وهو الذي جر عليها هذا الحكم ، فهل تعدونني بكتمانه اذا أخبرتكم به ؟ » .

فتوسم مرقس بابا للخير ، وكـان غارقا في بحار الهواجس ، فقال : « نعم نكتمه » .

فقال القسيس : « علمت ان شيخ البلدة طلب هذه الفتاة زوجة لابنه ، فرفض أبوها ، فحقد عليها ووشى بها الى حاكم بلبيس وحمله على قتلها على هذه الصورة » .

فقال جرجس : « ولماذا لا يرضى أبوها بابن الشيخ ، وهو خير أهل هذه القريـة ؟ » .

قال القسيس : « سمعت أن هذه الفتاة عالقة القلب بفتى تحبه هي ويحبه أبوها كثيرا ، وقد عقد النية على تزويجها به ، وهما يعلمان الآن أن سبب هذا الشر رفضهما ابن الشيخ ، وقد سمعت الرواية ولا أضمن صحتهـا » •

فلما سمع مرقس هذا الكلام اقشعر جسمه وهبت الغيرة فيـه ، وخنقته العبرات ، فأمسك عن الطعام متظـاهرا بانحراف صحته ، ونهض عن المـائدة ملتمسا قضاء حاجة له في حديقة البيت ، فلم يعترضه أحد ، فخرج حتى خلا الى نفسه ، فمسح دموعه واحتار في أمره هل يطلع القسيس على حقيقة شأنه ، أو يبقيه سرا مكتوما ؛ ولكنه تجلد وعاد يريد سماع تتمة الحديث الى آخره . فاذا رأى فائدة من الكلام تكلم •

فلما دخل الغرفه عاد القسيس الى كلامه فقال : « ومن الغريب أن هذه المسألة لم تجر العادة بالقطع بها الا بعد البحث والتدقيق وموافقة مولانا المقوقس عليها ، ولكنني عرفت أنه لم يعلم بها هذه المرة ، ولعل ذلـك ناتج عن انهماكه في أمر ابنته وزواجها وبالأخبار التي تواترت عن قدوم العرب على ما بلغنا ، ولذلك فهو لن يحضر الاحتفال بضحية النيل هذا العام ، ولن يحضره الاعيرج ولا رجاله لأنهم في شغل شاغل كمـا قدمنا ، ولكن شيخ هذه البلدة سيذهب هو وبعض رجاله ، وهي فرصة اتنهزها لانهماك المقوقس ، ونراه مسرعا في تنفيذها خوفا من فواتها » •

ثم أظهر القسيس الملل من هذا الحديث وأراد تحويله فقال : « هل سمعتم شيئا عن العرب ؟ » •

فقال جرجس : « أما العرب فقد تحققنا قدومهم لحربنا ، ونرى جنودنـا في استعداد لملاقاتهم ، ولكنهم لم يبلغوا الحدود بعد ، وقد أرسل مولانا المقوقس جانبا من الحـامية الى الحدود ، وأقـام جانبا آخر في حصن بابل ليدفع بهم الاعداء عن مدينة منف » •

فتبسم القسيس متهكما ولم يجب • فقال له جرجس : « وما الذي

أوجب تبسمك أيها الاب المحترم ؟ » .

قال : « ابتسم لقولك أن المقوقس يعد رجاله لدفع العرب ، والظاهر أنكم على كونكم من رجاله لا تعرفون حقيقة مقاصده ! » .

فتجاهل جرجس خيفة أن يكون في مجاهرته ضرر عليه لأنه من الجند ، فقال : « وما الذي يعلمنا ؟ وهل لمثلنا أن يعلم بمقاصد رئيسه السرية ؟ نحن نعلم أننا نتهيأ للدفاع عن بلادنا ومحاربة العرب اذا جاءونا ، هذا ما يظهر لنا من غرضه » .

فقال القسيس : « أما مقاصده الحقيقية يا أولادي فهي أن يسلم هذه البلاد لأي فاتح كان تلخصا من جور الروم وسوء معاملتهم لنا معاشر الاقباط » . فبالغ جرجس في التجاهل لكي يتحقق ما سمعه فقال : « ربما كان قولك مبنيا على الحدس ، لأن الظواهر الحالية تنفي هذا القول ، فان المندقور الاعيرج بعدته ورجاله الروم ورجالنا الوطنيين قد تحصنوا جميعا في حصن بابل ، فكيف تكون مقاصده كما تقول ؟ » .

فهز القسيس رأسه مستهزئا وقال : « يظهر يا ولدي أنك لم تختبر الدنيا ، أتحسب هذه الظواهر دليلا على حب المقوقس الدفاع ؟ الا تعلم أنه انما يفعل ذلك خوفا من الاعيرج قائد الحامية الرومانية ؟ وقد قلت لي في أثناء حديثك أن جنود الروم في الحصن مع الوطنيين ، وهل من الوطنيين جند في مصر ؟ » .

قال : « أريد حاشية مولانا المقوقس » .

قال : « أما حاشية المقوقس فشرذمة لا يعتد بها ، انما العمدة على الجند الرومان ، فهم حامية البلاد ، فاذا علموا بسريرة المقوقس قتلوه لا محالة ، وأنا أخبرك الخبر اليقين واؤيد قولي بالبرهان ، ولكنني أطلب منكم حفظ ذلك سرا » . ثم خفت صوته وتطاول بعنقه نحوهما وقال : « ان المقوقس جمعنا نحن القسس الاقباط في اجتماع سري لم يعلم به أحد ، وأطلعنا على مقاصده الحقيقية وأوصانا بالكتمان ، ودربنا على

الطريقة التي تتصرف بها عند الاقتضاء . فمـا رأيك بعد ذلك ؟ » . فقال جرجس : « أما وقد قلت هذا فأنت أعلم بالحقيقة ! » .

وكان مرقس في أثناء تلك المحادثة غارقا في بحار الهواجس ، وأفكاره مشتغلة بأمر حبيبته ووالديها والطريقة المثلى لانقاذها من هـذا الشرك ، فأدرك القسيس ارتباكه فقال له : « مالي أراك صامتا يا ولدي ؟ » . فقال وقد أفاق من هواجسه : « اني أفكر في تلك الفتاة وما وقع عليهـا من الظلم ، وأراني شديد الميل لنصرتها واعلم أني اذا فعلت ذلك أنقذت نفسا من القتـل » .

قال : « نعم يا ولدي وحبذا لو كـان ذلك بيدي فلا أتوقف لحظة عن اغاثتها ، ولكنني اذا أظهرت هذا الميل وقعت في شر مثل شرها ، لأن حاكمنا ينتمي الى الروم وهم يصغون الى ما يقوله ويعملون برأيه ، وزد على ذلك ان الوقت قد فات ، ولا وسيلة لانقاذ الفتاة الا بأمر من المقوقس نفسه وتصديق الاعيرج عليه ، أما المقوقس فبعيد منا الآن لأنه كـان في بلبيس ، ورأيناه عائدا منها في هذا المساء جنوبا ، وأظنه يريد منف ولا حيلـة في الامـر » .

فعظمت المصيبة على مرقس ، ثم تذكر بربارة ودالتها على أرمانوسة ، فأمل أن ينال بغيته على يدها ، وتمنى لو استطـاع أن يكلمها في تلـك الساعة ، ولكنه خاف مغبة الامر فاعمل فكره ، ثم قال للقسيس : « هل تسمح لي بكلمة على انفراد ؟ » . فقال : « تعال يا ولدي » . فخلا به وقص عليه الخبر كما وقع ، وأخبره أنه هو خطيب الفتاة ، وأنه تعهـد بانقاذها من مخالب الموت ، وان الموت أهون عليه من التقاعد عن ذلك ، ثم أنبأه بأمر بربارة وأنها خادمة أرمانوسة الخاصة ، ولعلها تتوسط لـه عند سيدتهـا .

فقال القسيس : « ولكنني لا أرى أن في استطاعة أرمانوسة أن تعينك ، فحاكم هذه البلدة ينتمي الى الروم ولا يصدع الا بأمرهم ، ولا

سيما أن له مأربا في قتل الفتاة • ولكني سأدعو لك بربارة لعلها تعرف وسيلة أخرى » • ثم بعث اليها فحضرت ، فقص مرقس حكايته من أولهـا الى آخرها ، وتوسل اليها أن تبذل جهدها في الغد لانقاذ الفتاة •

فقالت بربارة : « اني أشارككما في النفقة عليها ، وسأبذل مـا في وسعي لانقاذها ، والاتكـال على الله ، أمـا سيدتي أرمانوسة فانها تعمل بكل ما أقوله لهـا ، فاذا كان الامر في يدها فثقوا أن الفتاة ناجية باذن الله ، والا فالامر له يفعل ما يشاء » • ثم فكرت قليلا كأنهـا تذكرت بابا للفرج فقالت : « اني أضمن انقاذها ، اننا سنكون في بلبيس صباح الغد ، وهم لن يأخذوا الفتاة الى النهر الا بعد غد ، وسأجتمع بمولاتي قبل ذلك فتدبر الأمـر » •

ولمـا انتهوا من حديثهم ذهب كل الى منامه • أما مرقس فلم يغمض له جفن تلك الليلة ، فبات تتقاذفه الهواجس بين اليـأس والامل والخوف والرجـاء ، وبكر في الصباح الى بربارة فأعد المركبة هو ورفيقه وودعوا القسيس وساروا قاصدين بلبيس •

— ٥ —

الاحتفال بضحية النيل (١)

كان حاكم تلـك البلدة قد هم بقتل مارية انتقامـا منها ، فاتخذ أمر

(١) ان القول بضحية النيل عند المصريين لم يثبت وانما جئنا به هنا للاشارة الى ما يقال من هذا القبيل وفيه لذة وتسلية اما راينا فتجده مفصلا في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من الهلال الصادر في ١٥ اغسطس سنة ١٨٩٥ •

ضحية النيل ذريعة لتنفيذ مآربه وسعى جهده لدى حاكم بلبيس حتى أذن له بالنيابة عن المقوقس أن تلقى الفتاة في النيل بعد غد ذلـك اليوم ، وجعل الحرس حول منزلهـا حرصا على تنفيذ مأربه ، لعلمه أنهم اذا تمكنوا من الوصول الى المقوقس عرقلوا مساعيه •

وكان الحراس يقضون الليل ساهرين فلمـا جاء مرقس ودخل المنزل جعلوا يتجسسون ويتسمعون لمـا يدور من الحديث فسمعوا توعـده وعزمه على انقاذهـا • فلمـا خرج من البيت ذهب بعضهم الى الحاكم وأخبره بما سمع ، فخاف أن تذهب مساعيه عبثا اذا أبطـأ فبكر في الصباح التالي وبعث الى أهل الفتاة أن يعدوا عدتهم لأخذها الى النيل في ذلـك اليوم ، زاعما أن دواعي خاصة ألجـأته الى الاسراع • وأمر بعض النساء المعدات لمثل ذلك الاحتفال أن يذهبن الى الفتاة فيلبسنها أفخر اللباس ، ويجعلن عليها أحسن ما لديها من الحلى والمجوهرات ، ويهيئنها كمـا هي العادة مع ضحية النيل • وبعث الى قسس تلـك البلدة أن يسيروا معها بالمـلابس الرسمية •

على أن العادة كـانت أن يحضر هذا الاحتفال البطاركة والأساقفة والخدم والاعيان والوجهاء ، ولكنه أراد الاسراع في الامر لئلا تفشل مكيدته ، وبعث الى صاحب القارب المعد لحمـل الضحية أن يكون على أهبة الرحيل ، وكـان قد أحضر قاربه بقرب تلك القرية الى ترعة متصلة بالنيل • ثم زينوا القارب بأحسن أنواع الزينة كالأعلام والصور الملونة ، وعلقوا فيه أكاليل الأزهار والرياحين ، وجاءوا الى جوار بيت الفتـاة ، وفيه الحرس والجند بسلاحهم من الرمـاح والنبال والسيوف •

ولا تسل عما حل بأهل الفتاة عندمـا جاءتهم النساء ليلبسنها الثياب الفاخرة ، فانهم وقعوا في وهدة اليأس ، ولم يعد لديهم باب يتوقعون منه فرجا • وممـا زاد في مصيبتهم أنهم لم يكونوا يستطيعون البكـاء ولا

الندب ، لئلا يقال أنهم استكثروا الهدية على النيل فيغضب ويمسك عنهم مــاءه •

دخلت النساء وألبسن الفتاة أحسن رداء عندها من الحرير الأحمر النقي ، وجعلن على رأسها وكتفها اكليلا من الازهــار تتدلى منه فروع على ذراعيها ، وعلقن على رأسها وصدرها كل ما كــان عندها من الحلى الثمينة ، وغللن يديها ورجليها بسلاسل من الحديد علقن فيها أشياء ثمينة ، وجللنها بازار من النسيج الأبيض الرقيق غطاهــا من رأسها الى قدميها ، وأنزلنها الى القارب ، ونــزل معها القسس بالملابس الرسمية يصلــون وينشدون ، ونشروا الشراع ، فمضى القارب جنوبا قاصدا رأس الدلتــا عند التقاء فرعي النيل ، وقد غادروا أبويها في حالة يرثى بهــا ، على أنهما لم يستطيعا البكــاء الا بعد أن مضى القارب وأمنا سماع نحيبهما !

أما القارب فسار يخترق عباب المــاء ، وقد علقوا على صدر الفتاة صكا ادعوا أنه صك الرضاء من والدها ، ومعه الامر الصــادر بوقوع الاختيار عليها أن تكون غنيمة باردة لمــاء النيل • ولمــا وصلوا في المساء الى ضفة النيل رسا القارب عند رصيف مبني من حجارة ضخمة عليه نقوش هيروغليفية ، فأنزلوا الفتاة الى البر ، وقد نصبوا خياما لمبيتهم على نية التكبير في الصباح التالي لتقديم ضحيتهم •

وكانت مارية في أثناء ذلك بين الذهول والدهشة ، فلمــا أنزلوها الى البر قدم لها بعضهم طعاما فأبته ، وكــانت لفرط ما بها كلمــا رأت شبحا ظنته مرقس قادما لانقاذها • وباتت تلــك الليلة والناس يتأهبــون للاحتفال بتضحيتها •

وكان ابن الحاكم لا يفتر لحظة عن التشفي منها ، فأوسعها لكزا بمباخرهم وصلواتهم يتوسلون الى الله أن تكون ضحيتهم مقبولة لــدى النيل • وكــان في نية الحاكم أن يلقيها بغير احتفال ولا صلاة ، فدار

وفي الليل أتى اليها وتهددها قائلا : « أين مرقس الآن ؟ ها أنت ذي في قبضة يدي ، وغدا تذهبين ضحية النيل » • فصمتت ولم تجبه •

وفي الصباح التالي بكروا وحملوها وأوقفوها على حافة الرصيف ، وعلقوا بأغلال قدميها ثقلا من حديد للاسراع في اغراقها ، ووقف القسس حولها دورة يصلون وينشدون ويبخرون ، ثم داروا الدورة الثانية ، وقد أحاط الجند والحرس بالناس وكانوا قد تقاطروا ألوفا ، والحاكم يستحث القسس على اتمام الصلاة ، حتى اذا كانوا في الدورة الثالثة سمعوا صوت نفير عسكري يأمر بوقف الاحتفال ، فالتفت الحاكم واذا بمركبة مسرعة عليها جنديان يحملان علما عليه صورة المقوقس وكتابة يونانية وقبطية ، فاخترقت المركبة صفوف الجماهير التي كانت تفسح لها الطريق حتى دنت من الحرس فنزل أحد الجنديين بأسرع من البرق ، وأخرج رقا من البردى من صندوق صغير من خشب الصندل ودفعه الى الحاكم • أما الجميع فلما شاهدوا المركبة بهتوا وتطاولت أعناقهم ليروا ما جاء به الرجلان • أما الحاكم فتناول الكتاب وفضه ونظر الى التوقيع فاذا هو خاتم أركاديوس ابن الاعيرج فبغت وعلا وجهه الاصفرار ، وجعل يقرأ الكتاب ويداه ترتعشان ، فرآه مكتوبا باللغة اللاتينية وهاك ترجمته :

« من أركاديوس بن المندقور الاعيرج ، الى حاكم بلدة (••••)

« آمرك باسم والدي المندقور قائد جند الروم بمصر ، أن تكف عن الاحتفال الذي أقمته لضحية النيل فور وصول هذا الكتاب اليك ، وعليك أن تحل عقال الفتاة وترجع بها الى بيت أبيها ريثما يصدر اليك أمر آخر ، وان أبطأت في تنفيذ أمرنا وقعت تحت طائلة العقاب ، وقد أمرت حامل كتابي هذا ، وهو من خاصتي ، أن يراقب عملك وينبئني بما تعمل •

« كتبه أركاديوس بن الاعيرج • في حصن بابل سنة (•••) لحكم الامبراطور هرقل » •

فلمـا قرأ الحاكم الكتاب أصبح الضياء في عينيه ظلاما ، وأخذ يتأمل الخاتم ويكرر تلاوته ، فلم ير مندوحة عن العمل به خوف العقاب ، فأمر بحل عقال الفتاة والرجوع بها وبمن معه الى بلدته كاسف البال وقـد أسقط في يـده !

أما مارية فلمـا أخذوا يحلون قيودها ظنتهم يريدون القاءها في النيل وأن الساعة قد دنت ، فجعلت تتوسل اليهم أن يتمهلـوا ، فأخبروها أنهم يحلون القيود للرجوع بها الى بيت أبيها فلـم تصدق وحملت ذلك منهم على محمل الخداع ، فازدادت في البكـاء ، ولم تتحقق الامر الا لمـا رفعوا عنها الأزهار ، فالتفتت الى الجمع فرأتْ حبيبها مرقس بالقرب منها ينظر اليهـا والمركبة الى جانبه وعليها علم المقوقس ، فرجع صوابها اليها ، وأيقنت بالنجاة ، وهـدأ روعها ، فأنزلوها الى القارب ونزلوا جميعـا ومرقس واقف ازاء المركبة ينظر الى مارية مبتسما وعيناه تدمعان مـن الفرح ، وهي تنظر اليه وتود أن يرافقها بالقارب ، ولكنهـا أدركت أنها ستلاقيه في بيت أبيها .

وركب مرقس المركبة مع رفيقه جرجس وعـاد توا الى بلدة مارية ، وأخبر والديها وأهل منزلهـا بما كـان فطاروا من الفرح ، وشكروا الله على ذلك ، وخرجوا لملاقاتهـا على مسافة غير بعيدة من البلد . ولا تسل عن ساعة اللقـاء ما كـان أحلاها ، وكم بكى الجميع بدموع الفرح .

أما الحـاكم وابنه فقد ظلا حاقدين ومؤملين تنفيذ مأربهما في فرصة أخرى ، على أن الحاكم كـان عالما بأنه تجاوز حده فأصبح خائفا .

ولمـا نزلت الفتاة في بيتها أخذت تبحث عن طريقة نجاتهـا وعيناها لا تتحولان عن الباب في انتظار قدوم خطيبها لتشكره على مساعيه . وهي تستغرب حدوث ذلك منه ، وتعجب بشهامته . وكـان قد خرج في حاجة وما لبث أن عاد والتقى بمارية وجلسا يتشاكيان الغرام .

- ٦ -

ارمانوسه في بلبيس

تركنا أرمانوسة في قصر حاكم بلبيس على مثل الجمر في انتظار بربارة لتعلم ما جرى أو ما كان من أمر حبيبها ؛ وكانت جالسة الى النافذة تفكر في حالها وما هي فيه من الخطر بين أن تذهب ضحية عواطفها أو تسلم نفسها الى من لا تحبه . فأخذت تتلهى بما يقع عليه نظرها من بلبيس وضواحيها ، فرأت القصر الذي فيه أرفع مكان في المدينة ؛ ورأت الناس يتزاحمون في بعض الاسواق . والجند يهتمون في بناء الاسوار أو ترميمها ، وشاهدت على الاسوار أبراجا عليها الاعلام الرومانية ؛ ووراء الاسوار سهول بعضها رملي وبعضها غياض فيها الاغراس من النخيل والكرم ؛ تتخللها أبنية قديمة أكثرها قد تداعى الى الخراب فهجرها الناس .

وبينما هي في ذلك ، وقد خيم الغسق ؛ جاءتها احدى الجواري فوقفت بين يديها فقالت : « ما وراءك ؟ » . قالت : « امرأة الحاكم تسأل عن حضرتك وتريد المثول بين يديك » . فتكدرت أرمانوسة من تلك الزيارة لرغبتها اذ ذاك في الخلوة لتفكر في حالها ؛ ولكنها رأت أن تأذن لها لئلا تستنكر أمرها أو تحسب ذلك خشونة منها ؛ فقالت : « لتدخل » . فدخلت وقد تزينت بأحسن ما لديها من اللباس احتفاء بنزيلتها ، وكان لباسها رومانيا مع أنها غير رومانية ولا مصرية ؛ ولكنها من عائلة فارسية قديمة قد شاركت المصريين في معتقدهم وعاداتهم ؛ وهي تناهز الاربعين من العمر . فوقفت لها أرمانوسة ورحبت بها وأجلستها الى جانبها وأخذت تبش لها وتحادثها ؛ فقالت المرأة : « لقد نزلت أهلا ووطئت سهلا ؛ ونحن نعد أنفسنا سعداء بنزولك بيننا » ونطلب اليه تعالى

أن يتمم أسباب سعادتك باقترانك بابن امبراطورنا المفخم » • قالت ذلك وهي تظن أنها تسرها بـه • فاضطربت أرمانوسة عند سماعها أمر الاقتران ، فتجلدت وأظهرت ارتياحها لذلك التلطف بغير أن تجيبها حياء ، ولكنها غيرت الحديث قائلة : « اني أعد نفسي سعيدة أيتها السيدة الفاضلة » •

فقالت المرأة : « وأرجو أن تكوني مسرورة من اقامتك في بلبيس ، وأن تتمتعي بما تريدينه ، وتأمرينا بكل ما ترتاحين اليه ، فاننا أوقفنا أنفسنا لخدمتك » •

قالت أرمانوسة : « أشكرك شكرا جزيلا فقد استأنست بك كثيرا ، وأشعر بارتياح كبير الى لطيف حديثك » •

فقالت المرأة : « وان أكن يا سيدتي فارسية الاصل فاني أعد نفسي وطنية ، اذ قد ولدت في هذه البلاد وربيت فيها ، وآنست من أهلها رقة ودعة تنسي الغريب بلاده ، وبخاصة ما نلاقيه من مولانا والدك من الانس واللطف والاهتمام بشؤوننا ، وقد سمعت زوجي يقول انه مسرور سرورا عظيما لاختيارك بلبيس موطئا لقدميك ، فانه يزداد فخرا بقدوم مولانا قسطنطين امبراطور الرومان اليها ، وهذا شرف قلما تحصل عليه مدينة ، فنطلب اليه تعالى أن يعجل بمجيئه لنفرح بك ونراك عروسا لابن الامبراطور » •

فوقعت هذه الكلمات في أذني أرمانوسة وقع الصاعقة حتى كادت الدموع تتناثر من عينيها لعظم تأثرها ، فحولت وجهها الى النافذة ولم تبد جوابا • فحملت المرأة ذلك منها على الحياء من التكلم في أمر الزواج ، وأرادت أن تبالغ في ملاطفتها فقالت : « يظهر أنك غير مرتاحة أيتها السيدة الى حديث العجائز فهل أدعو لك ابنتي قسطنطينية لتجالسك فانها فتاة في سنك ترتاحين الى حديثها ولا سيما أن اسمها يشابه اسم خطيبك ؟ » •

فازدادت أرمانوسة كدرا لتلك الملاطفة وودت أن ترفض ذلـك الاقتراح ، ولكنهـا لم تستطع الا اظهـار الارتياح • فصفقت المرأة واذا بجـارية حبشية قد حضرت ، فأمرتها باستدعـاء السيدة قسطنطينية ، فجاءت تجر ذيل ثوبهـا الارجواني ، وكـانت قد خاطته خصيصا لتلبسه يوم مقابلة أرمانوسة عندما سمعت بقدومها الى بلبيس ، وجعلت عليها كل حليهـا ، فحيتها أرمـانوسة وبشت في وجههـا وأظهرت الائتنـاس بحضورها ، فجلست الفتـاة متأدبـة تعد نفسهـا سعيدة بالمثول بين يدي ابنة المقوقس ، وكـانت قد سمعت بجمـالها وتعقلها ، وأخذت تتأملها وتنظر الى ملابسها وحليها ، وكـانت تسمع بحسن زي أهل منف ولا سيما ابنة حاكم البلاد •

أما أرمانوسة فحالمـا رأت الفتاة وتذكرت أن اسمها مثل اسم من تكرهه نفر قلبها منهـا ، وتشاءمت من رؤيتها ، وندمت على قبولها دخولها عليها ، ولكنهـا تجلدت وأخذت تحادثها وتلاطفها ، وأفكارها مشغولة بأمر بربارة وأركاديوس • ثم بدأت قسطنطينية حديثهـا وقد وجهته الى والدتها قائلة : « هل سمعت يا أماه على من يقع الاختيار هذه السنة لتكون ضحية النيـل ؟ » •

قالت أمها : « سمعتهم يتحدثون في ذلك ، وقد فهمت من أبيك أنهم اختاروا المعلم اسطفانوس من قرية (•••) ، وقد قضي الامر عـلى عجل بغير استعداد » •

فقالت أرمانوسة : « وما هذه العادة القبيحة التي جرينا عليها في هذه البلاد ؟ هل يحسبون النيل ذا عقل يغضب ويرضى حتى يقتلـوا بنا ت الناس من أجله ؟ • اني لم أنفك أكلم أبي في أمر هذه العادة وحثه على ابطالهـا ، وهو يعتذر بأنها عـادة متمكنة من أهل هذه البلاد فلا يستطيع نزعها ، على أني حينما أتصور ذلـك العمـل الفظيع يقشعـر

بدنـــي » •

قالت الفتاة : « الحقيقة يا سيدتي انه عمل فظيع وبخـاصة لأن هذه الفتاة مخطوبة وكـانت تتأهب للاقتران ، فكيف يكون حـال خطيبها اذا علم بأمرهـا ؟ » •

فلما سمعت أرمانوسة ذلك انفطر قلبها على تلك الضحية ، وودت لو تستطيع انقاذها من ذلك المهلك ، ولكنهـا عادت الى هواجسها ، وأرادت قطع الحديث لتخلو الى نفسهـا وتفكر في حبيبها على انفراد • فقضت بـرهة في مثل تلك الاحاديث حتى آن وقت الرقاد ، فذهبوا بهـا الـى غرفة أعدوا لهـا فيها سريرا مجللا بالاغطية الثمينة فأوت اليه وهي تخاف الا تستطيع رقـادا تلك الليلـة لفرط ما بهـا من القلق وما يتقاذفها من الهواجس ، ولكن تعب الطريق سهل عليهـا النوم فنامت حتى الصباح ، ولم تفق الا على صوت أهل القصر وهم يرحبون ببربارة ، فنهضت من فراشها مذعورة وأخذ قلبهـا يخفق مسرعا شوقـا الى معرفة ما تم من أمر أركاديوس ، ثم سمعت قـارعا يقرع البـاب فأذنت ، فاذا ببربارة تدخل عليها وهي لا تزال بثياب السفر ، فقالت لهـا أرمانوسة : « اغلقي الباب وراءك وتعالي » • فأغلقت الباب وأخذت تقبل سيدتها والدموع تسيل من عينيها ، وبشائر الخير تلوح على وجهها !

فقالت أرمانوسة : « أخبريني يـا بربارة عما فعلته فاني قد قلقت لغيابـك » •

• قالت : « لا تقلقي يا مولاتي فاني جئت بالاخبار الطيبة ، وابشري بنجاتك ونيل مرامك ، فان البطل أركاديوس حبيبك أمين في حبك ثابت على ودك لا يستصعب أمرا في سبيل قربك » •

قالت : « اصدقيني الخبر يا بربارة ، واشرحي الحكـاية كما هي » •

فمدت بربارة يدها الى جيبها وأخرجت الخاتم وقالت : « خذي هـذه

الامـانة أولا ؟ » •

فتناولته أرمانوسة ، ولما قرأت اسم أركاديوس عليه جعلت تقبله وهي تقول : « اعذريني يا بربارة اذا استسلمت الى عواطفي ؛ وهذا خاتم حبيبي فكيف لا أقبله ؟! ولكن كيف سلمه اليك وهو خاتم لا غنى له عنه في أعماله ؟ » •

قالت : « دفعه الي على عجل ، ولم يفكر في العاقبة . وقد أراد أن تتخذيه دليلا على ثقته فيك » • وقصت عليها الحكاية من أولها الى آخرها ، وأرمانوسة مصغية كل الاصغاء حتى نهاية الحديث • فسرت لثبات حبيبها وعزمه على التفاني في سبيل انقاذها وقالت : « أشكرك يا بربارة على هذه الخدمة فانها ثمينة لدي وسأكافئك عليها أحسن مكافأة » •

فقالت بربارة : « هل تشعرين بأني عملت عملا يستحق رضاك ؟ » •

قالت : « كيف لا وقد غمرتني بفضلك ؟ » •

قالت : « اذا كنت تشعرين بذلك وتحبينني فأرجو أن تساعديني في انقاذ فتاة النيل • مسكينة ! » •

قالت : « ومن تعنين بفتاة النيل ؟ » •

قالت : « أعني الفتاة التي سيلقونها في النيل غدا ظلما وعدوانا ، وحكايتها تشبه حكايتك على ما سمعت » •

قالت : « كنا في حديثها أمس ، ولكن كيف تشبه حكايتي ؟ » •

فحكت لها كل ما سمعته عن حال مرقس ، وأخذت تطنب في شهامته وتبالغ في شرح ظلم الفتاة الى أن قالت : « فاذا أنقذتها من يد هذا الظالم ينقذك الله من مصيبتك » •

فقالت : « وكيف العمل يا بربارة هل أكتب الى أبي ليأمر بانقاذها ؟ » •

قالت : « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك لأنهم سيحتفلون باخراجها

غدا صباحا : وسيدي أبوك قد -'فر الى منف على ما علمت فلا نستطيع الوصول اليه والرجوع بأمره قبل فوات الفرصة ، وزيدي على ذلك أن الحاكم روماني ، وقد لا يكتفي بأمر والدك وحده بل يطلب أمـرا مـن الاعـيرج » .

فقالت : « وما العمل اذن لانقـاذ هذه الفتـاة ؟ دبري الحيلة وأنا أفعل كما تقولين » .

قالت : « أليس هذا خاتم سيدي أركاديوس واسمه عليه ؟ » .

قالت : « بلى ! هل أبعث به الى الحاكم ؟ » . قالت : « لا . ولكننا نكتب أمرا على لسانه نأمره بايقاف العمـل الى وقت آخر ونختمه بهذا الخـاتم ، فأنت تعرفين اللغة الرومانية ، وأنا آتيك بورق تكتبين عليـه الامر ، وأنا الضامنة لنجاح الحيلة ، ولا أظن سيدي أركاديوس يعاتبك على استعمال خاتمه في انقاذ هذه البريئة من القتل » .

* * *

سرت أرمانوسة لهذه الحيلة ، وكتبت الورقة وختمتها وسلمتها الى بربارة ، فتركت سيدتها في الغرفة ونزلت الى الحديقة ، وكـان مرقس في انتظارها عند الباب وقلبه يتقد قلقا وخوفا لئلا يذهب سعيه عبثا ، فلمـا جاءته بربارة بالكتاب سر كثيرا وتناوله وشكرهـا وخرج يريد القرية ، وبينما هو خارج من بلبيس سمع النـاس يتحدثون بخـروج القسس وبالاحتفال للذهاب بفتاة النيل في ذلك اليوم ، فعاد الى بربارة وأنبأهـا الخبر فاستأذنت سيدتها أن يركب مرقس ورفيقه مركبتها الخـاصة ليدركا القوم قبل فوات الفرصة ، فأذنت لهمـا في ذلك ، فركبا المركبة وسارا حتى أدركـا الفتاة كما تقدم .

وتذكرت بربارة ما سمعته من الشيخ الريفي عـن قتل قسطنطـين

فهرولت الى سيدتهـا وعلى وجهها أمارات البشر وقالت : « تذكرت أمرا ذا شأن كان يجب أن أطلعك عليه قبل كل شيء ، ولا أدري ما أنسانيه ؟٠٠ قالت : « وما هو ؟ » • قالت : « سمعت أن قسطنطين قتل في حربه مع العرب في الشام » •

فلما سمعت أرمانوسة الخبر خفق قلبها سرورا وقالت : « ماذا تقولين يا بربارة ؟ » • قالت : « سمعت ذلك يا سيدتي من الشيخ الذي بتنا عنده في عين شمس ، ولكنه قال انه لم يتحقق الخبر » •

فرفعت أرمانوسة يديهـا الى السماء قائلة : « لا أريد بأحد سوءا يا رباه ، ولكن لا بد لأحدنا من الموت حتى لا نجتمع ، فان كنت قد قضيت على قسطنطين فلتكن ارادتك » • ثم التفتت الى بربارة وقالت لهـا :« وهل يمكننا أن نتحقق ذلك فان تحققه يهمنا كثيرا » •

قالت : « ليس لنا يا مولاتي الا أن نبعث رسولا الى الشام يتجسس الخبر وينبئنـا » •

قالت : « هلم لنبعث أحدا • ومن تظنينه أهلا لذلك ؟ » • فأطرقت بربارة برهة ثم قالت : « أرى أن نبعث الى مرقس ، فانه شهم مقـدام ، ولنـا عليه أننا أنقذنا له خطيبته من القتل ، فاذا عـاد وقد نـال مرامه بعثنا به يستطلع الحقيقة ؛ وأظنه أفضل رجل يمكننا الاعتماد عليـه في هذه المهمـة » •

قالت : « قد أصبت المرمى ، ولكن متى يعود ؟ » • قالت : « أظنه يعود غدا » • قالت : « اذا عاد فكلفيه بذلـك لعله يزيل هذا العناء ، فتكون خدمته لنا مثل خدمتنا له » •

قالت : « حسنا » • ثم تذكرت كتاب البطريق بنيـامين الى المقوقس وأنه لا يزال معها فقالت : « وقد نسيت شيئا آخر لا أدري ما ذهب به عن ذاكرتـي » •

قالت : « وما ذلك ؟ » . قالت : « هذا الكتاب » . وأخرجته من جيبها ، فتناولته أرمانوسة وفضته وقرأت ما فيه ، وقالت : « هذا يجب ايصاله الى والدي سريعا ، فما العمل ؟ » . فقالت : « نبعثه مع جرجس ، فاني قد اختبرت صداقته أيضا ، ولكنه ذهب مع صديقة لانقاذ مارية » .

قالت : « أرسليه بالجواب حالما يعود ولا تبطئي » .

قالت : « حسنا ».وباتتا تلك الليلة تفكران في هذه الامور ، فلما أصبح الصباح من نافذة القصر المشرفة على الطريق ، كانت بربارة وسيدتها مطلتين من نافذة القصر المشرفة على الطريق ، فشاهدتا المركبة وعليها الرجلان والعلم ، وبعد قليل وقفت المركبة بازاء القصر ، فنزلت بربارة واستقبلتهما وسألتهما عما كان فأخبراها بنجاة الفتاة من مخالب الموت ، وقال مرقس « اني غريق فضلك وفضل مولاتنا أرمانوسة ، ولا أدري كيف أكافئها على هذه المنة ، فلا أكاد أصدق أني رأيت مارية حية » .

فقالت بربارة : « هل أنت عازم على المكافأة ؟ » . قال : « نعم » .

قالت : « تمهل قليلا فأخبرك . وأنت يا جرجس تعال معي » فتبعها حتى خلت به في غرفة من غرف القصر وقالت له : « أتحب مولانا المقوقس ؟ » قال : « نعم ، والله يشهد بذلك وأنت تعلمين » .

قالت : « هل عندك للسر مكان ؟ » . قال : « هذا أمر لا تجهلينه أيضا » .

قالت : « خذ هذا الكتاب واعلم أنه كتاب سري عليك الاحتفاظ به جيدا ، وتطلب اليك مولاتي أرمانوسة أن تخفيه بين أثوابك وتحمله الى والدها في حصن بابل وتدفعه اليه بغير أن يشعر بك أحد ، فهل تستطيع ذلك ؟ » .

فأمسك جرجس الكتاب فقبله وقال : « علي القيام بأمرك ، وليكن قلبك مطمئنا ، فان الكتاب سيكون بين يدي سيدي المقوقس غدا ان

شاء الله » •

فقالت : « احذر أن ينكشف أمره فان انكشافه يكون سببا لهلاكنا جميعا • أفهمت ما أقوله لك ؟ » •

قال : « نعم يا سيدتي ، قد فهمته جيدا ، وهل أذهب الآن ؟ » •

قالت : « خير البر عاجله ، ولكن احذر يا جرجس أن يطلع أحد على السر » •

فطمأنها وخرج وقد أخفى الكتاب تحت خوذته وتقلد سيفه وقوسه وسار يريد مقر المقوقس •

أما بربارة فنادت مرقس وأجلسته في غرفة بالقرب من غرفة مولاتها ، ثم دخلت الى مولاتها وأخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب ثم قالت : « وهذا مرقس ينتظر أمرك » •

قالت : « أريد أن يذهب حالا الى الشام فاذا لاقى في طريقه أحدا فليستطلعه الخبر ، وليعد الينا حالا ، والا فليصل الى بيت المقدس • فان العرب الآن في طريقهم من بيت المقدس الى هنا ، فلعله يعثر بهم في الطريق ، أو يواصل السير الى هناك » •

فخرجت بربارة ونادت مرقس فأسرع اليها ، فدخلت به على أرمانوسة ، فقبل الارض بين يديها ، وتأدب في الوقوف ، فأذنت له بالجلوس ، فجلس مطرقا ، فقالت له بربارة : « أتذكر يا مرقس أن شيخ عين شمس أخبرنا بمقتل قسطنطين بن هرقل ؟ » •

قال : « نعم يا مولاتي ، وأذكر انه لم يتحقق الخبر » •

قالت : « صدقت ومرادنا الآن تحقيق الخبر على يدك ، لأنه يهمنا كثيرا » •

فوقف مرقس وحنى رأسه مطيعا وهم بخوذته ليضعها على رأسه ويخرج ، فقالت بربارة : « ماذا تفعل ؟ » قال : « اني ذاهب لاستطلاع هذا الخبر ومعرفة حقيقته » •

قالت : « بورك فيك أيها الشاب ، وقد أعجبتني مبادرتك ، ولك علي أن أحمي مارية من عدوها في أثناء غيابك ، فسر في حراسة الله ، ولكن احذر أن يطلع أحد على ما أنت ذاهب من أجله ، فانك اذا أطلعت أحدا عليه وقع عليك غضب مولاتنا ، وأنت تعلم ماذا تكون النتيجة » .

قال : « سمعا وطـاعة » ، وخرج يدبر وسيلة يسير بها ، غير أنه ما لبث أن أدرك خطر تلك المهمة لأنه سيسير منفردا الى أرض عدوهم ، وهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا شيئا من أحوالهم ، ولكنه صمم على تنفيذ الامر قياما بواجب الخدمة نحو من كـانت السبب في انقـاذ حبيبته من القتل ، فمكث بقية ذلك اليوم في بلبيس يفكر في الأمر حتى أمسى المساء ، فذهب لوداع بربارة ، فحالما رأته بشت له وسألته عما فعله فقال : « ها أنذا ذاهب الليلة » .

قالت : « لا أرى أن تسير ليلا خوفا عليك من خطر الطريق ، ولكنني قد تذكرت شيئا أقوله لك وأظنه يساعدك كثيرا في اتمام هذه المهمة » .

قال : « وما هو ؟ » . قالت : « أرى أن تستحضر ثوبا مثل أثواب العرب ، لأنك اذا التقيت بهم وأنت بهذا اللباس قتلوك » .

فقال : « ولكنني لا أعرف لباسهم ، ولا أذكر أني شاهدت أحدا منهـم » .

قالت : « أنا أعرف لباسهم لأني شاهدت عربيا جاء مرة الى سيدي المقوقس بكتاب ، وكـان ملتحفا شملة بيضاء وعلى رأسه عمامة من نسيج تلك الشملة . فعليك بثوب من نسيج القطن الابيض أو من القباطي وهو كثير عندنا ، وأنا أصنعه لك ثوبا وأعلمك كيف تلف العمامة » .

قال : « فأذني لي بالذهاب الآن لاحضاره » . فأذنت له فخرج وقد ازداد تهيبه لذلك السفر ، وخاف أن يقتل أو لا يرجع الى حبيبته ولا يراهـا ، فرأى أن يغتنم تلك الفرصة لوداعهـا فسار مسرعا الى القرية ،

وكان قد ترك مارية رغما عنه ليلاقي بربارة ويشكرها على صنيعها ويسلم المركبة اليها ، وكانت مارية تنتظر عودته سريعا ، فلما أبطأ انشغل بالها عليه ، وقلق والدها لغيابه ، فلما جاء المساء انقبضت نفس الفتاة ، وجعلت تتردد الى باب الدار ، وتطل على الطريق تتفرس في المارة لعلها تراه قادما ، وكلما رأت شبحا ظنته هو ، وبينما هي كذلك رأت رجلا مسرعا نحو الباب فعرفت من حركاته انه مرقس ، فدخلت وأخبرت والديها ففرحا كثيرا وخف الجميع لاستقباله ، ورحب به والداها وقبلاه . أما الفتاة فبقيت واقفة مطرقة وقلبها يختلج فرحا فحول وجهه نحوها وحياها فمدت يدها تسلم عليه فأحس بيدها باردة كالثلج ، فشعر كل منهما بقشعريرة الحب ، أما هو فتذكر ما جاء من أجله واضطراره الى الرجوع حالا فانقبضت نفسه ، ولكنه تجلد وأظهر الانبساط ، فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال وهم يرحبون بمرقس ويبالغون في مدحه والثناء على شهامته لما أتاه من الهمة في انقاذ مارية ، وهو لا يجيبهم خجلا . فلما أكثروا من المدح التفت اليهم قائلا : « يجب علينا جميعا أن نشكر الذي كان السبب الحقيقي في هذا الخير » .

فقالوا : « ومن هو حتى نذهب اليه ونشكره ونقدم أنفسنا عبيدا له ؟ » .

قال : « وماذا يستحق هذا الفاعل عندكم ؟ »

فأجابوا جميعا بصوت واحد : « يستحق كل خير وأمره علينا لا مرد له » .

قال : « ان السبب في ذلك الخير كله مولاتنا أرمانوسة ابنة مولانا المقوقس ، فما قولكم ؟ » .

فصاحوا بصوت واحد : « لتعش أرمانوسة ، ولكننا لا يمكننا مكافأتها لأنها لا تحتاج الينا في شيء ، وعندها من الخدم مئات مثلنا » .

فقال : « ولكن هبوا أنها احتاجت الى أحدنا في خدمة فهل نقضيها لهــا ؟ » .

قال الوالد : « نعم هذا فرض واجب حتى لو أدى الى الموت » .

فقال : « اذن لا تستعظموا الخبر ، فقد كلفتني قضاء حاجة بعيدة الشقة وأنا على يقين أن كثيرين غيري يودون أن تكلفهم أية خدمة يؤدونها ابتغاء مرضاتها لأنها ابنة الوالي الأكبر وزمام والدها بين يديها ، واقتراحها عنده لا يرد فاذا قضيت لهــا هذه الخدمة فانها تسعى عنده في ترقيتي ، وربما أنعمت علي انعاما يريحني من شقاء الخدمة العسكرية » .

وقد أراد بذلك أن يهون عليهم أمر ذهــابه ويرغبهم فيه ، ولكنهم بهتوا ، وامتقع لون مارية خوفا على حبيبها من طول الغياب ، بعــد أن كانت ترجو بقاءه عندهم هذه المرة أياما بل أن تبقى دائما ، فأرادت منعه عن السفر ولكنها رأت في ذلك جرأة غير محمودة فضلا عما عاينته مــن استحسان والديهــا للقيــام بخدمة أرمانوسة فصمتت .

أما الوالد فقال : « وما هي هذه المهمة ؟ » . قال : « الى مكان بعيد لا أقدر أن أذكره لكم ، لأني عاهدت أرمانوسة الا أبوح به الى أحد . ولكنكم ستعرفونه بعد عودتي ان شاء الله تعالى ، فأطلب اليكم أن تصلوا وتسألوا الله أن يأخذ بيدي » .

فجعل كل منهم ينذر نذرا لدير من الاديار دون أن يعرف أحدهم ما نذره الآخر .. وبقي مرقس برهة هناك وقد نسي ما جــاء من أجله ، ثم هب بغتة وودعهم جميعا وبخاصة مارية ، فانه شد على يدها عند الوداع كثيرا ، فتناثرت الدموع من عينيها . وأما هو فتجلد وقبل أيدي والديها وخرج وعيونهم تتبعه ، ولكن الظلام حال بينهم وبينه . فسار تــوا الى مكــان يعرفه ، فابتاع قطعة من القباطي وقصد بلبيس ماشيا ، وكــانت بربارة قد استبطأته وشغل بالها عليه ، فخافت أن يذهب قبل الاستعداد .

ولكن بينما هي جالسة الى سيدتها وقد مضى هزيع من الليل اذ جاءها بعض خدم القصر ينبئونها بقدومه ، فنزلت واستطلعته الخبر ، فأراد التظاهر بحيلة ، ثم حدثته نفسه ألا يلوث ضميره بالكذب وهو سائر الى غربة وخطر ، فأخبرها بجلية الخبر فعذرته ، ولكنها قالت له : « اعلم أن نيل خطيبتك معقود بتنفيذ هذه المهمة » . وأخذت الثوب منه فقصت منه قطعة جعلتها مثل العمامة ، وقطعت القطعة الاخرى على مثال الشملة ، وألبسته اياها وقالت : « فلتكن هذه الثياب معك مطوية حتى تدرك مكان العرب ، فتخلع لباسك هذا وتلبسها ، أما اذا لبستها منذ الآن فستكون في خطر من جندنا ، وربما انكشف أمرك » .

قال : « ولكن ربما سئلت في الطريق عن سبب سفري وعلي لباس الجند ، فبماذا أجيب ؟ » . قالت : « قل انك ذاهب بأمر من السيدة أرمانوسة الى حاكم الفرما في حدود مصر شرقا ، فاذا تجاوزت الفرما قليلا دخلت حدود الشام ، فاذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل . أما خبر قسطنطين فأنفذه الينا حالا » .

* * *

بات مرقس تلك الليلة في مكان بالقرب من بلبيس استعدادا للسفر باكرا . فلما طلع الفجر نهض وسار حاملا ثياب البدو وبعض الزاد ليتغذى به اذا جاع ، وفيه تمر جاف وبعض الخبز . فقضى سحابة ذلك النهار وبعض ليله سائرا ، وبات في احدى القرى ، وبكر في الغداة ، وما زال حتى أمسى عليه المساء وقد علم أنه على مقربة من الفرما ، فتردد بين أن يبيت تلك الليلة حيث هو ثم يصابح البلدة ، أو أن يواصل السير حتى يصل اليها ليلا ، فجلس في ظل نخلة يتناول بعض التمر من جرابه ، فلاحت

منه التفاتة في عرض تلك الصحراء ، فاذا بنار تضيء ، فجعل يفكر في أمرها فخيل له أنها نيران بعض أهل هذه الناحية ، فقال لعلي اذا ذهبت اليهم اسمع منهم خبرا أو أبيت عندهم الليلة ، فنهض ، وسار طويلا قاصدا النار وهو يحسبها قريبة ، وقد خيم الليل وهدأ الجو واستولى السكون على تلك الانحاء ، فخاف أن يعترضه حيوان مفترس في ذلــك الخلاء ، ولكنه تشجع وواصل السير حتى سمع صوتا استغربه ، فأصاخ بسمعه فاذا هو صوت حيوان لم يذكر أنه سمعه من قبل ، فخاف أن يكون وحشا ضاريا ، فوقف صامتا ، والتجأ الى شجرة من السنط فاذا بالصوت قد انقطع ، ثم عاد فسمعه ، فأخــذ يتفرس في الافق من جهة الصوت لعلــه يعرف نوع الحيوان فلم يفلح ، وفيما هو ينظر في عرض الصحراء لاح له شبح هائل عن بعد ، فدنا مرقس من الشجرة واستلقى على الرمــال ، وجعل يحدق بعينيه في الافق ، فرأى فارسا راكبا حيوانا غير الجواد طويل العنق لا يسمع لوقع أقدامه صوت ، فكان أول وهلة يظنه زرافة لأنه رآها في حديقــة المقوقس في منف ، ولكنه لا يعهدها تصلح للركوب ، فتربص برهة واذا بالفارس يقترب من تلك الناحية وظهر له من جهة قدومه أنه آت من مكان النار وكــان سيره حثيثا ، فما عتم أن وصل الى الشجرة ، ومرقس لا يزال منبطحــا على الرمال ، ولم يكن يريد النهوض ظنا منه أن الفــارس يمر ولا يراه ، فاذا به قد ناداه عن بعد بلسان الروم قــائلا : « من الرجل ؟ » •

فلم ير مرقس بدا من الاجابة ، وبخاصة لمــا سمعه يخاطبه باللغة اليونانية ، وكــان مرقس يعرفها جيدا ، فنهض وقال : « جندي • ومــن أنت ؟ » • قال : « وأنا كذلك » • ثم سمعه ينيخ مركبه بصوت كالشخير ، واذا بالحيوان قد توسد الارض جثوا وأخذ بالجعير ، فتأمله فاذا هــو الهجين ، ولم يكن رآه ، لأن الهجن والجمال لم يكن يعرفهــا المصريون ولا رأوها الا مع العرب اذا جاءوا مصر في قوافلهم • وكــان قدوم القوافل

الى منف نادرا ، ولكن مرقس شاهد الهجين مرة ، وقد جاء عليه رسول بكتاب من بلاد العرب الى المقوقس . فلمـا رأى ذلك الرجل قادما على الهجين علم أنه آت من معسكر العرب . ولكنه عجب لتكلمـه اللغـة الرومية ، فأوجس خيفة وأعد خنجره للدفاع اذا اقتضت الحـال . ثم رأى الرجل قد شد حبلا عند ثني ركبة الهجين ومشى نحوه . فناداه : « قف عندك وقل من أنت قبل أن تقرب » . فقال : « اذا كنت من جند الـروم بمصر فلا تخف فاني من جندهم في بلاد الشام » . وأقسم له بالمسيـح والقديسين أنه لا يؤذيه ، فدنا منـه مرقس وهو لا يزال يحـاذر ، فاذا الغريب بلباس الجند الرومـاني ، ولكنه مـا برح مرتابا في أمره لركوبه الهجين ، فقال له : « كيف تقول أنك روماني وأراك راكبا هجينا ؟ » . قال : « سأقص عليك خبري متى جلسنا » . فدنـا منه ، ولم يستطع تمييزه جيدا لشدة الظلام ، ولكنه تحقق من ملامحه أنه روماني ، وبخاصة لما رأى لباسه وسمع كلامه .

فلما اقتربا سلما فسأله مرقس : « ما اسمك وما خبرك ؟ اني لا أزال مستغربا ركوبك الهجين وهو خاص بالعرب ، ولم يدخل الى بلادنـا الا قليلا ، وأنت من جند الروم ولسانك يشهد عليك » .

فأمسكه بيده وجلسا على حجر وقال له : « أما اسمي فهو بروفس ، وأنا جندي من جنود البطريق يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء ، وأما ركوبي الجمال فله أسباب سأقصها عليك متى أخبرتني من أنت » .

قال : « اني رسول من مولاي المقوقس ، ذاهب الى الفرمـا بمهمة خـاصة » .

قال : لعلك جاسوس ؟ » .

قال : « لا . ولكنني رسول كما أخبرتك » .

قال : « لا فرق عندي مهما تكن مهمتك ويكفيني أنك من جـد

الروم ، وأشكر الله لأني التقيت بك هنا فاستفيد منك أمورا ربما كفتني مؤونة المسير الى بلبيس » .

قال : « لعلك كنت ذاهبا اليها ؟ » .

قال : « نعم كنت ذاهبا اليها برسالة الى أرمانوسة بنت المقوقس » .

فلما سمع اسم أرمانوسة استأنس بالرجل واستبشر خيرا فقال : « ومن أرسلك بهذه الرسالة ؟ فانك قد وقعت على خبير ، لأن أرمانوسة سيدتي ، وقد كنت عندها أول البارحة ، فما غرضك منها ؟ » .

قال : « أما مرسلي فالبطريق يوقنا صاحب حلب ، وهو الآن في هذا المعسكر عند هذه النار ، وأما رسالتي فهي لا علاقة لها بالحرب » .

قال : « وما الذي جاء بكم الى هنا وأنتم من حامية حلب ؟ » .

قال : « لما استولى العرب على حلب أخرجونا منها ، فالتقى سيدي بقسطنطين ابن الامبراطور وهو في قيسارية ، فبعث به مع جماعة من جنده ليحمل اليه خطيبته أرمانوسة » .

فقال : « وأين قسطنطين الآن ؟ » . قال : « هو قادم في بحر الروم بمراكبه التي سترسو عند دمياط ، حيث يكون في انتظارنا ليحمل خطيبته الى القسطنطينية » .

فاتضح الامر لمرقس وعلم أنه أصاب ضالته عفوا فقال : « اذا كانت الحال كما ذكرت فأخبرك بالحقيقة أني رسول مولاتي أرمانوسة لا مولاي المقوقس ، وكل ما نريد أن تعلمه عنها أطلعك عليه لأني عالم بكل شيء » .

قال : « هل هي في خير ، ومستعدة للمسير الى مولانا ؟ » .

قال : « نعم انها كذلك ، وقد جاءت بلبيس منذ أيام في انتظاره ، ولكنك لم تخبرني عن سبب ركوبك هذا الجمل وأنت روماني » .

قال : « أراك تدقق السؤال ، ولكنني قد استأنست بحديثك وتوسمت فيك الصدق ، فأخبرك أنه لما فتح العرب حلب أمسكوا مولاي يوقنا

وجماعة من رجاله ، وفي جملتهم أنا ، فبقينا نؤاكلهم ونشاربهم ونرافقهم في أسفارهم ، فتعودنا ركوب الجمال والهجن ، لأننا رأيناها أسرع عدو من الخيل ، فعولنا عليها في السفر السريع » .

فقال مرقس : « وهل في معسكركم هذا جند من العرب ؟ » . قال : « لا » .

فقال : « وهل علمتم شيئا عن عزمهم على غزو مصر ؟ » .

قال : « علمنا أنهم قادمون اليها بحملة ، ولعلهم الآن في العريش » .

فبهت مرقس وأخذ يتأمل ما سمعه من بروفس ، فلم يره منطقبا على احكام العقل ، ولم يفهم كيف أنهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركوب الجمال ، وكيف أنهم قادمون لحمل أرمانوسة الى قسطنطين . فقال له : « وهل اعتنق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب ؟ » .

فتوقف بروفس عن الجواب برهة ثم قال : « قد اتهمه بعضهم بذلك ، ولكنه بريء منه » .

فأدرك مرقس أن الحكاية ليست بالحال التي تصورها ، وأساء الظن فيما سمعه من الرجل ، ولكنه خاف اذا أظهر الارتياب أن يغدر به ، فتظاهر بتصديق كلامه ثم قال : « ولكننا سمعنا خبرا كدرنا كثيرا عن قسطنطين » . وأراد اتمام الكلام فابتدره بروفس قائلا : « أما اذا أردت ما أشاعه العرب عن قتله فهو عار عن الصحة ، لأن مولانا قسطنطين في خير وسلامة ينتظر وصول عروسه » .

فقال مرقس : « ألا تخافون أن يلقاكم العرب في عودتكم من بلبيس ، وأنتم تقولون انهم قادمون وقد وصلوا الى العريش فلا يلبثون أن يكونوا هناك قريبا ؟ » .

فقال بروفس وقد ارتبك في الجواب : « لا . لا أرى علينا بأسا ،

لأنهم يعتقدون فينا الاخلاص لهـم » •

فقال مرقس في نفسه : « قد تحققت بقاء قسطنطين حيا ، فهـل أرجع بالخبر أو أواصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم لعلي أعـود بشيء مفيد لسيدي المقوقس فأنال حظوة في عينيه ؟ » • فرأى أن يواصل السير في الحديث فقال لبروفس : « انك اذا قدمت الى سيدتي أرمـانوسة ، وأنبأتها ببقاء قسطنطين حيـا ، تسر بك كثيرا • فعجل بالمسير ، وأخبرها بأنني قـد علمت ذلك منك ؛ واني ذاهب لاتمام مهمتي في الفرما » • وقد أراد أن يتمم استقصاء أخبار العرب ، ولكنه رأى أن يغتنم تلك الفرصة لكي يدخـل الى معسكر يوقنا فيستفيد منهم شيئا يساعده على مرامه فقال لبروفس : « هل لك أن ترافقني الى مولاك يوقنا لعلـه يريـد أن يستخبرني ، أو يسألني شيئا ؟ » •

فقال : « لا أستطيع العودة معك ، ولكنني أعطيك شعـار الليل ، فاذا وصلت الى المعسكر وسألك أحد من أنت ؟ قل له : « السلام عليكم » وأفهمه نطق هذه اللفظة بالعربية ، وهو لا يفهم معناها ، فظنها اسما لرجل أو بـلد • ولو فهم معناها لأدرك أنها كلمة تدل على اسلام قائلهـا أو انتمائه للمسلمين ، فكررها مرارا على سمعه حتى حفظهـا • ثـم تأمل مرقس في ثياب بروفس فاذا هي تختلف عن ثيابه ، فخاف اذا دخل معسكر يوقنا بثيابـه أن ينكشف أمره ، فأراد أن يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال : « ألا تخاف يا أخي اذا مررت بثيابك هـذه أن يرتـاب فيـك المصريون ؟ » • قال له : « ولماذا ؟ » • قال : « انهم يرونك غريبا ، فربما أوقعوا بك شرا ، وبخاصة وأنت لابس هذا اللباس • وبما أنك سائـر الى سيدتي أرمانوسة أرى أن أخلع لك ثيابي هذه فتلبسهـا ، وهي لباس جند مصر ، فاذا مررت في البلاد لا يستغربك أحد » •

قال : « وأنت ماذا تلبس ؟ » • قال : « أعطني ثيابك فألبسها » •

فاستحسن بروفس الرأي ، وتبادلا الثياب ، وقد فرح مرقس فرحا لا مزيد عليه بنجاح حيلته . ثم نهض بروفس وركب هجينه وودع مرقس . وأخبره أن فسطاط يوقنا بالقرب من تلك النار ، وسار قاصدا بلبيس .

أما مرقس فظل ناظرا اليه حتى توارى عنه ، فجعل يفكر في حاله وما سمعه منه ويقيسه ويطبقه بعضه على بعض ، فأدرك أن في الأمر خداعا أو مكيدة ، فقال في نفسه : « فلأذهب الى معسكر يوقنا لعلي أعلم دخيلة الامـر » .

وسار قاصدا تلك النـار حتى كاد يقترب منهـا ، فسمع هديـر الجمال عن بعد فخيل له أنه ذاهب الى معسكر العرب لا معسكر الروم ، ولكنه توكل على الله ومشى ، واذا بفارس قد اعترضه قائلا : « من أنت ؟ » . فاجـابه مرقس : « السلام عليكم » . فأخلي سبيله ، وقال له : « أين كنت ؟ » . قال : « خرجت من المعسكر لأمر وعدت » .

قال : « أدخل » . وقد ظنه من معسكرهم وبخاصة ان لبـاسه كلبـاسهم فمشى مرقس وهو يتأمل المعسكر ، فاذا هو مؤلف من عشرات من الخيـام بعضها بدوي وبعضها روماني ، فجعل يخطر بينهـا ينظر في حال الجند ، فاذا هم من الروم وفيهم بعض البدو ، فاستغرب ذلك واختلط بهم وتظـاهر أنه واحد منهم كـان قد تخلف في الطريق ثم لحق بهم . ومـا زال سائرا حتى أتى خيمة البطريق ، فرأى الحراس محيطين بها بسلاحهم ، وكـانت فسطاط كبيرا يتسع لجماعة . فقال : « لأنتظرن الى الغد لأرى ماذا عسى أن يكون » .

ثم عرج الى خيمة فيها جمع كبير ، فدخل بينهم وتناول الطعـام معهم . فظنوه من جندهم ولا عبرة بلونه وملامحه المصرية ، فقد كـان ذلك الجند خليطا من الروم وأهل حلب وما جاورها ، وربما كـان فيـه بعض المصريين ، لأن هرقل استنجد المقوقس في أثناء حروبه مع العرب في

الشام . فأرسل المقوقس اليه مددا وفيهم بعض القبط .

فبات تلك الليلة وهو يسمع الاحاديث ويحفظها ، فاستنتج منهم أن يوقنا في حلف مع العرب ، وأن العرب قد أصبحوا على مقربة من هناك .

ولما أقبل الصباح بكر مرقس الى فسطاط يوقنا ، فاذا بالحراس وقوف عند بابه ويوقنا جالس في صدره وعليه رداء غير رداء الرومان ، فتأمل الرداء فاذا هو يقرب شكله من الملابس التي جلبها معه ، ولكنها أحسن حالا ؛ وفوق الرداء جبة ، وعلى رأسه عمامة ، وسمع الناس اذا ذكروه سمّوه باسم غير اسمه الاصلي ، فرجح لديه أن الرجل قد اعتنق الاسلام ؛ أو هو في خدمة المسلمين ، وأيد ظنه هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية ، وأهمها الصلبان التي كان الروم يتخذونها شعارا لهم في الحروب ، فيحملونها مع الاعلام في مقدمة الجند ، فاذا عسكروا نصبوها بجانب الاعلام .

ثم تحول عن الخيمة وجعل يطوف المعسكر يتفقد حاله لعله يقف على شيء من أمر العرب ، فوصل الى أطراف الخيام فشاهد رجلا جالسا على ربوة بالقرب من المعسكر ينكت الارض بعصا بيده كأنه يفكر في أمر أقلقه ، وقد قبض في احدى يديه على شيء يشبه الرق ، فوقف مرقس عن بعد يتأمل في حركاته وسكناته ، فاذا بالرجل في لباس جند يوقنا ، ينكت الارض تارة وينظر الى ذلك الرق طورا ، وهو يحاذر أن يراه أحد ، ثم التفت الى جهة المعسكر فرأى مرقس فعجل باخفاء الرق وتظاهر بأمر يتشاغل به .

وأمعن مرقس النظر في وجهه فاذا ليس رومانيا ولا مصريا ، فعجب لأمره ، وأراد الدنو منه لعله يقف على خبر جديد فخاف أن تحول جرأته هذه بينه وبين ما يريد ، فتجاهل وتحول عن المكان ، ودخل المعسكر على أن يغتنم فرصة أخرى ليجتمع به ويستطلعه حاله ، وما برح

يراقبه حتى رجع الى المعسكر في المساء واختلط بالجند ؛ فلما أمسى المساء التقى به في بعض الخيام يتناول العشاء مع الجند ؛ فتأمل وجهه فتذكر أنه يعرفه . ولكنه لم يذكر أين شاهده ؛ ولا ما اسمه . فبقي صامتا ينظر اليه تارة ويتشاغل عنه تارة أخرى لئلا يلحظ منه ذلك • ثم رآه ينظر اليه كأنه يريد التعرف به . فتجاهل مرقس هذه النظرة خيفة انكشاف أمره ولكنه كان كثير التشوق الى معرفة حاله وما هو قادم من أجله . فلبث ريثما مضى وقت العشاء ؛ وأخذ الناس يتفرقون ، فاذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى الى خيمة من خيام العرب ودخلها وجلس الى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلسانهم ، فعجب مرقس لمعرفته اللغة العربية فضلا عن اليونانية . وازداد تشوقا لمعرفة حكايته ؛ ولم يعلم كيف يبادئه الكلام ؛ فصبر ينتظر الليل فقال في نفسه : « لننتظر الى صباح الغد » • ثم ذهب الى منامه •

- ٧ -

عمرو بن العاص

وكان اليوم التالي فاستيقظ مرقس على ضوضاء الجند ؛ ونهض مذعورا ، واذا به يراهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة الصحراء . ثم رأى غبارا يتصاعد والناس يتطاولون بأعناقهم ؛ وقد علا ضجيجهم ، وفي مقدمتهم « يوقنا » يجر حسامه ووراءه تيها ، وقد أحاطت به حاشيته ؛ وكلهم ينظر الى جهة الغبار • فسأل مرقس عن ذلك

فقيل لـه : « ان العرب قادمون » . فأظهر انه عالـم بقدومهم لئلا يسيئوا الظن بـه ، ثم علم ان القادمين هم جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر فلبث واقفا في جملة الواقفين ، وقد نسي رجل الامس ، على أنه حاول أن يراه فيمن حوله من الناس فلما لم يره ، عول على أن يستطلع مكانه بعـد ذلـك .

ونظر الى موكب البطريق يوقنا فاذا هـو مؤلف من حاشيته ، وكلهم في اللباس الروماني الا هـو ، فقد لبس العمامة وتقلد الحسام ، وسمع الناس ينادونه باسم عبد الله ، فتحقق لديـه اذ ذاك أنه اعتنق الاسلام لا محـالة ، وبخاصة لمـا رآه مستبشرا بقدوم جيش العرب .

ثم جيء الى يوقنا بجواد ركبه وركب معه بعض رجاله ، وخرجوا للقـاء العرب ، فلبث مرقس واقفا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبا ، وجند العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الريـاح ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملهـا القواد ، وفي المقدمة رجلان على هجينين فعلم أنهما الدليلان يقودان الجند ، ومن ورائهما الفرسان ، وفي مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن ، وعليه العدة والسلاح . وفي ركـاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل ، فلمـا التقى الفريقان ترجل يوقنا ، وترجل فرسان العرب ، وتقدم يوقنا الى كبيرهم وتصافحا وتعانقا ، ثم سلم على الآخرين وعاد معهم وقد أخذ كبيرهم بيده . فسأل مرقس عن اسمه فعلم أنه البطل الشهير عمرو بن العـاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه جيدا ، فاذا هو قصير القامة وافر الهامـة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بهـا الذهب يأتلق ، ومنها حلة وعمامة وجبة . وقد أحاط به وبيوقنا رجال من كبار العـرب يهللون ويكبرون ، فتنحى مرقس جانبا ليرى مقدار الجند ، فاذا هم يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجـانة والمشاة وحملة الاعلام ،

وقد لبس كبارهم العمائم الخضر ، وتقلدوا السيوف والخنـاجر • وأما المشاة ففيهم نقلة الرمـاح والنبال • ثم أخذوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ، ينصبون الخيام ويضربونها • وأول خيمة ضربت فسطاط الأمير ، وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوهـا على أعمدة من القصب الهندي ، وضربوا أطنابها وفرشوا أرضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الامـير • أما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة ، فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند ، وقد أراد أن يعرف مقدارهم فعلم أنهم يزيدون على أربعة آلاف ، وبعد أن تفـرق الجند فرقا ونصبوا الخيـام جماعات ، وصلت جمال الساقـة ومعهـم الهوادج والاحمال ، وفي الهوادج النساء والاولاد ، وهم يصيحون •

وتحول مرقس الى خيمة الامـير فرآهـا قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ، ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسيا ولا مقعدا كما كانت الحـال بخيـام الروم اذا نزلوا ، وشاهد أمام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربي لم يفهمها • أما جند الروم فكانوا يهللون ويرحبون بجند العرب كأنهم كانـوا على موعـد ، ففهم مـن ذلك أنهم كانـوا في انتظار وصـولهـم •

ثـم تحول نحو خيمة يوقنا فرأى عمـرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده ، فاقترب منها جهده فاذا بعمـرو قـد جلس في صدرها على وسادة من الحرير ، وقد وضع السيف علـى فخذه ، والى كل من جانبيه رجـال من العرب في مثل لباسه ، ويوقنـا بين يديه يرحب به ، وبينهما ترجمـان كان قد شاهده مع عمرو يحمـل العلم ، ثم علم أن اسمه « وردان » اذ سمع عمروا يدعوه بـه •

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وترتيلا ، فنظر فرأى رجلا عربيا جالسا في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهـر قلبه بنغم مطرب ،

والناس جلوس ووقـوف يصغون ويطربون لسماع ذلك النغـم ، ثـم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقفا الى جانبه ، فأراد أن يخاطبه فسأله عن اسم الرجـل الجالس في صـدر المكان فقال باليونانية : « هو الامـير عمرو بن العاص » • فأدرك مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومي ، فخاطبه بالقبطية وسألـه عـن ذلك الترتيل فقال : « انهم يرتلون كتابا عندهـم اسمه القرآن وهي عادة يتبركون بهـا » • فأدرك مرقس ان اللسان القبطي أيضا ليس لسانـه ، فرغب في الاستفهام عن حاله فقال لـه : « وبـأي لسان يقرأون ؟ » • قال : « باللسان العربي » فقال : « وهـل تفهم لسانهم ؟ » قال : « نعـم أفهمه جيدا وهو لساني ، وأنت ما لسانـك ؟ » • فقـال : « انـي مـن جنـد الروم » •

قال : « ولكنني أراك تتكلم القبطيـة ، وملامحك قبطية ، فهـل أنت من أهل مصر ؟ » • فاضطرب مرقس عند ذلك وخـاف أن ينكشف أمره فقال : « قلت لك اني من جند الروم وفيه من سائر الملل » •

فتبسم الرجـل وقال بالقبطية همسـا : « ولكن قل ولا تخـف الحقيقة ، اني لا أريد بك سوءا ، ولعلك صدقتني أن تنال خيرا » •

فتحير مرقس ولم يعلم بماذا يجيبه وسكت لا يتكلم •

فأدرك الرجل أنه يراوغـه ويريد اخفاء أمره ، فأعاد سؤاله قائلا : « قل ولا تخف ، فانني أعرفك ولو أخفيت حقيقة حالك ما خفيت علي » •

فقال مرقس : « وأظنني أعرفـك أيضا وكأنني رأيتك قبل هـذا اليوم في الاسكندريـة » •

فقال الرجل : « أنت اذن مرقس تابـع المقوقس » • فاختلج قلب مرقس في صدره وخاف عاقبة الامـر ، فقال له الرجل : « لا تخف اني لك نصير ، فهل عرفتك أم أنا مخطىء ؟ » •

قال : « أصدقك الخبر ، انني أنا مرقس ، ولكن أين رأيتني ؟ » .

قال : « رأيتك وقد جئت بيت يحيي النحوي الاسكندري بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس ، ألا تذكر ذلك ؟ » .

قال : « نعم أذكر ذلك جيدا ، فأنت اذن زياد العربي » .

قال : « نعم أنا هو زياد فلا تخف ، هل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب ؟ » .

قال : « لا والله وانما ساقتني اليه الاقدار عن غير قصد منيْ ، وأنت ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ هل تأذن لي بالسؤال عن ذلك » .

قال : « أما مجيئي الى هذا المكان فقد كان لمهمة لا أخفيها عليك ، فاني لا أخافك فقد آنست فيك اخلاصا » .

قال : « لقد أصبت ، واني أعد نفسي سعيدا لاجتماعي بك ، وقد رأيتك بالامس وآنست فيك خيرا ، وكنت مهتما باستطلاع حالك منذ كنت جالسا على الأكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك الرق ، فأفصح ولا تخف » .

قال زياد : « ليس يخفى عليك أن وجودي في الاسكندرية كان محض اتفاق اذ يندر أن ترى عربيا في بلادكم ، وأما قصتي فسأقصها عليك على انفراد لئلا يسمعنا جند الروم تتكلم بالقبطية فيشوا بنا ، والافضل تأجيل حكايتي الى المساء » .

قال : « حسنا فلنتكلم الان بالرومية ، فاني أريد الاستفهام عن بعض ما أشاهده في هذا الجيش ، وقد عجبت لحال هذا الامير وسرني ما أرى في وجهه من الصباحة وما يتجلى في محياه من الشجاعة والشهامة ، ـلا عجب اذا ساد العرب الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم . وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا فاني أراه روميا ولكنه يلبس العمامة ويتزيى بزي العرب ، وهذا جنده في لباس الروم » .

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : « ان العرب أهل شهامة واقدام وشجاعة ، ولا غرو اذا فتحوا الامصار وأخضعوا الملوك . أنظر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم ، وأنا أعرفه منذ كان جاهليا ، وهو يعرفني جيدا ، ولعله اذا رآني الآن يناديني باسمي ويرحب بي ويجلسني الى جانبه ، ولكني لا أريد أن يكون ذلك بمشهد من الناس اكراما لمن أرسلني ، لأنه يود أن تكون رسالته سرية » .

فقال : « ومن هو هذا الترجمان الذي ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو ؟ » .

قال : « هو وردان مولى عمرو ، ويعرف اليونانية جيدا ، ويعرف القبطية أيضا ، وأنا لا أعرفه من قبل ، ولكنني فهمت ذلك من كلامه ، وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند وأطلعك عليها » .

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن أعرف حقيقة حالك وما جئت من أجله لكي يكون كلامنا أكثر ايضاحا » .

قال : « تعال تنفرد جانبا » . وأخذ بيده وخرجا من المعسكر والجند مشغول بشؤونه ، ولم يلتفت اليهما أحد حتى وصلا الى مأمن فجلسا .

فقال زياد : « اسمع يا مرقس أقص عليك خبري ، على شرط أن تحكي لي حكايتك وما جئت لأجله » . قال : « أقسم برأس سيدي المقوقس وحرمة الصليب اني أصدقك القول » . ومضى زياد يروي حكايته كما يلي :

كان سبب دخولي الى الاسكندرية وتمصري واعتناقي النصرانية اني كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان في الجاهلية ، أعني قبل أن يظهر الاسلام وينتشر ، وكانت دياناتنا الوثنية مثل أكثر عرب الجاهلية ، وكنت أصحب عمروا حيثما توجه ، وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس في جماعة من قريش ، فمررنا يوما بضواحي تلك المدينة فاذا

بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ، فخرج الى بعض جبالها يسيح ، وكنا وعمرو نرعى أبلنا ، تناوبا بيننا ، فبينما عمرو يرعى أبله اذ مر به الشماس وقد أصابه عطش في يوم شديد الحر ، فوقف واستسقاه ، فسقاه من قربة له فشرب حتى روى ، ونام حيث هو . وكانت الى جنبه حفرة خرجت منها أفعى كبيرة فبصر بها عمرو فرماها بسهم فقتلها ، فلما استيقظ الشماس نظر الى الحية التي أنجاه الله منها وقال لعمرو : « ما هذه ؟ » . فأخبره خبرها ، فأقبل على عمرو يقبل رأسه ويقول : « قد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك هذه البلاد ؟ » . قال : « قدمت مع صحبي نطلب الربح في تجارتنا » . فقال له الشماس : « وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك ؟ » . قال : « أرجو أن أصيب ما أشتري به بعيرا ، فاني لا أملك الا بعيرين ، فلعلي أصيب بعيرا ثالثا » .

فقال له الشماس : « أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ » . قال : « مائة من الابل » . فقال له الشماس : « لسنا أصحاب ابل انما نحن أصحاب دنانير » . قال : « تكون ألف دينار » . فقال له الشماس : « اني رجل غريب في هذه البلاد ، وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرا ، وكنت قد جعلت ذلك نذرا على نفسي ، وقد قضيته ، وأنا أريد الرجوع الى بلادي ، فهل لك أن تتبعني اليها ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحياني بك مرتين » . فقال له عمرو : « أين بلادك ؟ » . قال : « مصر — في مدينة يقال لها الاسكندرية » . فقال له عمرو : « لا أعرفها ولم أدخلها قط » . فقال الشماس : « لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل مثلها » . فقال له عمرو : « وتفي لي بما تقول ، ولي عليك العهد والميثاق ؟ » . فقال له الشماس :

« نعم لك علي العهد والميثاق ان أفي لك وأن أردك الى أصحابك » . فقال له عمرو : « وكم يكون مكثي في ذلـك ؟ » قال : « شهرا ، تنطلق معي ذاهبـا عشرا ، وتقيم عندنا عشرا ، وترجع في عشر ، ولـك علي أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعـا » . فقال لـه عمرو : « أمهلني حتى أشاور أصحابي في هذا » . وجاء فشاورنا فيمـا عاهده عليه الشماس ، وقال لنا : « تقيمون هنا حتى أرجع اليكم ، ولكم علي العهد أن أعطيكم شطر ذلـك على أن يصحبني رجل منكـم آنس به » فقلنا : « نعم » . وبعثوني معه . فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينـا الى مصر فرأينا عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ، فقـال عمرو للشماس : « ما رأيت مثل ذلك » . ومضينا الى الاسكندرية فنظرنا الى كثرة ما فيهـا من الاموال والعمارة وزخرف بنائها وكثرة أهلهـا فازددنا عجبا ، ووافق دخولنا الاسكندرية عيدا عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم كرة من ذهب يترامى بهـا ملوكهم ، وهم يتلقونها بأكمامهم . وفيما أخبروا عن تلك الكرة ، وفيما وصفها من مضى منهم ، انها اذا وقعت في كم رجل واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . وأكرمنا الشماس الاكرام كله ، وكسا عمروا ثوب ديباج ألبسه اياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة ، وهم يتلقونها بأكمامهم ، وأنا جالس على حدة ، فرمى بها رجل فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ! أترى هذا الاعرابي يملكنا ، هذا ما لا يكون أبدا » . ثم مشى الشماس في أهل الاسكندرية ، وأعلمهم أن عمروا أحياه مرتين ، وأنه قد ضمن له ألفي دينـار ، وسألهم أن يجمعوا ذلـك له فيما بينهم ، ففعلوا ودفعها الى عمرو فانطلق ومعه دليل يريه الطريق . أما أنا فلمـا رأيت الاسكندرية وما هي عليه من العظمة وأسباب الرفاه آثرت البقاء فيها ، فاستأذنت عمروا

في ذلــك فأنكر علي الامر فقلت : « أبقى فان لم أر خيرا عدت اليك » ، فتركني ومضى وبقيت أنــا • وكان في جملة من لقينا من رجال الاسكندرية عالم كبير هو يحيي النحوي ، وكــان يعرف شيئا يسيرا من اللسان العربي ، فأمسكني عنده لأعلمه لساننا هذا ، أو لعل له غرضا آخر لم أعلمه ، فسررت ببقائي عنده ، وأعجبت بزينــة الاسكندرية وبذخهــا وعمارتها ، ولم يمض علي زمن طويل في بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي وأحببت ديانة النصارى ، وفضلتها عــلى ما كنت فيه من وثنية الجاهلية ، فعمدت وصرت نصرانيا ، وبقيت في بيت يحيي هــذا ، لأني علقت بــه لعظم ما لقيته من حسن سريرته وتقواه وعلمــه ، ثم حدث ما حدث بينه وبين جماعة الروم من الاختلاف المذهبي ، وانحــاز الى حزب الاقبــاط اليعاقبــة ، فاضطهده الروم اضطهــادا شديدا وجردوه من رتبه وأملاكه ، فانزوى بنفسه كما تعلم ، وقــال لي : « اسمع يا زياد ، هــا أنذا قــد أصبحت مضطهدا ، وربما لا أستطيع القيــام بما فيه راحتك أو لعل في وجودك عندي ضررا عليك من جماعــة الروم ، فاذا رأيت أن تذهب اليهم فافعل » • فثارت في نفسي الحمية العربية وقلت : « والله لابقين عــلى ولائــك ، فانا نحن العرب اذا آكلنا انسانا أو آخيناه كــان لنا ما لــه وعلينا ما عليه ، فأنــا باق على ولائك أقوم بخدمتك مــا استطعت الى أن يقضي الله ما يشاء » • فبقيت عنده أقوم بخدمته الى أن سمعنا بظهور الاسلام وانتشاره ونهوض رجاله للفتح ، ومــا فتح الله على أيديهم من الأمصار كــالشام وغيرها ، وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ، ونحن في الاسكندرية نقاسي العذاب ألوانــا من جراء الاضطهاد الذي يسومنا اياه الروم ، لأننا على غير مذهبهم كما تعلم ، وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق بي ، وصار يأتمنني على أسراره ويركن الي في كــل شؤونه ، فبعث الي ذات يوم فجئته فقال لي : « مــا رأيك يا زياد ؟ » • قلت : « فيــم يــا

سيدي ؟ » . قال : « اني أرى من ظلم هؤلاء الروم وعسفهم ما تكاد تزهق له روحي ، وقد سمعت بما قام به عرب الحجاز هذه الأيام وما فتحوه من الأمصار حتى أخرجوا الروم من الشام والعراق وغيرهما ، وقد علمت أنهم قادمون الى مصر وأميرهم صاحبك عمرو ، ويلوح لي أنهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الأمصار ، وقد أخبرني بعض الرهبان الذين فروا من وجوههم من دمشق وغيرها أنهم أقوام أشداء يصبرون على الحرب صبر الأسود ، لا يهابون الموت ولا يخافون السيوف ، وأنهم مع ذلك أهل مروءة وذمام ، فاذا جاءوا مصر فلا شك أنهم يفتحونها ، ولا يخفى عليك أن جماعة القبط يكرهون الروم لما بينهما من الاتلاف المذهبي المشهور ، والمقوقس رئيس القبط ، وهو حاكم البلاد ، وقد أسر الي أنه يفضل العرب على الروم اذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط ، ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برأيه هذا ، ولا يرى وسيلة لابلاغه العرب ، وقد وكل الي أن أفعل ذلك ، ولا أرى رجلا أثق به وأركن اليه غيرك ، ولا سيما أنك تفهم لسانهم وتعرف قائد حملتهم نفسه ، فأنت أفضل من تنتدبه لهذه المهمة ، فهل لك أن تقوم بها ؟ وهل تظن العرب اذا عاهدوا على أمر قاموا بعهدهم ؟ » . قلت : « نعم يا سيدي ، ان العرب أكرم الناس أخلاقا وأوفاهم عهودا ، ولك في خادمك هذا دليل واضح ، وأنا واثق أن العرب اذا عاهدوكم على أمر قاموا بعهدهم » . فدفع الي كتابا مكتوبا على ورق البردى باللسان القبطي ، وهو الذي رأيته بيدي أمس ، وقال لي : « خذ هذا الكتاب ، واذهب به الى معسكر العرب حتى تلتقي بهم فادفعه الى عمرو بن العاص بعد أن تشرح له الحالة شفاها » . فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية أبحث عن العرب ومقامهم حتى علمت أنهم قادمون الينا وسينزلون هذا المكان ، فوصلت صباح أمس

الى هذا المعسكر فرأيته للروم ، وفيه بعض العرب ، فاختلطت بهم ، وتظاهرت بأني من عرب غزة ، واني رافقتهم ، وان ثيابي هذه سلبتها من عساكر الروم هناك ولبستها ، فعلمت منهم أن عمروا سيصل قريبا انى هذا المكان ، فقلت : « لأصبرن حتى يجيء وأقضي مهمتي » .

* * *

فلما سمع مرقس قصة زياد وثق به وركن اليه ، وعلم أنه على دعوته ، وأنهما شريكان في الامر ، ولكنه استغرب حكاية عمرو ، واستبشر بوقوع الكرة في كمه وقال : « يلوح لي يا زياد أن الكرة لم تخطيء موضعها » . ثم عاد الى ما شغل باله من أمر يوقنا فقال : « وهل علمت أمر البطريق يوقنا وسبب اسلامه ؟ » .

قال : « علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكما على مدينة حلب من بلاد الشام ، وأنه لما رأى فوز العرب وشدة بطشهم وأنهم فتحوا مدينته انحاز اليهم واعتنق ديانتهم . وأما رجاله فهم مطيعون له في حربه ، ولكنهم في الغالب باقون على ديانتهم » .

فتذكر مرقس حينئذ ما قاله رسول يوقنا الذاهب الى أرمانوسة ، فقال في نفسه : « ان الرجل مخادع مارق ، وأظنه يريد بسيدتي أرمانوسة سوءا ، فهو يتظاهر بأنه قادم بأمر قسطنطين بن هرقل ، بينما يريد حملها لنفسه . والله لأكيدن له كيدا ! » .

ثم قال زياد : « ها أنذا قد أطلعتك على حقيقة أمري ، فما هي حقيقة أمرك ؟ » .

قال مرقس : « أرى يا أخي أن بين حكايتي وحكايتك مشابهة ، وما يهم أحدنا يهم الآخر » . وحكى له ما جاء من أجله ، ثم قال : « ولكنني في شغل شاغل الآن بسيدتي أرمانوسة ، ولا أدري كيف أنقذها ، فقد

علمنا الآن أنه انمـا جاء نصيرا للعرب على فتح مصر ، فما العلاقة بـين الامرين ؟ اني لأراه يريد شرا بسيدتي ، وقد أصبحت في قلق عليها ، فمـا رأيـك ؟ » •

ففكر زيـاد قليلا ثم قال : « لا تبال بهذا الخـائن ، فاني على يقين من حسن ذمام العرب ، واذا أخبرنا عمروا بحقيقة الامر وعاهدناه علـى صيانتها وحفظها فانه يقوم بعهده ، وغدا ان شاء الله أدخل عليه وأطلعه على جليـة الخبر ؛ واذا شئت أن تكون معي فانك ترى بعينك وتسمع بأذنيك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم أخلاقهم ، ولكنني أود أن أدخـل عليه بلباس البدو لكي يعرفني حالما يراني » •

فتذكر مرقس ثياب البدو التي حملهـا من بلبيس فقال : « ان عندي ثـوبا بدويا حملته من بلبيس ، فهل تريد أن تلبسه ؟ » • ففرح زياد به وقال : « أود كثيرا أن أدخل عليه به ؛ فأين هو ؟ » •• قال : « قد خبأته في مكان ما ؛ وسأعطيكه الليلة » •

ثم رجـع الاثنان وقـد سر كل منهما بالآخر ، وقضيا بقية ذلـك اليوم في المعسكر يتفرجـان • ثم غادراه فرأيا عبيد العرب قد خرجـوا يجمعون الحطب ولما أمسى المساء ظهرت النيران ، فرأيـا الاسطة أمام خيمة كل أمـير والذبائح قد ذبحت وجلس الناس الطعام •

ولما غابت الشمس سمعا المؤذن يؤذن ، وقـد قام المسلمون للوضوء والصلاة ، وبعد تناول الطعام اجتمع الامراء الى خيمة عمرو ، وبين أيديهم قراء القرآن يتلون الآيـات ، والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله على ما آتاهم من النعم ويسألونه النصر على الاعداء • فقضيا تلك الليلة في عسكر يوقنا ، لأنهمـا كانا في لباس الروم مثل عسكره ، وفي الغداة لبس زياد لباس البدو ؛ فالتحف الشملة وتعمم بالعمامـة ، وسار هـو ومرقس من معسكر يوقنا حتى وصلا الى معسكر عمرو ، فدخلا بـين

الخيام فاذا بالعرب قـد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون ، وشاهدوا على كثير منهم ثيابـا رومانية ودروعا وأسلحة وأدوات يستعملها الروم في قضاء حوائجهـم ، فقال زياد : « أنظر يـا مرقس الـى آثـار النصر وبقايا الفتح ، ان هؤلاء العرب لـم يرتدوا في حياتهم مثل هذه الالبسة ، ولا رأوا مثل هذه الادوات التي غنموهـا من الروم في حروبهم بالشام » .

وكانـا قد شاهدا بين أيدي هؤلاء البدو كثيرا من الأثاث الروماني كالابسطة والطنافس وعليها رسوم رومانية ، وفيها صور بعض القديسين والأبطـال ، قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها أو يلتحفونها ، وبين أيديهم طسوت من الفضة ، وصحف من أبدع الصنائع ، وكلهـا أسلاب من مدن الشام .

* * *

سار مرقس وزياد حتى وصلا الى فسطاط الأمير فاذا هو قـائم على عمد متشامخة ، والفسطاط أبيض من الخـارج ، وداخله مبطن بالحرير المزركش ، وفي أرضه البسط والطنافس . وعرفا خيمة عمرو من العلـم الأسود والكتابة التي عليه ، وكـانا قد شاهداه بيد وردان ساعة وصول الجند ، فلمـا اقتربـا من الفسطاط استقبلهما وردان عند البـاب ، وقد عجب لاجتماع هذين الرجلين على تناقض لباسهما ، فسألهما عن غرضهما فقال زياد بلسان عربي فصيح : « نريد مقابلة الأمير ؟ » . فقال وردان : « ومن الرجلان ؟ » . قال زياد : « رسولان يريـدان الدخول عـلى الأمـير » .

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب ، فدخل زياد بعد أن خلـع نعليه كعادة العرب ، وعمرو جالس في صدر الخيمة جلـوس العرب في خيامهم ، لأنهـا لخلوها من الجدران الصلبة لا يستطـاع الاستـناد

اليهـا ، فكـانوا يجلسون الاربعـاء ، أو يجثون قعودا ويلقون أيديهم على الركبتين أو يعقدونها عليهـا فيستريحون ، ويقوم ذلك عندهـم مقـام الاستناد • أمـا عمرو فكـان على ركبتيه سيف طويل صنـع اليمن ، وأسراؤه بين يديه وفي مثل جلوسه ، وفي بعض جوانب الفسطاط رجل جالس الأربعـاء يتلو القرآن والكل يصغون اليه يرددون ما يقوله بين شفاههم • فلمـا دخل زياد أراد أن يبغت عمروا بتحية الجـاهلية لينبهه الى حاله فقال : « أبيت اللعن أيها الأمـير ! » •

فبغت عمرو ومن في مجلسه من هذه التحيـة ؛ وقد كـادوا ينسونها لاستبدالهم بها بعد الاسلام تحيته : « السلام عليكم » ؛ فأجابه عمرو على الفور : « أعوذ بالله من كفر الجاهلية ، ما بالـك تحيينا بتحية الجاهلية يا أخـا العرب ؟ » • قال ذلك ونظر الى الرجل ؛ فتذكر أنه يعرفه ؛ ولكنه نسي اسمه لأنه يعرفه ؛ ولكنه نسي اسمه لأنه قد فارقه منذ عشرين سنة أو تزيد ، وقد كـان شابا فأصبح كهلا ، فأمعن النظر فيه وزياد لا يزال واقفا ينتظر الأمر بالجلوس ، وكـان القادم على الامير عندهم لا يجلس الا بعد أن يدعوه الامير الى ذلـك ثلاث مرات • فقال عمرو : « من الرجل ؟ » •

فأجاب زياد : « ان الرجل أخوك في الجـاهلية ، ورفيقـك الى الاسكندريـة » •

فتذكره عمرو ؛ فنهض له قائلا : « أهلا بزياد » وعانقه ، وبعد أن تصافحا أمسكه بيده وأجلسه الى جانبـه وهو يقول : « مرحبـا برفيق الصبـا ! أهلا بالقادم ! أين كنت ؟ ومـا طلبتك ؟ وما الذي جئت به ؟ » •

قال : « هل يأذن لي الامير بخلوة ؟ » •

قال : « أجل » • ثم أشار الى أهل مجلسه فخرجوا وبقيا وحدهما •

فقال زياد : « لي رفيق لا يزال بالباب ، فهل يأمر الامير بادخاله ؟ » •

فأمر عمرو وردان فجـاء بمرقس ، وفعل مرقس مثل ما فعل زيـاد ،

فخلع نعليه وقبل يد الامير . فأذن له بالجلوس فجلس وقد هاله الموقف .

فقال عمرو : « ومن الرفيق ؟ » . قال زياد : « رسول من رسل القبط ، وسأشرح لك حاله يا مولاي » .

قال : « قل يا زياد اني والله قد أنست بلقائك بعد طول الفراق ، ولكنني آسف لبقائك على جاهليتك ؛ وقد منّ الله على خلقه بالاسلام ، وهو الدين الحق الذي سيظهر على الدين كله » .

قال زياد : « لست جاهليا . ولكني من أهل الكتاب » .

قال : « وأي كتاب ؟ » . قال : « النصرانية » .

قال : « ان النصارى أهل كتاب حقا : وقد أوصانا بهم النبي (صلعم) خيرا . قص علينا خبرك يا زيـاد . اني والله في لهفة لمعرفة حالك وما كان من أمرك بعد أن فارقناك بالاسكندرية . ألا يزال ذلك القسيس حيا ؟ » .

فقال : « لا يا سيدي انه مـات ، وطالمـا أثنى على شهامتك وذكرك بالخـير » .

فقال : « وكيف قضيت هذه السنين بالاسكندرية ؟ » .

فقص عليه حكـايته من أولهـا الى آخرها حتى وصل الى الكتاب الذي يحمله فأخرجه من جيبه ودفعه اليه فـاذا هو مكتوب بالقبطية ؛ فقال عمرو : « هل أدعو المترجم ليقرأه لنـا ؟ » .

قال : « لا . بل أنا أترجمه » .

قال : « وهل تعلمت لسانهم وحفظت لهجتهم ؟ » . قـال : « نعم يـا مولاي » .

قال : « اقرأه » . فترجم الكتاب واذا فيه :

« من المقوقس حاكم مصر الى الأمير عمرو بن العاص قـائد جند العرب . سلام .

« أما بعد فانا معشر الأقباط قد علمنا مجيئكم الى بلادنـا ووقع

الينـا ما أوتيتم من النصر في بلاد الشام وغيرهـا ، وعلمنا ما قدر الله لكم من الغلبة على جماعة الروم حيث حللتم . ومـا ذلك الا لمـا أحبوا من دنياهم ومـا أحببتم من آخرتكم • وقد كـان نبيكم قد بعث الينا منذ بضع عشرة سنـة يدعونا الى الاسلام وأن نسلم اليـه البلاد • وهـذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتـاب لتقرأوه ؛ فأجبنـاه بأن ذلـك ليس في طـاقتنا لأننا محكومون وان الامر راجع الى ملكنـا هرقل • أمـا وقد رأينا ما عزكم الله به من النصر ، وقد جئتم الى هذه البـلاد تريدون فتحهـا . فقد بعثت اليكم بهـذا الكتاب لأعلمكم اننـا نحن الاقبـاط لسنا أعداءكم ولا نريد محـاربتكم . وانما أعداؤكم هم الروم وجندهم . فاذا قدر لكم النصر ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، فاذكروا أننا في ذمتكم وأوصوا رجـالكم الا يؤذونا ، والا يسيئوا الى رهباننا ، أو يهدموا أديرتنا ، فانهـا بيوت الله ؛ وأهلها لا يقومون بـأي حرب • ولو كـان الامر عائـدا الينا ما رميناكم بنبل ؛ ولا جردنا عليكم سيفا • وجماعة القبط باقون على قولي هـذا الى أن يقضي الله بما يشاء •

« كتبه المقوقس حنا بن قرقت حاكم مصر »

وكـان زياد يقرأ وعمرو مصغ اليه ينظر الى الارض ، ويمشط لحيته بأصابعه • فلمـا أتم قراءة الكتاب رفع عمرو رأسه وقال : « وأين كتاب بينا صلى الله عليـه وسلم ؟ » • فمد زياد يده فأخرجه ؛ وكـان محفوظا في صندوق صغير من العاج . ففتحه وأخرج الكتاب منه . واذا هو من حلد ، فتناوله عمرو ونشره وتأمـل موضع الخـاتم فاذا هو مكتوب فيه « محمد رسول الله » على ثلاثة أسطر •

فعرف فيـه خاتم النبي ؛ ونظر الى الخط فاذا هو خط الامـام علي بن أبي طالب ، وهو أول من تولى الكتابـة في الاسلام ، وكـان كاتب

النبي ، وتولى الكتـابة غيره أيضا ، وكـان عمرو بن العاص في جملتهم . ولمـا تحقق أنه كتاب النبي ، استأنس به وقبله بكـل احترام ، وجعله على رأسه ثم قرأه فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمـد عبد الله ورسولـه الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من أتبع الهدى . أمـا بعد فاني أدعوك بدعـاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتـين . فان توليت فعليك اثم كـل القبط . يا أهل الكتاب تعالـوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضـا أربابا من دون الله فـان تولوا فقولوا اشهدوا بأنـا مسلمون » . ويلي ذلـك خاتـم كما يلي :

الله
رسول
محمد

فقال عمرو : « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمـا مـا يلتمسه المقوقس من رعاية طائفته وحماية الاديـرة والرهبان فذلك مما لا نحتاج فيه الى وصاية لأننا أوصينا به من قبل ، فقد حدثني عمر أمـير المؤمنين انه سمع رسول الله (صلعم) يقـول : (ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم فيهم صهرا وذمـة) . وقد أوصانا الله خـيرا بالرهبان والقسيسين اذ قال في كتابه العزيز : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنـا نصارى ، ذلك بأن منهـم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون) . ومن وصايا أبي بكر رضي الله عنه قوله يوصي المسلمين وقد ساروا للجهـاد : (وستمرون على قـوم في الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم) . فليطمئن القبـط

انهم في ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ؛ وانما جئنا لمحاربة الـروم . فاذا منعونا حصونهم وأبوا الاسلام أو الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضي الله ما يشاء وهو خير الحاكمين . فان الرجل منا ينتظر شهادته . فاذا نالها أقـام في النعيم وهو خير لـه وأبقى . وسأكتب الى المقوقس كتـابا في ذلـك » .

* * *

فقال زياد : « اني لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو ! ألا تذكر يوم كنا في الجـاهلية لا نعرف الدين ؟ اني أذكر أياما كنـا نعظم فيها أصنـام الكعبة ونستخير هبل الاكبر ونذبح الذبـائح وعيوننا مغمضة من جهلنا » . فتنهد عمرو وقـال : « ان الجـاهلية عمى . واني لأحزن على أيـام مرت بي قبل الاسلام ؛ وأشعر بعظيم ما ربحت بالهداية التي إهتديتها ؛ وأود لكل امريء مثل ما كسبت » . فقـال زياد : « وكيف كـان اسلامك ؟ » . قـال : « أما اسلامي فجـاء متأخرا . وقد كنت من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه لمـا قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش ، وشددوا النكير عليه حتى اضطر أصحـابه أن يهاجروا الى النجـاشي ملـك الحبشة فأمنهم ، ثم أرسلتني قريش ورفيقا لـي بهدية الى النجـاشي ليسلم لنـا المهاجرين ، فأبى وكان عونا لهم علينا . فعظم عندي أمر صاحب الدعوة ؛ ووقعت في نفسي رهبة منه . لكني بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثـامنة للهجرة ؛ وكنت في أثناء ذلـك أفكر في أمره صلى الله عليه وسلم . فوجدت أعماله ناطقة بصدق دعوته . فاجتمعت يوما بخـالد بن الوليد . وعثمان بن طلحة العبودي ؛ وهمـا لم يسلما بعد ؛ فقلت لخـالد : (أين يا أبا سلسـان ؟) . قـال : (والله لقـد استقـام الميسم ! ان الرجل لنبي . اذهب والله فحتى متى ؟) . فقلت :

(ما جئت الا للاسلام) • فقدمنا على النبي (صلعم) فتقـدم خالـد فأسلم ، ثم تقدمت أنا ، وكـانت أول مرة لقيته فيها وجها لوجه فملكتني الهيبة لمنظره ولمـا جمع الله فيه من المحـاسن » •

فاشتاق زيـاد لمعرفة أوصاف النبي فقال : « وما الذي أرهبك منه ؟ وما هي أوصافـه ؟ » •

فقال عمرو : « والله يا زياد اني لا أنسى ساعة لقيته فيهـا ، فـان صورته لا تزال مرسومة على لوح صدري منذ رأيته يوم جئت ألتمس الاسلام • وأمـا صفاته فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين ، مشرب بالحمرة ، وكان لمـا لقيتـه واقفا ، فمشى فـاذا هو يتكفأ كأنمـا ينحط من صبب ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكـان أدعج العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين ، اذا التفت التفت جميعا ، ولعله كـان اذ ذاك قـائما من الصلاة ، وقـد تحدر العرق على وجهه كاللؤلؤ الرطب • وفوق كـل ذلك فان الهيبة كانت تجلله فلم أستطع النظر اليه طويلا • فوقفت بين يديه فقال لي : (ما جـاء بك يا عمرو ؟) • قلت : (جئت أطلب الهداية يـا رسول الله) • قـال : (أتريد الاسلام اذن قل : أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله) • ثم دخل عثمان بن طلحة فقال مثل قولي ، وصلينـا جميعـا ، وقد شعرت والله يـا زياد بغشاوة انقشعت عـن عيني ساعة الشهـادة » •

وكـان عمرو يكلم زيادا وعواطفه تتكلم معه وقلبه يتهلل فرحا ، ثم قـال : « وأخذت من ذلـك الحين أجاهد في سبيل الله ، وآخر مرة فعلته فتح بيت المقدس ، وأتيت منها الى مصر كما علمت ، وترانا لا تقدم بلدا الا فتحنـاه عنوة أو صلحـا ، وكـل ذلك ببركة رسول الله (صلعم) ولأن يقاتل أحدنـا العدو رغبة في الآخرة ويستشهد في سبيل ذلـك ، خير

له من الذل ، بل هو خير من الحيــاة الدنيا ، لأن الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار » • وكـان عمرو يتحدث والعرق يتصبب منه لتهيج عواطفه وشدة رغبته في الجهـاد •

فقال زياد : « لا عجب يا عمرو اذا نصرتم في حروبكم وقد عقدتم الخناصر وأخلصتم النية في الجهـاد ، وأما جماعة الروم فانمـا همهم التفاضل فيما بينهم ، وفي قيـام بعضهم على بعض ما يحول بينهم وبـين النصر ، وكـأني بدولتهم قـد دالت وشمسها قد مالت » •

وكـان مرقس في أثناء ذلك صامتا لا يفهم ما دار بينهما ، ولكنه كان معجبا بملامح عمرو ، ومـا يلوح في وجهه من البسالة ، وما ينبعث من عينيه من أشعة الذكـاء ، وكان يود الدخول فيما جـاء من أجلـه ، لأنه خـاف أن يصل رسول يوقنا الى أرمانوسة فتنطلي الحيلة عليهـا فيصيبها شر ، عـلى أنه لم يكن يجسر على الدخول في الحديث من تلقاء نفسه •

ثم التفت عمرو الى زيـاد قائلا : « ومن هو صاحبك يا زياد ؟ » • قال : « هو من قبط مصر أيهـا الامير ، من جند المقوقس ، وقد جـاء ليقص عليك حكـايته ، ويسألك أمرا لا شأن للحرب فيه • ولكننـا قد أطلنا الحديث الآن وأنت قادم من سفر تحتاج الى الراحة ، فلا نثقل عليك أكثر من ذلـك » •

قال : « ان التعب لا يقعدنا عن حاجات الناس ، فان نبينا صلى الله عليه وسلم انما أرسل رحمة للعالمين » •

فقال زياد وقد شعر أنه أطال الحديث : « بارك الله فيك أيها الأمير ، لا زلت ملاذا للطالبين • أما أمر صاحبنا فليس مما يسرع اليه ، واذا كان مولاي أن نعود في الغد فعلنا ، وأمـا الآن فاننا نستأذنه في الانصراف » • قال ذلك وهم بالوقوف ، فوقف مرقس وهو لم يفهم ما قيل ، فوقف عمرو

وقد أجاب زياد الى طلبه ونادى وردان فحضر فقال : « هذان ضيفان علينا ، وقد شعرت باستيحـاش هذا القبطي لحديثنا لأنه لا يفهمه ، فعليـك بمحادثته بلسانه الليلة حتى لا يقول أنه رأى في ضيافتنا وحشة » .

فقال وردان : « لبيك » ، واصطحب الرجلين وخرج بهما ولمـا أفهم مرقس ما دار بشأنه وهم خارجون أسف لتأجيل الأمر ، ولكنه لم يـر مندوحة عن الاذعان .

وسار بهما وردان الى خيمته ، وأنزلهما على الرحب والسعة ، وقضوا بعض ذاك الليل في الحديث عن الاسلام وأخبار الصحابة والفتوحات ، وما عرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان ، وما يروى عن النبي من الأحاديث ، فسحر زياد ومرقس بما سمعاه وقالا معا : « والله أن من كانت هذه مناقبهم وخلالهم لا غرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الأمصار » . وقد أعجبا بنوع خاص بما سمعاه عن عمر بن الخطاب حين جاءه عرفجـة بن مازن رسولا بكتـاب من أبي عبيدة بما فتح الله على المسلمين ، فوصل عرفجة الى المدينة وعليه قباء فاخـر من الديباج ، وعلى رأسه مطرف خز مذهب ، وهمـا من أسلاب الروم ، فترجل عن ناقته ، وسلم الكتاب الى عمر وهو في المسجد يصلي ، فنظر الى عرفجة شزرا وقال : « من الرجل ؟ » قـال : « عرفجة بن مازن » فقال : « يا بن مازن أما كان لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ ان هذه ثياب الجبارين ومن جعـل الله لهم الدنيا جنة ، وهذا الديباج حرام على الرجال منا ، لأنـه لا يصلح الا للنساء ، وهـذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة . أما والله لقد دخلت يوما علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهـو نائم على سرير مزمل بشريط ، وليس بين جلده وبـين الشريط شيء ، وقد أثر الشريط في جـلده ، فلما رأيت ذلك بكيت فقال : « يا عمر ما الذي أبكاك ؟ » . فقلت : « يا رسول الله ان كسرى وقيصر يعبثنا في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة » .

فقال : « يا عمر ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » . فناوله عرفجة الكتاب وسار من ساعته وخلع الديباج وأهداه الى خالته .

وحكى لهما وردان حكايات أخرى كثيرة مثل هذه فازداد اعجابهما ، وكان يخاطبهما بالقبطية . وود مرقس لو كان المقوقس معهم ليرى أمر العرب وحالهم . ويزداد كرها للروم ورغبة في التخلص منهم ؛ ثم رأى أن يستطلع من وردان أمر يوقنا وعلاقته بقسطنطين أو المسلمين . فقال : « وكيف ترون يوقنا ؟ » . فالتفت وردان الى مرقس وهز رأسه قائلا : « انه يدعي الاسلام والقيام بنصرته . وقد وثق به أميرنا . ولكنني والله لا أظن به خيرا ؛ ولا أعتقد صدق ما يدعي ؛ وقد جاء أمام جيشنا ليحاربكم . ونحن لا نبالي اذا كان معنا أو علينا فان سيوفنا تنصرنا حيثما حللنا » .

قال مرقس : « وهل قسطنطين بن هرقل يحبه ؟ » .

قال وردان : « وكيف يحبه ؟ أنه لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن اذاقته الموت الزؤام لأنه يحارب قومه » . ففهم مرقس أنه جاء بدسيسة للايقاع بسيدته ؛ فصبر ليرى ماذا يكون من أمره .

وباتوا ليلتهم . وأفاقوا في الصباح على أصوات المؤذن والمسلمون قيام للصلاة ؛ واذا بيوقنا قد جاء الى خيمة عمرو ، وخلا به برهة ووردان معهما ، ثم خرج وردان فنادى الامراء ليحضروا ، فدخلوا خيمة عمرو . ولبثوا يتفاوضون ؛ وجاء في أثناء ذلك وردان وأخبر زيادا ومرقس ان الامير قد عزم على المسير الى الفرما في ذلك اليوم .

فعظم الامر على مرقس لأنه كان يود مخاطبة عمرو في أمر يوقنا حتى اذا كان قد جاء بدسيسة فعليه أن يحبط حيلته ويدبر وسيلة لانقاذ سيدته أرمانوسة بواسطة عمرو ؛ فبهت برهة ثم قال : « وما الذي حمله على سرعة المسير الى الفرما ؛ وقد كان في ظننا أنه يستريح بضعة أيام قبل مهاجتنا ؟ » .

قال : « ألم تر يوقنا قد اختلى به في هذا الصباح ؟ فالظاهر أنه علم أن المقوقس مرسل نجدة اليها فأرادوا معالجتها قبل وصول المدد » .

فتحير مرقس وظهر الارتباك على وجهه وأدرك زياد فيه ذلك فقال له : « لا ترتبك ، لعلنا نخاطبه بشأن ما تريد غدا بعد وصولنا الى ظاهر المدينة ، فان الجند يصل الى الفرما عند الظهيرة ، ولا بد قبل المهاجمة من الاستعداد » .

فصبر مرقس على مضض ، ثم تركهما وردان وذهب الى خيمة عمرو للتأهب ، فخلا زيـاد بمرقس وقال له : « مالي أراك مضطربا ؟ » .

قال : « اني والله خائف على سيدتي بعد ما علمت أن يوقنا هـذا أراد بهـا الغدر ، وأنه ليس رسول قسطنطين اليها ، فلعله يريد اختطافها لنفسه ، وقد أرسل رسله لهذه الغاية » .

وفيما هما في ذلـك شاهدا هجانا قادما من بلبيس ، فحقق مرقس النظر فيه فاذا هو بروفس رسول يوقنا فقال : « هذا يا زياد رسول يوقنا قد عـاد من بلبيس ، هلم بنا نسأله عن نتيجة مخـابرته » . فأسرعا اليه خارج المعسكر حتى لقياه فناداه مرقس ، وقد أظهر ارتياحه لرؤيته ، وسأله عن جواب أرمانوسة فتبسم قائلا : « انهـا في خير وقد سرت سرورا عظيما بمـا أخبرتها به ، وأخذت في التأهب واعداد عدتهـا للمسير ، وأمرتني أن أستعجلـك الرجوع اليهـا ، وقد أهدتني هديـة نفيسة مقـابل بشارتي » .

قال ذلـك وساق هجينه الى خيمة يوقنا . أما مرقس فقال لزياد : « هـا أن الحيلة قد انطلت على سيدتي ، ولا أدري كيف أفعل ؟ وقد طلبت الاسراع في ذهـابي اليها ، ولكنني لا أرى أن أذهب قبل أن آخذ موثقا من عمرو ليدفعن عنها كل سوء » .

قال : « أما أنا فأرى أن تنتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر

الى ظـاهر الفرما ؛ وأنـا أبذل الجهد في مقابلة عمرو وعمل المستطاع ، فلنقف الآن على هذه الاكمة لنشهد نظـام الجند العربي وتأهبه للحرب ، وسترى أنهم سيتركون خيامهم وأثقالهم هنا ؛ ويذهبون بأنفسهم وعدتهم فقـط » .

فصعدا الى ربوة ووقفا ينظران الى الجند وانتظـامه ، فاذا بالاعلام قد تفرقت كـل علم الى جهة ؛ فحمل وردان علم عمرو بن العاص ومشى في المقدمة ؛ وحمل أميران آخران عليهمـا ، ووقف أحدهما على الميمنة والآخر على الميسرة ، فاجتمعت الجنود الى هذه الاعلام كل الى أميره . ثم سمعـا أصوات المنادين يقولون : « النفير النفير ! يا خيل الله اركبي » . فقال مرقس : « وما هذه المنـاداة ؟ » . قال : « أنهم يدعون الجنـد ، وهذا شعار لهم يقولونه اذا أرادوا الركوب للحرب » . فقـال مرقس : « وكيف تعرف هؤلاء الاقوام ، وهل هم من قبيلة واحدة ، فـاني أرى تشابها في ملابسهم » .

قال : « ان الفرق في لباسهم لا يظهر لك لأنه طفيف ، ولكنهم ليسوا قبيلة واحدة ، فانظر الى الذين يحملون النشاب ، وهم خفاف سراع ، انهم من رجـال اليمن ، وهم مشهورون برمي النشاب »

فقال مرقس : « أرى تنظيم جندهم يشبه نظام جندنا ؛ فهذه المقدمة والجناحان والقلب والساقة ؛ ولكني أعجب لاختلاف ألوان راياتهم خلافا لنا ، فان راياتنا متشابهة » . قال : « علمت أمس من بعض العرب أن الراية الصفراء هي في الغالب راية المهاجرين الذين هاجروا الى المدينة مع النبي ، وهم أول القائمـين بنصرة الاسلام ، وترى انهم قد وقفوا في قلب الجند » . فقال مرقس : « ولكنني أرى راية عمرو سوداء » . قال : « انه ليس من المهاجريـن ، فقد أخبرني أمس انه أسلم بعد الهجرة » .

ثم رأيا الخيالة قد تفرقوا على الميمنة والميسرة وفي المقدمة ، وهم على

خيـــل من الخيول العربية المشهورة • فقال مرقس : « أرى خيولهم ضئيلة ضامرة ، وقد كنت أسمع بجودة خيل العرب » • فضحك زيـاد وقال : « ان خيل العرب أجود ، وهي موصوفة بالرقة والسرعة ، ولا عبرة بكثرة اللحـــم » •

ثم نظر مرقس الى مؤخر الحملة فاذا بالهوادج محمولة على الجمال فقال : « تقول يا أخي أنهم يسيرون برجالهم للحرب وتبقى الخيام هنا ، ولكن ها أنذا أرى الهوادج محمولة وفيها النساء والأولاد » •

قال : « ان العرب اذا ساروا الى الحرب حملوا نساءهم معهم ، فانهن يحرضن الرجال على الحرب ويحثثنهم فيستحيون منهن اذا أحسوا بضعف أو مالوا الى الفــرار » •

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند اذا بعمرو قد جـاء على فرسه ، ووردان راكب الى جانبه يحمل العلم ، وعمرو يخترق الجند ، فينتقل من فرقة الى أخرى ، فقال زياد : « تعال نقترب من الجند لنسمع ماذا يقول عمرو في طوافه » •

فنزلا حتى دنوا من المعسكر فاذا بعمرو يطوف في الرجال يرتــب صفوفهم ويحرضهم على الثبات ؛ فيذكرهم بما نالوه من النصر في الشام وبيت المقدس ويقول : « يا أهل الاسلام والايمان ، يا حملة القرآن ، يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أننا ذاهبون لمقابلة الروم ، فاصبروا صبر الرجــال ، وثبتوا أقدامكم ، ولا تزايلوا صفوفكم ، ولا تنقضوا نيتكم ، ولا تخطوا خطوة الا وأنتم تذكرون الله ، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ، واشرعوا الرمــاح ، واستتروا بالدرق ، وألزموا الصمت الا من ذكر الله ، ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم » • ثم تحول الى مكــان آخر من الجند وقال : « معاشر العرب أنكم في بلاد العدو بعيدون عن الاوطــان ، ولا ينجيكم الا الطعن والثبات في الحرب ، فــاذا صبرتــم

وجاهدتم ملكتم الرقاب ، وان وليتم فليس وراءكم الا المفاوز والبراري ، وعين الله ترقبكم » •

ثم سار الى مكان الهوادج وخاطب النساء قائلا : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان النساء ناقصات عقل ودين) • فكن ممن حافظن على دينهن ، وقدمن في ذلك النية ، وحرضن أزواجكن على القتال ، ومن رجع منهم منهزما فأحصبن وجهه بالحجارة ، وأضربن جواده بالعمد ، وأظهرن أولادكن لأزواجكن ، وقلن لهن : (قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، فلستم بعولتنا اذا لـم تمنعونا) حتى يرجعوا » •

فلما سمعت النساء ذلك وقفن متنمرات مرتجزات يقلن الشعر •

كل ذلك والناس يوحدون ويهللون ويكبرون ، ثم انتظمت الحملة ومشى الجند ، فجعل مرقس ينظر الى خيام يوقنا فاذا هي في مكانها ، ولم يخرج يوقنا مع الجند ، ولم يخرج أحد من رجاله •

فخاف أن يكون قد اعتزم الذهاب الى بلبيس وتنفيذ مكيدته على حين غفلة ، فجعل يفكر في أمره ، ويتردد بين أن يسير الى بلبيس فيطلع سيدته على ما علمه من أمر يوقنا ، أو أن ينتظر حتى يرى عمرو ، وفيما هو في تفكيره التفت زياد اليه وقال : « مالي أراك حائرا في أمرك ؟ » • قال : « اني خائف من يوقنا ومكيدته ، وأخشى أن يسير الى بلبيس وينفذ مكيدته على غرة » • فقال : « اذا كنت ترى ذهابك الآن فافعل ، وعلي أنا أن أرى عمرو وآخذ العهد منه ، وأبعثه به اليك أما كتابة أو شفاها » •

فارتاحت نفس مرقس الى هذا الرأي وقال : « بورك فيك يا زياد ، اني والله لا أنسى لك هذا الصنيع ، وأرى أن أبادر بالذهاب حالا ، ولكنني أتيت ماشيا ، فاذا عدت كذلك أخاف الابطاء ، وربما سبقني يوقنا اليها على خيله ، فلا فائدة من ذهابي » • فقال زياد : « أما الخيل فلا يجود العرب بها ، فان العربي يضحي بنفسه لأجل فرسه ، ولكننا ربما

استطعنا الحصول على جمل والجمل أسرع من الفرس أحيانا ، فهل تعودت ركوب الجمال ؟ » . قال : « لا والله ، لم أركبها عمري ، ولكني أركبها الآن ركوب المضطر . والاتكال على الله » . ففكر زياد كيف يحصل على جمل ، والجند قد ساروا بخيلهم وجمالهم ، فنظر الى الركب الباقي فاذا فيهم بعض الجمال عليها الزاد والخيام ، فقال لمرقس : « البث هنا ريثما أعود اليك بالجمل » . ثم تركه وذهب الى الخيام يجول بينها لعله يرى أحدا يعرفه فلم يعثر على أحد : فأوغل في المضارب ، فلاح له عن بعد جمل سائب في البرية ، فعلم أنه يطلب المرعى ، فحدثته نفسه أن يقبض عليه ويأتي به الى مرقس خلسة ، ولكنه خاف سوء العاقبة ، فوقف برهة يفكر في ذلك فلم يجرؤ على السرقة ، ثم نظر الى الجمل فاذا به يوغل في الصحراء ولا يطلبه أحد ، فعلم أنه منسي ، فعول على اللحاق به ، فاذا اعترضه أحد تظاهر بامساكه وارجاعه الى المعسكر ، فسار في أثره حتى نوارى عن الناس ، فأمسكه وعقله ، وعاد الى مرقس وأخبره ان الجمل معقول هناك ، وسارا وهما لا يراهما أحد حتى وصلا الى مكان الجمل ، فحلاه وقال زياد لمرقس : « اصعد الى ظهره وتشبث ، فانك اذا لم تتشبث جيدا سقطت » . وساعده على الركوب ، وأوصاه أن يمسك بالرجل جيدا ، ولم يكد زياد يرفع رجله عن ساعد الجمل حتى وقف الجمل بغتة ، ومرقس لا ينتظر مثل هذا النهوض السريع فهوى على ظهره ووقع على الارض فشج رأسه وسال دمه .

فصاح : « آه . قد قتلت » . أما الجمل ففر راجعا يطلب المعسكر ، فأمسك زياد مرقس وأسنده الى صدره ، وقد خارت قواه وغاب صوابه ، فحار زياد وأسقط في يده ، وخاف على صديقه الموت ، وجعل يمسح أ‍ـه دمه .

وبينما هو على تلك الحال شاهد فارسا عن بعد ، علم من لباسه أنه

عربي فناداه . فتحول الفارس نحوه مسرعا ، وأخرج قطعة من قماش شد بها رأس مرقس ، ورفعه عن الارض ، وقال لزياد : أسنده ؛ ثم ركب فرسه وحمل مرقس أمامه وقد تدلى رأسه على صدره ، وساق الجواد قاصدا المعسكر ، وزياد يتبعه وقلبه يخفق حزنا على ما أصاب صديقه .

- ٨ -

يوقنا وأرمانوسة

فلنتركهم ذاهبين لمداواة مرقس ، ولنرجع الى أرمانوسة وما كان من أمرها ، فانها لبثت في بلبيس بعد مسير مرقس تنتظر عودته بصبر نافد لتعلم حقيقة خبر قسطنطين ، فمضى يوم وثان وهي في لهفة وتحرق ، لا يهنأ لها طعام ولا شراب . فلما كان مساء اليوم الثاني بعثت الى بربارة فجاءتها مهرولة ، فقالت لها : « ألم يكن من الحكمة يا بربارة أن أبعث بك من قبل الى أركاديوس لابلاغه ما نحن فيه ؛ فلعله اذا علم أننا متفقان قلبا وقالبا أسرع الى انقاذي من قسطنطين ؟ اني أخاف اذا أبطأت عليه بالجواب أن يظن بي تغييرا فيتغير ؛ أو يظن بي سوءا فيغضب ، فما رأيك ؟ » .

فقالت بربارة : « لا أظنه يستبطئنا اذا تأخر جوابنا أسبوعا لعلمه بصعوبة المراسلات ؛ وأظن أن انتظارنا عودة مرقس أولى حتى نعلم اليقين ، لأننا اذا تحققنا قتل قسطنطين أغنانا ذلك عن مشقات جسيمة . ويكون فيه القول الفصل ؛ واذا ثبت أنه لا يزال حيا باقيا على عزمه عمدنا الى وسيلة للنجاة ، وعلى كلتا الحالين فالرأي لسيدتي ؛ مريني أفعل ما ترين » .

فصمتت أرمانوسة مدة ، وكانت متكئة على سريرها فتنفست الصعداء وقالت : « لا أراني قادرة على الفصل في الامر ، فأشيري علي بما ترين » .

فقالت بربارة : « ننتظر الى الغد ، فاذا لم يأتنا مرقس تدبرنا أمرنا ، والله يلهمنا ما فيه خيرنا » . فباتتا تلك الليلة وقد صلت بربارة صلاة حارة ، ونذرت نذرا لكنيسة المعلقة رجاء انقاذ سيدتها . أما أرمانوسة فكانت لا تفكر الا في أركاديوس وقسطنطين ، وتقابل بينهما ، فيخيل اليها أنهما ملاك وشيطان يمران أمام عينيها . وفي الصباح جاء حاكم بلبيس يطلب مقابلة أرمانوسة في غرفتها ، فأذنت له وقد استغربت مجيئه ، وهو قلما طلب مقابلتها .

فلما دخل حياها باحترام فردت التحية ، وهي لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها ، ونظرت الى الحاكم فاذا هو ممتقع اللون أيضا فازداد قلقها فقالت : « ما وراءك أيها الحاكم ؟ » .

قال : « قد أتتنا الجواسيس بنبأ دخول العرب حدود مصر ، وان فرقة منهم وصلت الى الفرما ، فهل أرسل الى سيدي المقوقس بذلك ؟ فانه أوصاني عندما كان هنا في زيارته الاخيرة أن أستشيرك في مثل هذه الامور لما يعهده فيك من الحكمة والدراية » .

فلما سمعت أرمانوسة قوله خفق قلبها ، ولم تعلم بماذا تجيبه . وبعد التأمل برهة قالت : « لا بد من ابلاغه الخبر حالا واستنجاده ، فان العرب لا يلبثون أن يصلوا الينا ، ولا أظن حامية بلبيس كافية لدفعهم » . فقال : « اذا أمرت مولاتي أنفذت من يطلب المدد » . فقالت : « لا بد من ذلك فافعل » . فخرج مهرولا .

ولما خلت بربارة بسيدتها قالت لها : « ربما ذعرت يا سيدتي لهذا

الخبر ، ولكني أحسبه بابا للفرج » • قالت : « وكيف ذلك يا بربارة ؟ » •

قالت : « لأن سيدي المقوقس في الحصن الآن . واذا جاءه الخبر أبلغه الاعيرج فيعلم به سيدي أركاديوس . فاذا كان محبا لأرمانوسة حقيقة جاء بنفسه مددا لحامية بلبيس وهذا ما تتمناه » •

قالت أرمانوسة : « صدقت يا بربارة . فافعلي ما تريدين لأني لا أعي شيئا ؛ وسأنتظر عودة مرقس لأرى ما حدث لذلك الرجل (تريد قسطنطين) » • ولحظت بربارة عظم ارتباك سيدتها وقلقها فقالت لها : « هلم بنا يا مولاتي ننزل الى الحديقة فتنزهين طرفك في الرياحين والازهار . ولنترك المقادير تجري في أعنتها . والله يدبر الامر كيف يشاء » •

فقالت أرمانوسة : « اني أفضل الانزواء على التنزه ؛ لأن قلبي لا يسر لشيء . ولا يرتاح لي بال قبل الوقوف على حقيقة الخبر » •

فقالت : « دعي التدبير لله » •

قالت ذلك وأمسكتها بيدها وأنهضتها ؛ وجاءتها برداء أرجواني ثمين ألبستها اياه . وزينتها بحليها وجعلت على رأسها شبكة ثمينة من اللؤلؤ ؛ وضفرت شعرها . ومشت أمامها الى الباب ، فخرجت أرمانوسة في أثرها • ولما علمت نساء القصر بخروج أرمانوسة أطللن من النوافذ ليشاهدن حسن زيها ؛ فقد كن معجبات بجمالها وهندامها •

فسارت في الحديقة تخطر بين الاشجار وهي لا ترتاح الى شيء لتعاظم هواجسها ، فجعلت بربارة تسليها بالحديث وهي لا تنطق ببنت شفة •

وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة ؛ فلاحت من بربارة التفاتة فاذا بفارس قادم عن بعد ؛ وعليه لباس مرقس فظنته هو ، فالتفتت الى سيدتها بلهفة وقالت : « هذا هو مرقس يا سيدتي ، فلعله جاءنا بخبر يسر » • فالتفتت أرمانوسة الى القادم ثم قالت : « ولكني أراه راكبا جملا من جمال العرب ، فهل ذهب راكبا » • فنظرت بربارة

الى الرجــل وهو يقترب من البلدة ثم قالت : « لا ليس للجمال عندنــا وجود ، ولكن يظهر أنه مرقس ، ولا أعلم من أين أتى بالجمل؟ » .

وما كادتا تتمان الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة ، فحط رحله الى جذع شجرة ، فخرج بعض حامية بلبيس لاستقباله وسؤالــه عن مراده . وجاء أحدهم يقــول : « ان القادم رسول من قسطنطين بــن هرقل الى المقوقس » . ثم تقدم الى أرمانوسة يسألها هل تريد مقابلته ؟ .

فلما سمعت أرمــانوسة ذكر قسطنطين أجفلت وانقبضت نفسهــا ، وقالت : « لا . لا أريد مقابلته » . فسارت بربارة الى باب الحديقــة ، وأشارت الى الحراس أن يأذنوا له بالدخول ، فدخل فاذا هو جندي مــن جنود الروم بلبــاس جند مصر ، وهو لباس مرقس بعينــه فقلقت بربارة على مرقس وقالت للرجــل : « من أنت ؟ » .

قال : « رسول من مولاي يوقنا ، صاحب جند حلب ، أرسلني بمهمة الى المقوقس من الامــير قسطنطين » .

قالت : « وأين صاحب هذه الثياب ؟ لعلك قد لقيت رسولنا ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ، وهو في خــير ، وقد تركته بالمعسكر معتزما الذهــاب الى الفرما بمهمة مــن السيدة أرمانوســة ، وأوصانــي أن أطمئنكــم عليه » . قالت : « وأين كتاب الامــير قسطنطين ؟ » . فمــد يده الى جعبة معلقــة بكتفه وأخرج حقا من الفضة ، وقدمه الى بربارة فتناولته ، وقالت للرسول : « امكث هنا ريثما أعود اليك بالجواب » .

ثم تركته ، ودخلت بسيدتهــا الــى غرفتها ، وهي لعظم كدرهــا لا تلوي علــى شيء . فلما دخلتا الغرفــة فتحت بربارة الحق ففاحت منه رائحــة العطر ، وأخرجت الكتاب فاذا هو من ورق ناعم حسن الصنعــة ، فناولته أرمانوسة لتقرأه لأنهــا لم تكن تعرف اللاتينية . فأخذت أرمانوسة الكتاب ويداها ترتجفــان ، ونظرت الى مكان الامضــاء ، فرأت امضاء

قسطنطين باسمه ؛ فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع ؛ وصاحت : « تبا له ألا يزال حيا ؟ » . فقالت لها بربارة : « اقرأيه يا سيدتي لنفهم ما فيه ، فلعل فيه خيرا ؛ ولو كنت أحسن القراءة لما كلفتك قراءته » .

فأخذت أرمانوسة تقرؤه فاذا فيه ما ترجمته :

« من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والي مصر

« بسم الآب والابن والروح القدس

« أما بعد : فاني قد عزمت على الشخوص الى القسطنطينية بعون الله ؛ فبعثت محبنا البطريق يوقنا حاكم حلب اليكم لكي تعتمدوا عليه في ارسال خطيبتنا أرمانوسة ليأتي بها الينا ؛ ونحن ننتظر وصوله عند سواحل دمياط ، وقد عهدنا اليه بهذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص ؛ فلا تترددوا في تسليمه أرمانوسة والسلام » .

فلما قرأته أرمانوسة خارت قواها ؛ وألقت بنفسها على السرير ؛ وأجهشت بالبكاء وهي تقول : « لا . لا أذهب معه ؛ ولا أخرج من هذه الغرفة قبل أن تخرج روحي من جسدي » .

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها : « لا تجزعي يا سيدتي . فلست بذاهبة باذن الله الا مع سيدي أركاديوس ؛ ولكن علينا أن نستعين في الامر بالحيلة ، فبماذا نجيبه الآن ؟ » .

فقالت أرمانوسة . وقد أظلمت الدنيا في عينيها : « لا تسأليني أمرا فاني لا أفهم ما تقولين ولا أعلم بماذا أجيب ؛ ولكنني أقول لك اني لا أريد الخروج من هذا المكان أبدا . وافعلي ما يبدو لك » .

فتركتها في الغرفة وخرجت . وبعثت الى حاكم المدينة فهرول مسرعا ؛ لأنه كان يود أن يخدم أرمانوسة ارضاء لوالدها ؛ لعلمه بما لها من المنزلة عنده ، فلاقته بربارة وانفردت به . وأطلعته على كتاب قسطنطين وقالت : « ان هذا الكتاب باسم المقوقس ، ونحن لا نستطيع اجراء شيء الا بأمره ؛

فابعث أحد رجالك بهذا الكتاب اليه حتى يأتينا بالجواب » .

قال : « سمعا وطـاعة » . وهم بالخروج فقالت : « قف قليلا » . فوقف فقالت : « هات الكتاب » . فسلمه اليها ، فقالت : « ابعث الي رجلا تثق به لأسلمه اليه وأوصيه بشيء آخر » .

فخرج وعاد بشاب كـان يثق به كل الوثوق وقال : « هـذا هو الرسول فأوصيه بما تشائين » . فنادت الشاب وقالت له : « امكث هنـا قليلا حتى أعود اليك » . ثم خرجت الى الحديقة وبعثت الى الرسول القادم من يوقنا فدخل فقالت له : « لقد سرت سيدتي أرمانوسة من هذه البشارة ، فأين هو سيدك يوقنا الآن ؟ » .

قال : « هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتي حتى يأتي ليذهب بالسيدة أرمانوسة حالا ، لأن الوقت قصير ، وقد أعد لها كـل معدات الاحتفال والزينة » . فقالت : « هل جاء في جند كبير ؟ » .

قال : « نعم ، انه جاء في خمسمائة من خاصة رجال سيدي قسطنطين حراسا للسيدة أرمانوسة في مسيرها » .

قالت : « بارك الله فيه . اذهب اليه واخبره ان السيدة أرمانوسة تهديه السلام ، وتشكر حسن صنيعه ، وأنهـا تتأهب للمسير معه حالمـا يأتيها الجواب من سيدي المقوقس » . ومدت يدها ونقدته مالا وقـالت : « وستنال تمام المكـافأة فيما بعد ، فاذهب بسلام » . فودعها وعاد الى هجينه فركبه ، وسار يطوي البيداء .

أما هي فدخلت على سيدتها فاذا بهـا لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع ، فدنت منها وقبلتها مبتسمة وقالت : « تجلدي يا سيدتي وتبصري فيما سأقوله ، فان الامر يحتاج الى الحزم ، وثقي جيدا أن قسطنطين لن ينال منك شعرة بهمة سيدي أركاديوس ، انمـا علينـا أن نعلم أركاديوس بما تم حتى يأتي لنجدتك ، ولا شك عندي

أنه يجيء مسرعا الينا وقد يكون مجيئه في النجدة التي سيرسلها أبوه الى بلبيس ، فكيف نعلمه بذلك ؟ » •

قالت : « قلت لك يا بربارة اني لا أملك حواسي ، فافعلي ما تشائين ، ولكنني خائفة من سوء العاقبة » •

فقالت بربارة : « لا تخافي يا سيدتي ، بل تجلدي ، واصغي لما أقوله لك » • قالت : « قولي ما بدا لك ، وافعلي ما ترتأينه » •

فقالت : « أين هو خاتم سيدي أركاديوس ؟ » • قالت : « هو في جيبي » • فأخرجته ، وجاءت بقطعة من البردى ، وختمتها به ، وكتبت اسم أرمانوسة بالقبطية الى جانب الختم ، وأحاطت الاسم بدائرة سوداء • ولفت الورقة وجعلتها في حق صغير ، وخرجت بالحقين الى الرسول وخلت به ، وأعطته قطعة من الذهب وقالت : « هذه هدية من السيدة أرمانوسة » • فأثنى عليها • فقالت : « خذ هذين الحقين ، فادفع هذا الى سيدك المقوقس حيثما وجدته ، وهذا ادفعه الى أركاديوس بن الاعيرج يدا بيد • أفهمت ما أقول ؟ واحذر أن يراك أحد ، فان سيدتي أوصت والدها بأن يزيد في عطائك اذا قمت بما أقوله لك » • فقبل الحقين وخبأهما في جيبه ، وخرج الى جواده فركبه وسار قاصدا حصن بابل فرحا بما نال •

وعادت بربارة الى سيدتها ، وجعلت تطمئن قلبها ، وتخفف عنها ، فقالت أرمانوسة : « لا شيء يعزيني يا بربارة أبدا ، فان يوقنا اللعين سيأتينا قريبا فبماذا نجيبه ؟ » •

قالت : « نقول له أننا لا نستطيع اجابة طلبه قبل وصول الجواب من سيدي المقوقس » •

قالت : « وما الفائدة من ذلك ؟ فلعل أبي يجيبه الى طلبه ، أليس هو الذي القاني في هذا المأزق ؟ سامحه الله » •

قالت : « أراك لا تنظرين الى الحوادث الا من وجهها المظلم ، خلي

عنك الظنون لأننا لا ندري ما يكنه القضاء لنـا ، وأراني شديدة الامل في سيدي أركاديوس ، فانه سيدفع عنك كل غائلة بسيفه ، وأنا أقول لـك أننا لا نسلم أرمانوسة قبل وصول أركاديوس ، مهما يكن الامر . ومتى وصل كان الامر اليه ، وهو أكثر ميلا للدفاع عنك من كل انسان » .

فأحست أرمانوسة عند ذكر أركاديوس براحة ، وسكن روعها ، وهانت عليها المشكلات . ثم نظرت الى بربارة وقالت : « هـل عـاد رسولنا مرقس من مهمته ؟ » .

قالت : « لا . لم يعد يا سيدتي ، وأنا في انشغال بال عليه ، وبالامس جاءني والد خطيبته يسألني عنه ، لأنهم ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر ، ولا يخفى عليك انتظار الخطيبة لخطيبها اذا كانت تحبه » .

فتنهدت أرمانوسة تنهدا عميقا وسكتت . ثم قالت : « ولكني أخاف أن يصيبه سوء لأجلنا ، اذ قد انتهت مهمته ولم يعـد » .

فقالت : « ولكني كنت أوعزت اليه اذا لقي العرب أن يجتهد في تجسس أحوالهم ، فلعله تأخر لهذا السبب » .

ومضى عليهما يومـان في انتظار ما يكون . وفي صباح اليوم الثالث أفاقت أرمانوسة على صوت الناس وضوضائهم ، فأرسلت بربارة تستطلع الخبر ، فعادت تقول : « أن أهل بلبيس في قلق من أمر العرب لأنهم هاجموا الفرما ، وقد وصل الى هنا بعض أهلهـا فارين من ساحة الحرب ، واستقدم الحاكم بعضهم الى منزله يستطلعهم أخبار العرب سرا ، لأنهم شهدوا حربهم واختبروا قوتهـم » .

فارتبكت أرمانوسة وزادت هواجسها وقالت : « هـذه مصيبة أخرى يا بربارة ، فقد أصبحت بين أربعة عوامل تتسابق الى القضاء علي : أولها وأشدها وطأة علي ذلك الرجل الذي لا أحبه ، وهذا هو رسوله ربما جاءنا غدا ، لكي يحملني اليه بل الى جهنم أعوذ بالله . وثانيهـا أبي الذي

وافقه على هذه الفعلة ، وهو عون له على شقائي . وثالثها هؤلاء العرب الذين جاءونا محـاربين ، وهم أشداء على ما يظهر ، وربمـا ملكوا رقابنا عنوة . ورابعها ، آه من رابعها ! .. » وسكتت . فقـالت بربـارة : « أكملي العدد يا سيدتي ، مـا هو رابعها ؟ ربما كنت أنا هو ذلك الرابع » . قالت : « لا يا بربارة ، حاشاك ، أنك وحدك تعزيتي في كل هذه النكبات ، أما الرابع فهو قلبي ، هذا الذي قد علق أركـاديوس وعصاني في هواه ، وأنا بعيدة عنه يائسة من لقائـه ، وقد كان لي بقية أمل في رؤيته من قبل ، أما الآن فأراني يئست من حبه » .

قالت ذلك وشرقت بدموعها ، فقالت بربارة وقد انفطر قلبها : « دعي عنك الأوهـام وتجلدي ، فقد قلت لـك : ألقي حملك علي ، فـاني ناصرتك باذن الله ، وعلي الضمان أن قسطنطين لن ينال منك شعرة ، وأنك ستنالين من تحبينه رغم النـاس كافة ، فاصبري وتدبري الامر بالحزم ، واجلسي حتى أذهب الى الحاكـم واسمع كلام الفارين لعلي آتيك منهم بقبس من نور » .

وتركتها في الغرفة وذهبت توا الى منزل الحاكم بجوار القصر ، وكان الحراس يعرفونها فلم يمنعوها ، فلمـا رآها الحاكم وقف لهـا واستقبلها ، وأراد أن يدخلها غرفة الاستقبال فقالت له : « لا حاجة الى ذلك ، فاني جئت لأسمع كلام الفارين » . فدخل بها الى غرفة فيهـا رجل عرفت من لباسه أنه من ضباط الجند ، ولكنه ليس رومانيا ، وانما أصله من جند انطاكية ، فلمـا رأته علمت ما قاساه من أنواع العذاب قبل وصوله الى بلبيس ، وكـان لا يزال في ثياب الحرب ، وعليه الدرع ، وقد تلطخت بالدماء ، وفي كفه جرح أصابه من نبال كـادت تخترق عنقه لو لم يستقبلها بكفه . فجلست على مقعد من الحرير المزركش ، وجلس الحاكم الى جانبها ، ونادى الضابط فدنا منه فقال : « أرو لنا ما رأيت بلا زيادة أو نقصان » .

فقال وهو يتنفس الصعداء : « اني لا أكاد أصدق يا سيدي اني على قيد الحياة لفرط مـا قاسيته من التعرض للخطر ، فان هؤلاء العرب أشداء أقوياء ، ولا أظن جندنا يقوى على حربهم » .

فابتدره الحاكم قائلا : « اخفض صوتك لئلا يسمعك أحد فيقع الرعب في الناس ، واشرح لنا حالـك » .

* * *

قال الضابط : « علمنا منذ ثلاثة أيام بوصول العرب الى ضواحي الفرما بعدتهم وخيلهم ، فأخذنا في التأهب ، فملأنا الأسوار بالجند ، ورفعنا الاعلام ، وأقمنا الصلوات في الكنائس ، ونصبنا الصلبـان على الاسوار ، وظننا أنهم يتريثون قبل منازلتنا التمـاسا للراحة من وعثاء السفر ، ولكننا لم نكد تتم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد ، وجموعهم تزحف نحـو المدينة ، ثم انكشف ذلـك الغبـار عن جيش جرار تتقدمه الاعـلام والفرسان ، ومـا زالوا حتى عسكروا أمام المدينة ، ولكننا لم نشاهد معهم خياما ولا أثقالا ، فعلمنا أنهم تركوا الخيـام بعيدا ، فلبثنا ننتظر مـا يكون منهم ، وكنت أنـا في حاشية حاكم الفرما نتشاور في أمرهم ، وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحـدا منهم يتقدم نحو الأسوار حـاملا علما أبيض ، اشارة الى أنه رسول ، فلم نتعرض له : فلمـا وصل الى السور أشار بيده أن معه كتابا يريد رفعه الى كبيرنـا ، فأمرني الحاكم فنزلت الى باب السور ففتحته ، وأردت تناول الكتاب منه فأعرض عني ، كأنـه لا يريد أن يعطينيه ، وفهمت منه أنه يريد تسليمه للحـاكم يدا بيد ، فاستأذنت في دخوله ، فدخل بقدم ثابتة ، كأنمـا هو داخل منزله . وكنت في أول الامر مستخفا به لرثـاثة لباسه ، لأنه كـان لابسا شملة ملتحفا بها كـأنه متسول ، ولكن تحول احتقاري الى احترام حين أراد الدخول عـلى

الحاكم ويده على قبضة حسامه ، فلما أردنا أن ننزع سلاحه أبى . فأتينا بالترجمان وحاولنا اقناعه بأن العادة عندنا أن يتجرد الرسول ؛ فقال : (لا أنزع السلاح أبدا . فاذا لم تقبلوني كذلك عدت من حيث أتيت) . فارتفعت منزلته عندنا . وأذن الحاكم بدخوله كما يشاء .

« فدخل ودفع الى الحاكم كتابا مكتوبا على ورق من جلد الشياه وليس من البردى مثل رقوقنا ؛ فتناوله الترجمان وفسره ، فاذا هو من أمير العرب يطلب الينا الاستسلام العاجل حالا ، أو الدخول في دينهم، أو تأدية الجزية . أو القتال .

« فعظم ذلك علينا . وقال له الحاكم : (ليس عندنا الا الحرب) . فتحول العربي ؛ ويده لا تفارق حسامه ، وعيناه تراعيان حركاتنا وسكناتنا كأنه يخاف غدرنا به . وعاد الى معسكره . فصعدت الى مرمى النبال على السور ونظرت الى معسكر العرب فاذا هم قد وقفوا صفوفا ، والفرسان متفرقون بينهم ؛ فعلمت أن هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم . ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليه درع يمانية ، وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا ؛ يوم كنت في انطاكية ، وأغار بجواده حتى دنا من السور مشهرا حسامه . فخاطبه الترجمان من أعلى السور يسأله عن مراده فقال : (اذا كان لا بد لكم من الحرب فأخرجوا الينا ، أو ليخرج منكم فارس تعتمدون عليه نبارزه ؛ فأما أن تكون الغلبة لكم اذا غلب ؛ أو لنا اذا غلبنا ؛ ومبارزة الافراد خير من سفك الدماء) .

« فالتفت الحاكم الي وقال : (ما الرأي ؟) . فقلت له : (ان في المبارزة حقنا للدماء) .

« فقال : (ومن يخرج منكم الى هذا الفارس ؟) . فانبرى قائد كبير منا ؛ وكان ممن حنكته الايام وتمرس بالحروب ، وعليه الخوذة ، والدروع على الصدر والكتفين والذراعين ، وقد غطاها كلها برداء من

الحرير المزركش ، وتقلد الحسام والخنجر ، وحمل الترس ؛ وجاء القسيس فصلى له ورشه بماء المعمودية تبركا وتيمنا ؛ وعلق على صدره صليبا من الذهب نعتقد فيه الحماية من الضر ؛ فقبل الصليب والانجيل ، وجاء الى باب السور فركب جوادا سمينا مكسوا بالدروع أيضا ، وبرز الى العربي ، وليس فيه ولا في الجواد مكان للسيف الا غطته الدروع !

« أما العربي فكانت الدروع على رأسه وصدره فقط ؛ والجواد عار ، وكنت ظننته فرسا ضئيلا لفرط ضعفه وقلة لحمه ، ولكنني شاهدت من خفته في الجري ما ذكرني بما كنت أسمعه عن خيول العرب من الخفة والشدة على قلة لحمها .

« وأخذ الفارسان يتبارزان ، وأبصار الجيشين شاخصة اليهما ، وكل يصلي ويطلب النصر لفارسه ، ثم رأيت الفارس العربي يتقهقر كأنه اندحر ؛ فلحق به فارسنا ، ثم ما عتم أن رجع فكر عليه ، فتقهقرت قلوبنا معه ، ثم عاد الى المبارزة ، واشتد الضرب حتى كدنا نسمع وقع السيوف على الدروع . كل ذلك والاساقفة يصلون ويتضرعون الى الله استمدادا للنصر حتى أمسى المساء ولم يظهر أحد منهما على رفيقه ، فافترقا على أن يعودا الى المبارزة في الصباح !

« فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربي ، فاعترف بأنه لو لم يدركه الظلام لذهب فريسة له ، قال ذلك سرا فيما بيننا ، وكان يظهر خلاف ذلك لدى الآخرين ، فاجتمعنا تلك الليلة وتشاورنا في أمر أولئك العرب ، فأجمع الرأي على أن نأخذهم بالحيلة ، فنخرج اليهم في الصباح مظهرين الوقوف صفوفا لمشاهدة المتبارزين ، ونجعل فرقة من جندنا في كمين على يسار الجند عن بعد ، ثم نشغلهم في حربنا ، ويدور الكمين من ورائهم ، ونهاجمهم من كل الجهات فنضايقهم . وكنت أنا في جملة من سار للكمين . وجعلنا علامة الهجوم دق الأجراس ، فنزلت مع الكمين ليلا

واختبأنا وراء أكمة على مسافة من المعسكر . وفي الصباح نزل باقي الجند أمام الفرما ، واصطفوا هناك وقد رفعت الاعلام والصلبان فوق رؤوسهم ، ونزل المتبارزان . وبعد هنيهة سمعنا دق الأجراس فهجمنا على العرب من ورائهم ، وكان باقي جندنا قد هاجموهم من الامام ، وعلا الصياح من الجانبين وحمي الوطيس .

« أما نحن فهجمنا عليهم من الوراء ، فما شعرنا الا وقد أغار علينا ساقتهم — وفيهم كثير من النساء — بالعمد والعصي ، وكانت الواحدة منهن تهجم على العشرة والعشرين وفي يدها عصا طويلة تضرب بها ذات اليمين وذات اليسار ، فلاقينا من شدة أولئك النساء أضعاف ما لاقيناه من الرجال . وما زلنا في ذلك حتى انتصف النهار وخارت قوانا فلم نستطع الثبات ، ثم رأيت نبلة ساقطة علي تكاد تصيب نحري ، فاستقبلتها بيدي فجرحتني ، وكان الترس قد وقع من يدي ، فخفت على نفسي ، فطلبت الفرار في عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر ، وفرت معي جماعة كبيرة ، فالتفت الى الفرما فاذا بالعرب يتسلقون أسوارها . ولا ريب أنهم دخلوها واستولوا عليها ، وقد واصلت السير ليلا ونهارا حتى وصلت اليكم وأنا لا أصدق اني نجوت من الموت .

وكان الحاكم وبربارة في أثناء ذلك يتطاولان بعنقيهما يصغيان الى ما يقول وقلباهما يخفقان . فلما أتم حديثه امتقع لون الحاكم ، ووقع الرعب في قلبه ، ولكنه أظهر الاستخفاف وقال : « انكم أخطأتم الحيلة ، وكان يجب أن تبارزوهم وجها لوجه ، فما هم الا شرذمة قليلة ، وليس لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا ، فلئن جاءوا بلبيس لأذيقنهم العذاب أنوانا » . ثم قال للرجل : « احذر أن تطلع أحدا من حامية بلبيس على جلية الخبر لئلا يستولي عليهم الخوف ، وهذا هو شأن الحرب يوم لك ويوم عليك » .

أما بربارة فعادت الى سيدتها وقد استولى عليها الخوف ، فرأتها واقفة الى النافذة ، وقد أسندت رأسها اليها تنظر الى الحديقة كأنها تتشاغل بها عن هواجسها لعلها تنسى ما هي فيه من الارتباك ، فلم تشعر بدخول بربارة حتى نادتها ، فتحولت اليها وسألتها جلية الخبر فقصت عليها الخبر كما سمعته الى أن قالت : « وهذا ما كنا نخشاه في أول الأمر ، وهو الذي حمل سيدي على مسالمة العرب . فانه تنبأ بظهورهم على الروم حيثما نازلوهم ، ولا يبعد أن يكون قد خابرهم سرا ، وعقد معهم عهدا ألا يؤذوا أحدا من القبط . وعلى كل لن تقوم للروم قائمة » .

فقالت أرمانوسة : « وما الرأي يا بربارة ؟ » . قالت : « الرأي أن نتربص لنرى ما يأتي به القدر ، ولا بد من أن يأتينا الفرج أما من أركاديوس وأما من مرقس ، الا أن يكون هذا المسكين قد أصيب بسوء » .

فقالت أرمانوسة : « لا سمح الله بذلك ، فاني على شدة هواجسي لم تبرح حكايته بالي ، وأراني في وجل على خطيبته لئلا يكون قد أصيب بسوء نحن السبب فيه » .

* * *

وقضينا بقية اليوم في مثل هذه الاحاديث . وفي الصباح خرجت بربارة تتنسم الأخبار لعلها تسمع شيئا عن مجيء مرقس ، فرأت الحاكم يسير مسرعا فسألته عن الخبر فقال : « أما رأيت الغبار المتصاعد في عرض الافق ؟ » .

قالت : « لا . وما ذلك ؟ » .

قال : « أخبرنا الجواسيس أن يوقنا قادم مع رجاله لحمل سيدتي أرمانوسة ، وقد جئت لأبشرها » .

فقالت : « أشكرك نائبة عنها ، وسأبلغها هذه البشارة عنك » .

ثم تركته وصعدت الى نافذة أطلت منها على ضواحي المدينـة ، فرأت الغبار يتصاعد ، وقد دنا القادمون ، فهرولت الى سيدتهـا وأخبرتهـا ، ولكنها مزجت الخبر بامارات الاطمئنان خوفا عليها • أما أرمانوسة فلم تعبـأ الا بالحقيقة : فلطمت وجهها : وأخذت تفرك يديها كأنها وقعت في مصيبة ، وبربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها ، ولكنهـا قالت لها أخيرا : « انـا على موعد مع يوقنا في انتظار جواب والدك » •

فقطعت أرمانوسة كلامها قائلة : « وما خوفي الا من ذلك الجواب ! سامح الله والدي ، فانه هو الذي جلب علي كل هذه المتاعب » •

فقالت بربارة : « الا تريدين أن تطلي من النافذة لمشاهدة القادمين ؟ »

قالت : « دعيني من النوافذ فاني مقيمة بهذه الغرفة لا أبرحها أبدا » •

وبينما هما في ذلـك سمعا قارعا يقرع الباب ، فخرجت بربارة لاستقباله ، فاذا هو الحاكم يحمل حقا وعلى وجهه امارات البشر • فسألته عن أمره فقال : « ان الحق مرسل من البطريق يوقنا الى السيدة أرمانوسة » فهمست في أذنه : « ان سيدتي الآن في الفراش ولا شك أنهـا ستشكر لك هذه الهمة ، وسأبلغها الرسالة متى أفاقت ، وربمـا دعوتك لمقابلتها » •

فشكر لها ومضى • أمـا هي فأخذت الحق ، وهو صندوق رأت فيه قطعة ثمينة من الحلى على مثال النسر ، مرصعة بالحجارة الكريمة من الماس والزمرد والياقوت ، بديعة الصنعة ، والى جـانب النسر رق محلى بالذهب مكتوب باللاتينية ، وفي صدره صورة النسر الروماني ، فعلمت أنـه من قسطنطين ، فدخلت على سيدتها والنسر بيد والرق بالاخرى ، وكـانت أرمانوسة جالسة على مقعد في صدر الغرفة وقد أطرقت الى الارض تنتظر عودة بربارة ، فلمـا رأتها داخلة والرق في يدها ظنتها تحمل كتابا مـن أركاديوس فنهضت وهمت بتناول الكتـاب منها في لهفة ، ولكنهـا ما لبثت أن رمت به الى الارض وقد استحالت لهفتها الى انقباض وقالت :

« ما الذي جئت به ؟ وما هذا الذي بيدك ؟ » . قالت : « ألم تقرئي الكتاب يا سيدتي ؟ » .

قالت : « لم أقرأه . ولا أريد أن أقرأه . لأنه مذيل باسم الذي تكرهه نفسي » .

قالت : « اقرأيه لعل فيه خيرا » . قالت ذلك وتناولت الرق ودفعته اليها ؛ فأخذت أرمانوسة تقرؤه فاذا ترجمته :

« باسم الآب والابن والروح القدس

« من قسطنطين بن الامبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا أرمانوسة الحبيبة

« قد أرسلنا اليك مع عزيزنا يوقنا نسرا رومانيا مرصعا . ووكلت اليه أن يأتي بك الينا وكتبت أيضا الى أبيك عاملنا على الديار المصرية . ونحن في انتظارك بمراكبنا عند بحر دمياط . فأسرعي في المجيء والسلام » .

« قسطنطين »

وما أتمت قراءته حتى صاحت بأعلى صوتها : « لا . لا . لا أريد أن أذهب اليك ولو كنت ابن رب الأرباب » . ورمت الكتاب الى الارض . وعادت الى المقعد .

فوقفت بربارة صامتة لا تدري كيف تسلي سيدتها . وقد ازداد الامر اشكالا ؛ ثم تركتها وذهبت الى الحاكم وقالت له : « قد أطلعت سيدتي على الكتاب ؛ وهي في انتظار الجواب من سيدي المقوقس . لأنها لا تقدر أن تبرح المكان قبل وصول جوابه » .

فقال : « ان رسول سيدي المقوقس عاد الآن يحمل كتابا الى يوقنا وآخر لمولاتنا أرمانوسة ؛ فدفع هذا الي وسار لايصال كتاب يوقنا

اليه » ؛ وقدم لها كتابا كان على مائدة أمامه ؛ -تناولته وفضته فاذا هــو بالقبطية يحرض المقوقس فيه ابنته على التأهب للسير مع يوقنا ، ويعتذر من عدم حضوره بنفسه لاشتغاله في الحصن باعداد الجند لدفع العرب • فتغــير لون وجهها وخرجت ، فخبأت الكتاب في مكان ما ، ولــم تطلــع سيدتها عليه لئلا يزيد يأسهــا ، ولكنها لبثت تنتظر عودة ذلك الرسول من عند يوقنا ؛ لتسأله عما فعله بالعلامة التي أرسلتها الى أركاديوس ، فخرجت الى الحديقة وجعلت تتطــاول الى الطريق لعلهــا تشاهد الرجل قادما فتستطلعه الخبر ، فما لبث ان جاء ، ومعــه رسول آخــر عرفت من لباسه انه بروفس الذي جاء في المــرة الاولى برسالــة من يوقنــا ، فاستعاذت بالله منــه ! •

فلما وصلا الى باب الحديقة استأذنها في الدخــول . فأذنت أولا لرسول أركاديــوس فدخل ، فسألته عــن كتاب أركاديوس فقــال : « وصلت الى الحصن يا سيدتي مساء ، فسألت عن القائد أركاديوس فقيل لي انه ذهب في جماعــة من رجاله الى خــارج الحصن ليقطعوا الجسر المنصوب بين الحصن وجزيرة الروضة ، وهو جسر مصنوع من المراكب يعبرون عليــه من الحصن الى الجزيرة ، ومثله الجسر المــوصل بــين الجزيرة والبــر الغربي » •

فقالت : « ولمــاذا يقطعونهمــا ؟ » •

قال : « أرادوا ذلك عندما جاءهــم الخبر بنزول العرب بالفرمــا وعزمهم على الهجوم على الحصن ، فأمروا بقطع هذين الجسريــن ليمنعوهم عن منف وسائــر البر الغربي » •

قالت : « ومــاذا فعلت عند ذلك ؟ » •

قال : « سرت الى سيدي المقوقس فدفعت اليه كتابه فقرأه ، وكان في شاغل بالاستعداد وتقوية الحصون ، فكتب الي كتــابين ، وأوصاني أن

أوصل أحدهما الى سيدتي والآخر الى يوقنا ، وأمرني بسرعة الرجوع بهما ، فلم أعلم كيف أوصل كتابك الى أركاديوس ، وخفت اذا تأخرت هناك ، وعلم سيدي المقوقس بتأخيري ، أن تنكشف حقيقة أمري ، وربما كان في ذلك ما يغضبك أو يغضب سيدتي أرمانوسة ، فرأيت هناك جنديا كنت أعرفه منذ صباي ، وهو صديق لي ، فدفعت الكتاب اليه وأوصيته أن يدفعه الى القائد أركاديوس حالما يعود من مهمته ، فوعدني أن يقوم بذلك ، وجئت بالرسالتين كما قدمت » .

فقالت وقد ذعرت وكادت تيأس من نجاة سيدتها : « اذن لم تشاهد أركاديوس ؟ » .

قال : « لا يا سيدتي ، وقد بينت لك السبب » . وخاف أن يشتد غضبها عليه فسكت .

فقالت : « ومن هو هذا القادم معك ؟ » .

قال : « هو رسول يوقنا الى سيدتي أرمانوسة ، أرسله يوقنا على أثر تلاوة كتاب سيدي المقوقس » .

فعلمت أنه أرسل يطلب ذهابها اليه وقد وقعت الواقعة وانقطع الرجاء ، فاشتد بها الاسى ، وترقرقت الدموع في عينيها ، ولكنها تجلدت وأرادت تحقق الخبر فقالت : « ادع الرسول الي » . فدعاه ، فلما دخل تحققت انه الرسول الاول بروفس ، فقالت : « ما وراءك ؟ » . فسلم ودفع اليها كتابين ، فتناولتهما فعلمت أن أحدهما من المقوقس الى يوقنا والآخر من يوقنا الى أرمانوسة ، فأخذتهما ودخلت على سيدتها فرأتها لا تزال غارقة في بحار الهواجس ، فلما دخلت بربارة ذعرت والتفتت اليها كأنها تسألها ما خبرها ؟ وكانت بربارة مرتبكة ، والدموع ملء عينيها ، وهي تحاول اخفاء الكتب ، فأدركت أرمانوسة ارتباكها فعاجلتها بالسؤال عما في يدها ، فقالت وقد شرقت بدموعها : « ليس في يدي

شيء يا مـولاتـي » •

قالت « قولي يا بربارة ماذا في يدك ؟ افصحـي • هـل انقطـع الرجاء ؟ » قالت : « لا ، لم ينقطع الامل يـا سيدتي بعـد ، فان اتكالها على الله وحده ، وهو قادر على انقاذنا من مخالب الموت » •

قالـت : « ما هذه الكتب ؟ هل جاء الجواب من أبـي ؟ • قولي •• ولا تظني اني كنت أنتظر فرجا منه » • قالت : « نعم هو جواب والدك » •

قـالت : « وأين كتاب أركاديوس ؟ » • فأطرقت ولم تجب ، فازداد ارتباك أرمـانوسة وعظم قلقها ، وألحت على بربارة قائلـة : « ألم يرسل أركـاديوس كتـابا ؟ » •

قالت : « لا يا سيدتي ، ولكنه سيبعث قريبا » •

فلم تفهم مرادهـا فأمسكتها بيدهـا وقالت : « كيف لم يجـب ؟ هل هجرني وتخلى عني ؟ » •

قالت : « كلا يا سيدتي ، ولكـن الرسول لم يره في الحصـن ، وسلم الكتاب الى صديق له ليسلمه اليه حال رجوعـه » •

فاستلقت أرمانوسة اذ ذاك على المقعد ، وأجهشت بالبكاء ، فخافت بربـارة أن تطلعها على كتاب يوقنا لئلا يزيـد يأسها ، فوقفت ساكتة لا تبدي حراكا ، ولكنها جعلت تفكر في حيلة تخفف بها عـن سيدتها ، فلم تر وسيلة فجثت الى جانب سريرهـا ، وأخذت تقبل يديها وتقول لهـا : « تجلدي يا سيدتي فان الله قادر على أن يأتينا بالفرج القريب » •

ولبثتا برهة في ذلك فاذا بقارع يقـرع الباب ، وقـدم خادم ينادي بربارة من الخارج ، فنهضت ومسحت دموعهـا ، وأبلغها الخـادم ان الحاكـم يطلب مقابلتها ، فذهبت اليه فوقف لها وقال : « قد علمنا أمر مولانا المقوقس بتسليم السيدة أرمانوسة ليوقنا صاحب هذا الجنـد ، وقد بعث الي الآن يستعجلني ، وهو لا يستطيع الا الاذعان لأمر مولانـا

قسطنطين كما تعلمين ، فهل تأهبت السيدة أرمانوسة للذهاب ؟ » .

فقالت بربارة على الفور : « انها سرت بما علمت . ولكنها لا تستطيع الخروج لتعب ألم بها . فاستمهل الرسول الى الغد » .

قال : « حسنا . وقد أمرت الجند بالتأهب للاحتفال اللائق بمقامها . فزينا القصر والطرق قياما بواجب الطاعة لسيدي المقوقس » .

قالت : « بارك الله فيك . ونطلب اليه تعالى أن يعافيها لتستطيع الخروج غدا » .

ثم عادت بربارة وهي لا تدري كيف تبلغ الخبر الى سيدتها . وكانت أرمانوسة كلما سمعت صوتا أو طرقا اضطربت حواسها لشدة تأثرها ، فلما طرق الباب وخرجت بربارة ابتدرتها — حين عادت — بالسؤال عما حدث . فحاولت مغالطتها . ولكنها لم تقتنع بغير الحق ، فلما رأت اصرارها على معرفة الحقيقة قالت لها : « اجلسي يا سيدتي لأطلعك على جلية الخبر . ولكني أرجو منك أن تتمسكي بالحزم . وتتعلقي بأذيال الصبر كما هو دأبك . فان أهل مصر ما برحوا يتحدثون بتعقلك وثباتك ودرايتك . فلا تطلقي لعواطفك العنان لئلا تزيدي الخرق اتساعا . فنكون في شر فنقع في أعظم منه » .

فقالت أرمانوسة : « لا تذكري التعقل والحزم . فان عواطفي غلبت على كل تعقل وحزم . ولا أراني قادرة على ضبطها . ولكن أكملي ، ماذا تريدين مني ؟ » .

قالت : « أريد منك أن تتجملي بالحزم وتتمسكي بالصبر وتصغي لما أقول » .

قالت : « قولي » .

قالت : « اعلمي يا مولاتي ان سيدي والدك قد أمر بأن تذهبي مع يوقنا . وهذا أرسل رسوله الى الحاكم ، فأعد معدات الاحتفال بخروجك

اليه اليــوم ؛ ولكنني أمهلته الى الغد بدعوى توعك صحتك • وسيدي أركاديوس لا بد أن يكون قد بلغه كتابي ؛ واذا لم يصل اليه فسيسمع خبر يوقنا من أبيــك أو أحد أتباعه أو من سيدي أرسطوليس لأنه صديق له ، ولا شك أنه حالمـا يسمع الخبر يأتينا على جناح السرعة ، وهو كفيل بانقاذك ، والامر عند ذلــك في يده ، فاذا لم يستطع انقــاذك فالامير قسطنطين أبقى لــك » •

فلما سمعت أرمانوسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها وقالت لها :

« لا • لا تذكري اسمه • ان النار أحسن عندي من جواره » •

قالت : « لا أقول لك أن تؤثريه على البطل أركاديوس ؛ ولكنني أريد أن تمسكي الحبل من الطرفين ، وأخشى أنك اذا صرحت بعدم رضائك بقسطنطين ، وأمسكت عن العمل برأيه ، أن يغضب عليك ، وربما أخذك بالعنف ، وقد يتفق أن لا يأتينا أركاديوس على عجل ، أو يأتي ولا يستطيع الدفــاع عنك ، فمــاذا تكون النتيجة ؟ أما اذا أظهرت القبول وسرت الى معسكر يوقنا فاننا نطاوله ونطلب اليه الانتظــار هنا مدة ، ونبعث رسولا مستعجلا الى سيدي أركاديوس بصريح الخبر ، فلا يمضي يومان أو ثلاثة حتى يأتي لانقاذك • هــذا ما أراه والامر لسيدتي » •

فبهتت أرمانوسة وأخذت تفكر فيما سمعته من بربــارة ، فاذا هو عين الصواب ، ولكن العواطف كانت تسيطر عليها فلم تجب !

فقالت بربارة : « ما بال سيدتي لا تجيبني ؟ » •

قالت : « انظري يا بربارة ، اني أثق بدرايتك واخلاصك وثوقا تاما ، وهذا أمر لا تجهلينه ، ولكنني غير قادرة على العمل بذلك • وهل تحسبينني اذا عجز أركاديوس عن انقاذي أرضى بقسطنطين ؟ اني وحب أركاديوس وما له من المنزلة في هذا القلب اذا تحققت وقوعي بيد قسطنطين ، وقنطت من أركاديوس فلا شيء يشفي غليلي الا الطعن بهذا الخنجر ! » • قالت

ذلك واستلت خنجرا مرصعا كـــانت قد خبأته بين أثوابهـــا • فذعرت بربارة عنـــد رؤيتها الخنجر وقالت : « ما هذا يـــا مولاتي •• أتقولـــين الصدق ؟ » •

قالت : « هذا هو الصدق بعينه يا بربارة ، ولكني أعدك اني لا أقدم عليه الا اذا تحققت وقوع القدر : وأظنك عند ذلك تكونين أكبر مساعد على قتلي لأن فيه خلاصي من عذاب دائم » •

فحاولت بربارة أن تأخذ الخنجر منها فلم تستطع ، غير ان أرمانوسة أعطتها عهدا ألا تعمد الى الاضرار بنفسها الا بعد فشل كل حيلة ، فوافقتها بربارة على نية أن تسرق الخنجر منها في فرصة مناسبة •

* * *

عرفنا أن البطريق يوقنا كـــان حاكما على حلب من قبل هرقـــل امبراطور الرومانيين ، فلمـــا فتح المسلمون الشام تظـــاهر بالاسلام وسمى نفسه عبد الله وقام لنصرتهم ، وهم بين مؤمن باخلاصه وبين مرتاب فيه • فلما عزم عمرو ابن العاص على فتح مصر سار في ركـــابه متظـــاهرا بنصرته ، وكان عالمـــا بخطبة قسطنطين لأرمانوسة ، فحدثته نفسه أن تكون أرمانوسة عند فتح مصر غنيمة له ، وكـــان قد سمع بجمالها ، وأسرها في نفسه حتى أتى الفرمـــا ، وهو واثق ان عمروا فاتح البلاد لا محالة ، ولا بد من وقوع أرمانوسة في الغنائم ، ولكنه خاف أن يسبقه اليها أحد فعمد الى الحيلة ، فزور كتابا على لسان قسطنطين يطلبها كما قدمنا • ثم جـــاء بنفسه الى بلبيس ، وترك جند عمرو مشتغلا بحرب الفرما ، معتقدا أنه يتمكن بحيلته هذه من الذهاب بأرمانوسة بعد القبض عليها ، قبل وصول عمرو الى بلبيس ، وكـــان يظن أن عمروا سيمكث في الفرما زمنا طويلا ، فلمـــا جاءه كتاب المقوقس يوافقه على حمل أرمانوسة ، بعث برسول يطلب

مجيئها اليه ؛ وبعث الى حاكم المدينة ليسرع في ذلك ، فأجابه أن السيدة أرمانوسة مريضة ، فعزم على أن ينتظر شفاءها ، ولكنه علم تلك الليلة أن عمروا قد فتح الفرما . ولا يلبث أن يأتي بلبيس فخاف اذا أبطأ هو في أخذ أرمانوسة أن تذهب حيلته ضياعا ، فأرسل في صباح الغد كتابا الى الحاكم شديد اللهجة يطلب منه سرعة الخروج بأرمانوسة في ذلك اليوم . وأنه اذا أبطأ في اجابة طلبه عمد الى القوة •

فبعث الحاكم الى أرمانوسة وأطلعها على طلب يوقنا ، فاتفق رأي بربارة وأرمانوسة على أن تخرجا الى معسكر يوقنا . وأن تستمهلاه بضعة أيام قبل السفر ؛ ولم تعلما بما عزم عليه من الاسراع ؛ فأقيم الاحتفال ، وخرج الحاكم بأرمانوسة من قصره بالشموع والصلبان ، واصطفت الجنود على الطرق ، وصدحت الموسيقى ، ورتل المرتلون ، وأخرجوها كما يخرجون العروس في موكب العرس ، فسارت أرمانوسة تجر ذيل ثوبها ، وبربارة الى جانبها ، والقسيسون أمامها بالملابس الرسمية والمباخر والصلبان ، حتى خرجوا من المدينة ، فاذا بيوقنا قد خرج من معسكره برجاله محتفيا بها ، حتى اقترب منها فأخذ بيدها وأدخلها خيمة خاصة بها ؛ فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف ، فتركوها في الخيمة مع جواريها وبربارة ، وتركها الحاكم بعد أن ودعها وعاد برجاله • ومكثت هي في الخيمة ؛ وانفردت ببربارة وقد اسودت الدنيا في عينيها ، وعظم الأمر عليها ؛ وخيل اليها أنها أصبحت في القفص ، ولم يعد لها مفر منه • وكانت بربارة تعزيها بأنها أرسلت رسولا مستعجلا الى أركاديوس ، سيصل بعد يومين • ثم لم تمض برهة حتى سمعت ضوضاء فخرجت فرأت يوقنا قادما بنفسه ، وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته • وطلب مقابلة أرمانوسة فأذنت له ، فدخل ، فحالما رأته تشاءمت من منظره ، ولا سيما لأنه رسول قسطنطين ، لكنها تجلدت

وتظاهرت بالضعف والتعب ، وكانت مستلقية فجلست . فجلس بين يديها يتلطف ويواسي وقال : « بماذا تشعر سيدتي ؟ أرجو أن تكون في خير ! » . قالت : « لا أزال أشعر بالضعف » .

قال : « وقاك الله من كل شر يا سيدتي ، ها أنذا أحمل سلاما اليك واكراما من مولانا ابن الامبراطور » . فلم تجبه ، فحمل ذلك منها محمل الحياء ، وهو لا يعلم ما تضمره وقال لها : « أرجو أن تتحسن صحتك قريبا باذن الله ، لا سيما عندما تخرجين من هذه المدينة » .

قالت : « ولكنني لا أستطيع الركوب والسفر قبل بضعة أيام » .

فقال : « أرى الاسراع في المسير أولى ، لأن سيدي ابن الامبراطور ينتظر قدومك بفروغ صبر على سفنه ، وقد أعد لك كل ما تقر به عيناك » .

فأمسكت عن الجواب ، وهي لا تدري بماذا تجيب ، فلاحظت بربارة التغير في وجهها فابتدرته بالجواب قائلة : « ألا ترى أن سيدتي خائرة القوى لا تستطيع الركوب ؟ » .

قال : « نعم ، أرى ذلك ، ولكنها ستحمل في الهودج على أكتاف الرجال ، فلا تشعر بشيء من التعب » . قالت : « ألا تظن أن حر الطريق يضر بصحتها ؟ » .

فقال : « وهل تظنين اننا فاتنا تدارك ذلك ؟ . لقد أعددنا للسيدة أرمانوسة هودجا تظلله المظلات من ريش النعام على أفخر زينة . تعالي أنظريه » .

ثم نهض وخرج بها من الخيمة ، فرأت الهودج يحمله الرجال ، والجند آخذين في تقويض الخيام والتأهب للرحيل ، فتحققت حبوط مسعاها ، وضياع أملها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها أمسكت نفسها خيفة أن يظهر ذلك عليها ، وعادت الى الخيمة مع يوقنا صامتة ،

فاتم هو حديثه قائلا : « أن وصيفتك قد شاهدت الهودج بنفسها معدا لحملك ، فـاذا أذنت مولاتي فلنتأهب للسفر أصيل هذا اليوم » .

فلمـا سمعت أرمانوسة ذلـك رجفت وقالت : « لا أستطيع السفر في هـذا اليوم » .

قال : « قلت لك أن كل شيء معدا لسفرك المريح ، وقد أمر مولانا قسطنطين أن أسرع بك اليه ، ولا أستطيع مخالفته » .

فقالت : « لا أستطيع السفر وأنـا مريضة ، فأمهلني يوما أو يومين ، وأجرك على الله » . قال : « لا أستطيع الانتظـار ساعة واحدة ، ولا فائدة من الاخذ والرد في هذا الشأن » .

فتحققت أرمانوسة أن الساعة قد أتت وآن وقت الانتحار ، وحالما صممت عليه شعرت بأنها يجب أن تبذل كل ما في وسعها قبل الشروع فيه ، فتجلدت وقالت : « لا أرى موجبا لهذا الاصرار ، وأنا بين يديك مريضة كما ترى ، أيحل لك أن تعجل علي ؟ » .

فحملق يوقنا وقال : « قلت لك لا فائدة من الكلام وها أنذا ذاهب تأهبا ، وسأعـود اليك بعد قليل لنحملك ، والسلام » .

قال ذلك وخرج وتركهما في الخيمة منفردتين ، فالتفتت أرمانوسـة وقـالت : « ما رأيك الآن يا بربارة ؟ ألم يحن وقت الانتحار ؟ » . قالت ذلك ومدت يدها الى خنجرها ، ولم تكن بربارة قد سرقته بعد ، فارتمت عليها وأمسكت يدها قائلة : « لا أصدق يا مولاتي أن يدك اللطيفة تستطيع الاقدام على القتل . ألا تعلمين انك بهذا ترتكبين جريمة ؟ » .

فقالت : « ان موتي وهلاكي في أسفل الدركات خير لـي مـن أن أستبدل رجلا آخـر بأركاديوس حبيبي » . قالت ذلك وخنقتها العبرات ثـم أغمي عليها . فأسرعت بربارة الى الخنجر فأخفتـه ، وخرجت لتنادي بعض الجواري ليساعدنها برش الماء ، فأسرع يوقنا الى الخيمة ليرى ماذا

حدث ، فجاءوها بالماء ورشوها ؛ فأفاقت ورأت يوقنا أمامها وقد تـأثر لما شاهده من جمالها وقد ذبلت عيناها وتكسرت أهدابها من كثرة البكـاء ، ولكنه ما زال يهددها ، مصرا على الذهاب بها في ذلك اليوم ٠

* * *

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فرجت وكنت أظنهـا لا تفرج

وبينما هم في ذلك اذ دخـل عليهم أحد رجال يوقنا يستأذنه بدخول رسول من الامير عمرو بن العاص ، فبغت يوقنا وبهت ، ولكنه أذن لـه بالدخـول ، فدخل فاذا هو بلباس السفر ، وقد علاه الغبـار ، وعلـى رأسه العقال ، فحيى يوقنا ودفع اليه كتابا ففضه وقرأه ، وأرمانوسة وبربارة تنظران الى الرسول وتتأملانـه وترجوان خيرا من قدومـه ، فنظر هو اليهما وحياهما ، وهم بيد أرمانوسة كأنه يحاول تقبيلها ، وسلم علـى بربارة ، فتفرست فيه فاذا هو مرقس ، فأشارت الى سيدتها ، وهمست في أذنها أنه مرقس رسولها ؛ فالتفتت اليه أرمانوسة فآنست في وجهه أمارات البشر ، ونظرتا الى يوقنا وهو يقرأ الكتاب فرأتا لونـه يتغير ، والـرق يرتجف بيده من شدة التأثـر ، وما أتم قراءته حتى ظهر عليه الارتباك ٠ ووقف برهة صامتا ينظر الـى الكتاب كأنه يقرؤه ، ولكنه كان غـارقا في بحار الهواجس ٠

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس : « كيف فارقت الامـير ؟ » ٠ قال : «فارقته وقد ترك الفرما قادما الى بلبيس » ٠ فأسرع يوقنـا في الخـروج ولم يلتفت الى أرمانوسة ولا الى غيرها ٠

أما أرمانوسة فانها توسمت في مجيء مرقس خـيرا وقالت : « بـم جئت يا مرقس ؟ وما الذي أوجب غيابك ؟ » ٠ فتقدم وقبـل الارض بـين يديها قائلا : « لقد جئت بالفرج يـا مولاتي ٠ وأما تأخري فقد كان بقضاء

منه تعـالى » . ثم أراد أن يقص حكايته فخاف أن يسمعه يوقنا ، فكلمها بالقبطية قائـلا : « علمت بخيانة هـذا الرجل ، وانه قادم بدسيسة متظاهرا بأنه رسول قسطنطـين وما هو بمرسل منه ، ولكنه غادر خائن يسعى لخير نفسه ، أما الكتاب الذي جئت به الآن فهو من عمرو بن العاص أمير العرب القادمين لفتح هذه البلاد ، يهدده فيه ويأمره ألا يتعرض لك بسوء » .

فرفعت بربارة يديها الى السماء قائلة : « نحمـد الله على ما أتـانا من الخير على يدك يا مرقس . انك أهل لأعظـم مكافأة على هذه الخدمة ، والمستقبـل بيننـا » .

أما أرمانوسة فلم تعلم كيف تشكره ، على أن علـو مكانتها أمسكها عـن كثرة الاطناب فيه ، ولكن ظواهر الشكر كانت تتجلى على وجهها .

فقالت بربارة : « أخاف أن يحملـه غيظه على الاسراع في أذيتنـا انتقاما منـا » . قـال : « لا أظنه يجسر على الاتيان بحركة بعد هـذا الكتاب ، فانه يهدده تهديدا شديدا اذا مسكـا بسوء ، ولا أظنـه الا مبادرا الى الفرار حالا ، وها أنذا ذاهب لاستطلاع الخبر ، لتكونـا في اطمئنان وراحـة ، والاتكال على الله » . قال ذلك وخرج ، فتقدمت بربارة الى سيدتها وقبلتها قائلة : « الحمـد لله يا سيدتي ، ان بـاب الفـرج قـد فتـح » .

فقالت أرمانوسة : « لا أزال خائفـة يا بربارة ، وما أدرانا أن العرب يحسنون معاملتنا ، فقد نكون تخلصنا من شر لنقع في شر أعظم » .

قالت : « ثقي بالعرب ، لأنهـم اذا أمنوك فأنت في أمـان . مع مـا نعلمه من مخابرة سيدي والدك لهم . وعلى كل حـال فان الامر لله ، فخففي الآن ما بك واتكلي عليه » .

أما مرقس فخرج من الخيمة فرأى يوقنا ورجـاله يحملون أحمالهم ، وقـد ركب يوقنا جواده وكان رجاله راكبين مستعدين للرحيـل قبـل

مجيء مرقس كما قدمنا . فعاد بلهفة ينبيء أرمانوسة بفرار يوقنا ، برجاله ، وهم جماعة كبيرة فقالت : « الى جهنم » .

ثم خرجت بربارة فرأت المكان قفرا ، وليس حولهم الا بعض الاحمال التي تركوها سهوا للهفتهم واستعجالهم ، وقد أمعنوا في الهرب حتى كادوا يتوارون عن النظر ، فنادت بربارة سيدتها فخرجت وهي لا تصدق أنهم فروا ، فرأت المكان خاليا الا من خيمتها وخيمة جواريها .

فقالت : « يا مرقس أرى رجلا بلباس عربي على تلك الأكمة فمن هو ؟ » . قال : « هو يا سيدتي رسول من الامير عمرو الى سيدي أبيك ، وسأحكي لك حكايته بعد أن يهدأ روعك » .

فأنفذته الى حاكم بلبيس ليبعث من يحملها الى منزلها ، فأسرع الحاكم وجاء بجماعة من رجاله حملوا السيدة أرمانوسة وحاشيتها الى قصرها وهم يعجبون لما تم ، فقصت بربارة على الحاكم خيانة يوقنا ، فحمد الله على نجاة أرمانوسة من الشرك .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، وأراد مرقس الذهاب الى القرية لتفقد خطيبته ، فقالت له بربارة : « ثق يا مرقس أن سيدتي كثيرة الثناء على غيرتك . أتقص علينا قصتك أم تذهب لمشاهدة خطيبتك ؟ » . قال : « لك الامر ولكني أحكي الحكاية باختصار » . وأخذ يسردها عليهما كما وقعت حتى وصل الى سقوطه عن الجمل وكيف حمله ذلك العربي الطويل الاسود الى المعسكر وضمد جراحه ، وانه انتظر أول فرصة قابل فيها عمروا وأطلعه على حكاية يوقنا ، فأعطاه ذلك الكتاب يهدده فيه ويأمره بألا يمس أرمانوسة الى أن قال : « والعربي الذي شاهدتماه معي انما هو زياد خادم يحيي النحوي » . وحكى لهما حكايته ، وانه يحمل كتابا سريا الى المقوقس وفيه الأمان للقبط كافة . وبينما هم في هذه الاحاديث ، وقد خيم الغسق ، اذا بخادم

يقــول : « بالباب رجــل يستجير » . قالت : « دعــوه يدخل » . واذا هــو كهل ينوح ويندب ويقــول : « قد أخذوهــا يا سيدتي ، قد ظلمونا يا مــولاتي » . فعرف مرقس أن الباكي عمــه المعلم اسطفانوس . فهب من مجلســه وناداه : « ما الخبر يا عمــاه ؟ » .

فذعر الرجــل وقال : « أأنت هنــا يا مرقس وقد أخذوا مــارية منك ؟ آه يــا ولــداه ! » .

فصــاح مرقس : « ومــن أخذها يا عمــاه ؟ أخبرني » .

قال : « أخذها ذلك الخائــن الذي كان قد سعى في قتلها والقائهــا في النيل ، فانه لما رأى الجند قد حملوا على بلبيس ، والحال حال حرب ، جاءنــا في هذا الصباح ببعض رجــال أبيه وأوسعونــا ضربــا ولكمــا وحملوا ماريــة وفروا بهــا » .

فاشتد غضب مرقس واسودت الدنيا في عينيه فحملق وقال : « الــى أين أخذوهــا ؟ » . وهــم بالوقوف ، وقبض على حسامه . فقال : « قد مضوا بها الى حيث لا أعلم ، ولكنهــم ساروا غربا ، وربما قصدوا جهة عــين شمس » ..

فأراد الخروج وهو في أشد حالات الارتباك ، فأمسكته بربارة قائلــة : « تمهل يا مرقس ، فانك ربما سرت الى جهة غــير التي ساروا فيها » .

ثم بعثت الى الحاكــم فحضر فقالت لــه : « ان سيدتي أرمــانوسة توصيك بمساعدة هذا الشاب ، فان ابن حاكم القرية قد اختطف خطيبته وفــر بها ، فابعث شرذمة من رجالك بثهــا في الطريق التي قد يسير فيها ذلــك الغادر ، وليبحثوا عنه ويأتوا به وبالفتاة حيثما وجدوهمــا » . فبعث الحاكــم رجاله فرسانا ومشاة في كل الجهات . أما مرقس فانه أخذ شرذمــة من الرجــال وخرج بهم ، فلقيه زياد فسأله الخبر فأطلعه عليــه فقال : « أنــا أسير معك يا صديقي ، ولا تخف فسآتيك بمارية في خير » .

فتفرقت السرايا على هذه الحال ، وبقيت أرمانوسة وبربارة تنتظران النتيجة بفارغ الصبر ، وقد شغلهما أمر مرقس كثيرا ، لأن ذهاب خطيبته كان — الى حد ما — بسببها .

- ٩ -

أركاديوس يبحث عن ارمانوسة

فلندعهم يفتشون عن مارية ، ولنرجع الى أركاديوس ، فقد فارقناه في الحصن بعد مسير بربارة وهو على موعد معها لتطلعه على ما يحدث لأرمانوسة ، فقضى بضعة أيام على مثل الجمر الى أن استبطأ عودتها فقلق ، وخاف أن يكون في الامر خديعة ، وندم على اعطائه خاتمه لامرأة لم يرها الا مرة ، ففكر في ذلك طويلا فلم يهتد الى حل ، وأراد أن يرسل رسولا الى بلبيس يستطلع الحقيقة فخاف انكشاف السر ، فجلس ذات ليلة الى النافذة التي خاطب بربارة الى جانبها فتذكر ما مر به ، وتقاذفته الهواجس ، ثم دخل عليه جندي وقال : « ان سيدي الاعيرج يدعوك اليه حالا » . فأسرع اليه فاذا هو يتمشى في أرض الغرفة ذهابا وايابا وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما . فلما دخل أركاديوس سلم عليه وسأله عن أمره فقال : « خذ يا أركاديوس هذا الكتاب واقرأه » . فتناوله فاذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه توقيع البطريرك بنيامين . فقال : « وما هذا يا سيدي ؟ » . قال : « أنا لا أحسن قراءة القبطية ، لكني فهمت من هذا الكتاب انه مرسل من البطريرك عدو الرومان ، وقد فسره لي حالا » .

فقرأه أركاديوس فاذا هو حقا كما قال أبوه ، وكان هو الكتاب

الذي أرسله جرجس من بلبيس ليعطيه للمقوقس ، فعلم أركـاديوس أن أباه اذا عرف ما فيه قبض على المقوقس للتو والساعـة ، وتعاظـم الشر بينهمـا ، فيكون ذلك سببا ليأسه من نيل أرمـانوسة ، فحرف الترجمة وقـال : « ان فيه تحريضا للمقوقس على الروم ؛ وربما كان ذلك على غير رضى المقوقس أو علمـه ، لأن الكتاب مرسل من بنيامـين كما ترى » •

فأدرك الاعيرج ان أركاديوس يريد اخفـاء شيء من الحقيقة فقـال : « أراك تمالىء الاقبـاط على أمرهم يا أركاديوس وتتجاهـل الحقيقة ، وما أدراك أن ذلك بغـير رضى المقوقس ، وقـد ثبت لنـا أن هـؤلاء القبط لا يحبوننا ؟ » •

فقال أركاديوس : « وما الداعي لانحيـازي اليهم وأنا أول نصير للروم كما تعلم ، ولا أحب أحـدا غـير الرومان ؟ » •

قال : « لا أنكر صدق انتصارك للروم ، ولكنني شممت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط ، ونفسي تحدثني بأن أبعث الى المقوقس ، وهـو الآن في الحصن ، فأقبض عليه واجعله في القيود » •

فحار أركاديوس في أمره ، وخاف تفاقم الخطب وذهاب آماله أدراج الرياح فقال : « تمهل يا أبي ، اني أعهد فيك التروي والحزم • ألا تعلم أن ظهورنا بعداوة القبط يضر بنا لأنهم يرون في ذلك بابا للخروج عن طاعتنا ، والعدو على الأبواب ، فيكونون عونا لهم علينا ، فأرى من الحزم أن تتغافل عن أعمالهم ، ونظهر لهم الاخلاص الى أن نرى ما يكون من حربنـا مع العـرب » •

فتبصر الاعيرج برهة ثم قال : « صدقت يا بني ، وقد عزمت عـلى العمل بما رأيت فأبق هذا الأمر سرا ، أما المقوقس فأقسم بشرف الروم وكرسي القسطنطينية لأنتقمن منه •• فقد نسي هذا الخـائن أصله وخان دولته • وتحدثني نفسي أن أكتب الى الامبراطور ليعلم خيانته فلا يصاهره •

ولكن صبرا ، فان لحمه ولحم ابنته وسائر أهل بيته سيكون طعاما للسمك ، فان غدره سينكشف قريبا ، وعلى الباغي تدور الدوائر » •

قال ذلك وأخذ ينزع ثيابه للرقاد ، فودعه أركاديوس وخرج ، وقد ازداد بلباله وعظم عليه غضب أبيه مما زاد العراقيل في سبيل حصوله على أرمانوسة • ولما سمع والده يهدد المقوقس ويذكر ابنته تقطع قلبه حزنا عليها ، ولكنه كظم الغيظ ليتدبر الأمر بالحيلة • فقام الى غرفته ، وهو لا يكاد يرى طريقه لشدة التأثر ، وبات ليله لا يستطيع رقادا فأخذ يفكر في أمر أرمانوسة وقسطنطين وأبيه ، وقد علم أنها اذا نجت من مخالب قسطنطين فلا يأذن له والده بالاقتران بها •

وفي صباح اليوم التالي جاءتهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب بالفرما فبعث الاعيرج ابنه أركاديوس يتولى النظر في قطع الجسرين الموصلين بين الحصن والجزيرة أي بينهم وبين البر الغربي كما قدمنا ، فلما عاد من مهمته أخذ كتاب أرمانوسة وأخذ في تلاوته ، ففهم أنها في ضيق وتستنجد به ، ولكنه لم يفهم سبب ذلك الضيق !

فخطر له أن يستطلع ذلك بالحيلة من صديقه أرسطوليس ، فذهب اليه في المكان الذي اعتاد أن يكون فيه فلم يجده ، فسأل عنه فقيل له أنه ذهب الى أبيه بالأمس ولا يزال عنده في بعض جهات الحصن ، والحصن بقرية كبيرة • فأخذ يسأل الخدم عنه حتى رآه قادما فاستقبله مسلما ، وقال له : « لقد أطلت الغيبة علي يا أرسطوليس ، وقد عودتني أن نلتقي كل يوم » •

قال : « كنت في شاغل مع سيدي الوالد بشأن أرمانوسة في هذين اليومين » •

فلما سمع اسم أرمانوسة كاد يتجلى الاحمرار في وجهه فاعتراه الارتباك والتعجب لسبب الاشتغال بها ، فقال : « وما هو ذلك

الاشتغال ؟ لعله خير ؟! » •

قال : « هو خير ان شاء الله ، فـان مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وفدا ليحمل أرمانوسة اليه ، وسيكون في انتظـارها عند بحر الروم ليسير بها الى القسطنطينية » •

فخفق قلب أركاديوس خوفا على أرمانوسة أن يفقدها ، ولكنـه تجلد وقال : « ثم ماذا حدث ؟ » •

قال : « جاء لوالدي كتاب من قسطنطين في ذلـك ، فبعث الى حاكم بلبيس أن يسلمها الى الوفد ، وكـان بودنا أن يذهب أحدنا ليشيعها ، ولكن اشتغالنا بالتأهب للحرب حال بيننا وبين ذلك » •

فلمـا سمع أركـاديوس الخبر لم يعد يتمالك نفسه من الاضطراب والتأثر ، وتعاظم الأمر عليه - وتحقق أن أرمانوسة قد استنجدته ؛ فكيف لا يذهب لنجدتها ، فتظـاهر بأنه تذكر أمرا يستدعي سرعة ذهـابه الى غرفته ، فودع أرسطوليس وخرج وهو يفكر في أمره وأمر أبيه ، فوصل الى غرفته وقـد شعر كأنمـا صب على جسمه مـاء حار تـارة وبارد تارة أخرى ، ووقف في الغرفة صامتا تتقاذفه هذه العوامل • ثـم هب بغتة الى خوذته فلبسها وتقلـد حسامه وهم بالخروج من الغرفة يريد الركوب الى بلبيـس ، فرأى في عمله هذا خطرا ظاهرا ، فأمسك وعاد الى الغرفة ووقف الى النافذة وغرق في بحـار الهواجس لا يدري أيطيع عواطفه أم عقله • وبقي كذلـك الى المساء وقد نسي نفسه ، فدخل عليه أحد الجند قائلا : ان رسولا بالباب ، قـال : « فليدخل » • ولمـا رآه علم أنه قـادم من بلبيـس ، لمـا شاهد من أثر الغبار على وجهه وعلم أنه جاهد في سوق دابته في أثناء الطريق ، وناوله الرسول كتابا فـاذا هو من أرمـانوسة تقول فيه :

« اذا كنت تحب أرمانوسة فأسرع الى بلبيس لانقاذها ؛ لأنهـا

اصبحت بين مخالب الموت » .

فلما قرأ الكتاب اتقدت نيران الغيرة والنخوة في عروقه ، فنسي اباه وكل دولة الروم ، وأسرع الى جواده فركبه وخرج من باب الحصن لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وأطلق لجواده العنان ، وكان من خير خيل العرب العتاق حمله اليه صديق له من ضباط الروم في الشام .

وكان الليل حالكا والطريق وعرا ، ولكنه لم يبال شيئا ، فمضى هزيع من الليل وهو على جواده ، والجو هادىء وقد ساد الظلام والسكون ولم يكن يسمع الا صوت وقع أقدام الجواد خفيفا لنعومة تربة مصر وقلة الحصباء فيها . وبعد منتصف الليل بقليل تعب الجواد فجعل سيره خفيفا ، وأخذ يلتفت الى ما حوله فلم يشاهد الا أشباح الأشجار القريبة تمر كأنها أصنام سابحة في الماء !

وفيما هو سائر تتقاذفه الهواجس سمع صوتا خفيفا عرف من رنته أنه صوت امرأة تستجير ، ثم انقطع الصوت بغتة ، وكان لشدة هواجسه في أرمانوسة وما عرفه من الضيق المحيق بها كأنه في حلم يسمع صوتها تستجير ، فلما سمع ذلك الصوت خيل اليه أنها في يد العدو وتستجير به ، فوقف وأصاخ بسمعه جهة الصوت فلم يسمع شيئا ، فظن ما سمعه وهما ، فهم بالسير فسمع الصوت ثانية وقد اقترب ، واذا بالمستجير يتكلم بالقبطية ويقول : « اشفقوا على صباي . خافوا من الله اذا كنتم لا تخافون المقوقس » . فخيل اليه أن أرمانوسة بين أيدي أناس يريدون بها شرا ، فهبت الحماسة فيه ونسي نفسه ، ولكز جواده ، فسار به الى جهة الصوت ، وكان قد سمعه بعيدا ، وبينه وبين الصوت غابة من شجر الجميز ، فسار بجواده بين الأشجار يحملق ويتطاول بعنقه لشدة الظلام لعله يلمح أشباحا أو يرى أحدا ، وكانت قرقعة درعه

وسيفه أعلى صوتا من وقع أقدام جواده ؛ حتى اذا اقترب من جهة الصوت سمع قائلا يقول : « أستنجدك يا قادم واستحلفك بالله وبالشرف أن تنقذني من هؤلاء اللصوص » .

فأرسل نظره الى مخرج ذلك الصوت . فرأى ثلاثة أشباح وقوفا تحت شجرة ؛ ولكنه لم يميز أحدا منهم لشدة الظلام ؛ فأغار بجواده وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف : « أين هم اللصوص ؟ اتركوا الفتاة والا أذقتكم المنون بحد هذا السيف » . وجرد حسامه ؛ وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعا . فركنوا الى الفرار فتبعهم ؛ فسار كل منهم في ناحية واختفوا بين الأشجار . فخاف أن يبعد عن مخرج الصوت فيخطيء مكان الفتاة ؛ فعاد الى الشجرة التي شاهد الأشباح تحتها ، فرأى شبحا يتلوى عند أقدام جواده وهو يقول : « حماك الله يا فارس وأنقذك من غوائل الزمان ، فقد أنقذتني من مخالب الموت والعار » . فترجل أركاديوس وأمسك المتكلمة وهو في شك من أن تكون أرمانوسة . فاذا بالصوت غير صوتها ؛ لكنه كان مختنقا من شدة البكاء ، فأمسك بيد الفتاة وخاطبها باللغة القبطية قائلا : « لا تخافي يا فتاة . انك في مأمن من شر أولاد الحرام » .

وأحس أركاديوس عندما قبض على يدها أنها باردة كالثلج ؛ وهي ترتجف وترتعد ؛ فقال لها : « لا تخافي يا فتاة ، قولي لي من أنت ؟ » .

قالت : « اني فتاة مسكينة ؛ قد اختطفني بعض أولاد الحرام يريدون بي سوءا ، فجزاك الله خيرا على انقاذي . ولكن احذر أن يغدروا بك وأنت واقف هنا . فأنهم لا يخافون الله ؛ وكأني أرى واحدا منهم وراء تلك الشجرة » .

وما أتمت كلامها حتى شعر أركاديوس بنبلة مرت بفخذه ، ولكنها لم تصبه فتحول عن الفتاة وأسرع الى الجهة التي جاءت منها النبلة وصاح :

« ويلك يا خائن ! اني والله قاتلك لا محالة ، ولا أبالي اذا كنتم مئات أو ألوفا » • وكان الحسام لا يزال مجردا ، فوثب كأنه الليث الكاسر ، وخاف الرجل ، فأراد الفرار فأدركه بضربة جندلته وقد صاح قائلا : « آه قتلتني ! » • فاذا هو يتكلم الرومانية ، فأجابه باللغة الرومانية قائلا : « أمن جماعة الروم هذه الخيانة ؟ تبا لكم ! » • والتفت الى ما حوله فلم ير أحدا ، فتحقق ان القوم فروا ، فعاد الى الفتاة فاذا بها قد خارت قواها ووقعت على الأرض من شدة الخوف وهي تقول : « قتل الخائن فالحمد لله » • فأمسكها أركاديوس وأجلسها ، وهو يود أن يعرف من هي ، ثم تذكر حبيبته وتصور أنها في مثل هذا الضيق ، فاقشعر جسمه وقال للفتاة : « أين بلدك ؟ » • قالت : « بالقرب من بلبيس يا سيدي » •

قال : « هل تعرفين هذا الخائن الذي يتخبط في دمه ؟ » • قالت : « نعم يا سيدي ، هو ابن حاكم القرية » •

قال : « وما الذي يريده منك ؟ » • قالت : « يريد اختطافي من حجر والدي ، وقد قضى زمنا طويلا يترقب الفرص للايقاع بي ، حتى تسكن والده الحاكم أن يجعلني ضحية النيل ، فأنقذني الله على يد سيدتي أرمانوسة بنت المقوقس ، وهي ببلبيس ، فلما سمع بذهابها الى خطيبها قسطنطين صباح أمس ، انتهز الفرصة ، وجاء في زمرة من رجاله ، واختطفني قهرا بعد أن أوسع بي ضربا ، وفر بي الى هذه البساتين ، وقد كاد يفتك بي ، لو لم تأت أنت لانقاذي » •

فلما سمع اسم أرمانوسة خفق قلبه ، وازداد الخفقان لما سمع أنها سارت الى قسطنطين ، وأراد تحقق الخبر فقال : « وهل سارت أرمانوسة الى خطيبها ؟ وكيف سارت ؟ » •

قالت : « علمنا ونحن في قريتنا ، أن سرية من الجند الروماني جاءت من أنحاء الشام بأمر من الامبراطور ليحملوها اليه ، وسمعنا أنها خرجت

من المدينة وسارت برفقتهم » .

قال : « هل رأيتها أنت سائرة معهم ؟ » .

قالت : « لم أرها يا سيدي : لأنني لم أكد أسمع بخروجها للسير حتى جاءني هؤلاء الخائنون ، ولم أعد أعي شيئا : ولكنني بينما كنت معهم : وهم يعذبونني . وقد حملني بعضهم على جواده ، رأيت خيل الروم تسير شرقا . وأظن سيدتي أرمانوسة معهم » .

فلما سمع ذلك نفذ صبره فقال للفتاة : « وأين الخيل التي جئتم عليها ؟ » . قالت : « لا أدري أين تركوها ؟ لأني لم أكن أعي ماذا يفعلون لعظم اضطرابي » .

قال : « وهل نحن بعيدون عن بلبيس ؟ » . قالت : « لا أظننا بعيدين » .

ففكر في خير الطرق للاسراع الى بلبيس ، وماذا يعمل بالفتاة ليأخذها معه ، وليس عنده الا جواده ، وخاف ان هو تردد في الامر أن تذهب أرمانوسة منه فقال : « اني أخشى عليك أن لا تحسني الركوب ، فهل تركبين خلفي ؟ » . قالت : « افعل ما بدا لك ، فاني حية بفضلك » .

فركب وأردفها ، فتمسكت بأطراف ثوبه : وساق جواده قاصدا بلبيس ، وهو يكاد لا يرى الطريق لعظم غيظه .

وفيما هو سائر شاهد أشباحا عن بعد ، وقد أسرعوا اليه على خيول ، وصاحوا به : « من القادم ؟ » . فلم يجبهم لعظم ما به . فلما اقتربوا منه ورأوا الفتاة وراءه رموه بالنبال وصاحوا به : « تخل عن الفتاة والا قتلناك » . فعرفت مارية صوت مرقس فصاحت : « لا ترم النبال يا مرقس ، انه من الاصدقاء » . وكان أركاديوس قد هم بأن يضربهم ، فلما سمعها تناديهم بالاسم وقف وقال : « من تنادين ؟ » . قالت : « أنادي ابن عمي ، وهو قادم للبحث عني فيما أظن » . ولم يتما

الكلام حتى وصل مرقس ، وترجل ودنا من الفرس فأمسك بالزمـام ، وهو في ريب من أمر الراكب ، وركوب مارية وراءه ، وأحاط رجـال مرقس بالفرس وهم يصيحون : « من أنت ؟ » • وأركـاديوس لا يريد أن يعرف أحد منهم أنه ابن الاعيرج فقال : « لست السارق يا قوم » • وقالت مارية : « انه شهم كريم ، أنقذني من مخالب الموت » •

فترجل أركـاديوس ، والدرع تغشاه ، والخوذة تغطي معظم رأسه ، حتى لا يستطيع أحد معرفته ، فقال للجميع : « هذه فتاتكم فاحملوها » • فأمسكوا بجواده قائلين : « من أنت ؟ قل لنا حتى نكافئك خيرا » •

قال : « لا حاجة بكم الى معرفتي ، واستحث جواده وسار يخترق الصحراء قاصدا بلبيس » •

وكـان أولئك القوم : مرقس ورجاله ومعهم والد الفتاة ، وقد أنهكهم التعب ، لأنهم قضوا طول ليلهم يهزعون من مكـان الى آخر يفتشون عن مـارية •

فحالما سار الركب قبل المعلم اسطفانوس ابنته وقـال لها : « الحمد لله على سلامتك يا بنيتي » • وسلم مرقس عليها ، ثم حملوها على فرس من أفراسهم ، وساروا بها الى القرية فرحين ، وقد عجبوا لأمر ذلك الفارس وتنكره مع ما صنعه معهم من الجميل ، فسألوها عن حكـايتها فحكتها لهم كما وقعت ، فازداد اعجابهم بشهامته •

أما أركاديوس فسار على جواده ، والليل لا يزال حالكا ، حتى دنا من بلبيس ، والسور محيط بها ، والابواب مقفلة ، والحامية على الأسوار حذرا من قدوم العرب ، فخاف ان هو دنا من السور أن يصيبه شر ، لأنهم لا يعرفونه ، وتحير هل ينتظر النهـار فيدخل المدينة بحيلة ، أو يسير في أثر الجند الذين قيل له أنهم حملوا أرمانوسة • وفيما هو يسير قرب المعسكر عثر جواده حتى كاد يكبو ، فنظر الى ما عثر به فـاذا هي حبال

وأوتــاد ؛ فترجل وتأمل ذلــك المكــان ، فعلم أنه أثر مضرب خيام ، وقد بقيت آثارها هناك ؛ فتــأمل وضع الخيام على قدر ما سمحت له شدة الظلام ؛ فعلم أنهــا خيام رومانية ؛ وشاهد مع ذلــك آثار آنية وثيابا رومانية ؛ فتحقق أنها الخيام التي أقلع أهلهــا في صباح الامس . ومــا زال يفتش في تلك الآثــار متحيرا حتى دنــا الفجر ، وأخذت تلك الآثار تنجلي له ؛ فشاهد خيمة لا تزال مضروبة في آخر ذلــك المعسكر ؛ فسار وقــاد جواده وراءه لعله يجد فيها خيرا ؛ فسمع صــوتا يناديه من داخل الخيمــة : « مــن القادم ؟ » . فعرف أن الذي يخاطبه من جنــد الروم فقال : « بل من أنت ؟ أعــدو أم صديق ؟ » . فقال « أنا من جند الروم ».

قال أركاديوس : « لا بأس عليك ؛ لأنك من جندنا » . وتظاهر بأنه من قواد الروم جاء بمهمة . فخرج اليه الرجل من الخيمة فاذا هــو جندي كمــا ظن ؛ ونظر الجندي الى أركاديوس ولبــاسه فظنه من كبار القواد ؛ ولم يكن أركاديوس لابسا خوذته ؛ وقد فعل ذلك اخفــاء لحقيقة حاله ؛ لأنه لو لبسها لعرفه كل من رآه .

فقال أركاديوس : « ما بالكم تقيمون في هــذه الصحــراء ؟ ولماذا لم تقيموا داخل الاسوار ؟ » .

قال : « قد أقمت أنــا وجمــاعتي الليلة هنا بأمر مولانــا الحاكم بعد فرار يوقنا أمس من هنا » .

فقال : « وكيف فر وقــد جاء لحمل أرمانوسة ؟ » .

قال : « اكتشفوا انه جاء بدسيسة ، ولم يكن مرسلا من مولانــا قسطنطين كما ادعى ؛ وبعد أن خرجت الســيدة أرمانوسة الى هذا المكان ؛ ومكثت في هذه الخيمة مدة ؛ وقد أعدوا الاحمــال ، وهموا بالمسير ، جاءهــم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين الى هذه الديــار ، فخاف يوقنا وتركهــا وفر برجــاله » .

فأحس أركاديوس عند ذلك كأن ثقـلا كبيرا تحـول عن صدره وقال للرجـل : « اذن لم يأخذ أرمانوسة معه ؟ » . قال : « لا » . قال : « والى أين ذهبت هي ؟ » . قال : « عادت الى قصر الحاكم في بلبيس » .

فتحقق أركاديوس عند ذلك ان أرمانوسة لا تزال في خـير ، ولـم يأخذها أحد . فاطمأن قلبه ، ولكنه أراد أن يقابلها ويكلمها ويشفي أوار شوقه اليها ؛ ولم يكن قد جلس اليهـا بعد . ونظر الى هندامه : وتحير كيف يدخل المدينة صباحا ، مخافة انكشاف أمره ، فتذكر أن جواده معروف عند معظم جند الروم . ولا بد لمن يراه نهارا من أن يعرفه ؛ فاذا أخفى نفسه لا يستطيع أن يخفي جواده . ثم نظر الى ثيابه وقد انفلق الصبح فرأى السيف ملطخـا بالدمـاء ، وعلى درعه نقط منها لطختها ساعة قتـل اللص ، وبقي برهة يفكر ، فتذكر الفتاة التي أنقذها من القتل ، وقـال في نفسه : « لعلي أستطيع أن أبعث معها كتابي الى أرمانوسة ، لأنها فتاة مثلها ؛ ولا شك أنها تخلص لي الخدمة ، لأني أنقذتها من الموت . ولكن من أين لي الوصول اليها الآن » .

وبينما هو يفكر في ذلك . وقد تحول عن الخيمة لئلا يرتـاب فيه أحد ، اذ حانت منه التفاتة فرأى رجلا ينظر اليه من بعد ويتأمله ، ولا يجسر أن يدنو منه ؛ فبقي أركـاديوس ماشيا ، وقد أخذ بزمام جواده ، وقاده وراءه ، فرأى الرجل يدنو منه ، فخاف أن يكون قد جـاء مخادعا فناداه : « من أنـت ؟ » .

فارتمى الرجل على قدميه وقال : « أطلب اليك يا سيدي أن تقول لي من أنت ؟ فاني أشعر بوطـأة فضلك علي وأحب أن أعرفك ؟ » .

فقـال : « ومن أنت ؟ » . قال : « أنا مرقس القبطي ، وأنت الذي أنقذت ابنة عمي من القتل ، فانهـا بعد أن وصلنا الى البيت وحكت لنا حكـاية نجاتها لم أستطع الصبر على جهلي من أنت ، فتعقبتك لكي أراك

على نور النهـــار ، فاذا أنت ملثم فلم أعرفك ، ولكنني أتهيب لباسك ، وأخاف هذا الجواد » • قال : « وهل تعرف جواد من هذا ؟ » • قـــال : « نعم أعرف ، انه جواد البطل أركـــاديوس بن الاعيرج » •

فقال : « فاعلم اذن اني من أصحاب أركاديوس ، وكفى » •

قال : « نعم يا سيدي ، ولكنني أشعر بعظيم فضلك علي ، ولا أدري كيف أكـــافئك ؟ »

قال : « لم أعمل ما عملت التماسا للمكافأة ، لأن لي من فضل سيدي أركـــاديوس ما يغنيني عن ذلك » •

قال : « نعم يا سيدي ان فضله علينا وعلي أنا بالتخصيص » • قال : « وكيف اختصصت نفسك بفضله » • قال : « انه أنقذ خطيبتي من القتل مرة قبل هذه يوم ساقوها الى النيل » •

قال : « وكيف تقول خطيبتك ان أرمانوسة هي التي أنقذتها ؟ » • قال : « نعم هي التي أنقذتها ولكن بوساطته » • قال : « لم أفهم مرادك ، فأفهمني كيف أنقذتها هي بعون أركاديوس ولا وصول لها اليه ؟ » •

فارتبك مرقس في أمره ، وندم على ما فرط منه ، وخاف أن يكـــون فيما قاله ما تؤاخذ عليه أرمانوسة ، وكـــان قد تعجب يوم تناول الامر من أرمانوسة مختوما بخـــاتم أركاديوس ، ولم يعلم كيف توصلت هي اليه بتلك السرعة ، مع علمه أن أركـــاديوس كان في الحصن اذ ذاك ، وكان يظن أن أرمانوسة اصطنعت خاتم أركـــاديوس تزويرا ، فلاح له أن في التصريح بأمر ذلـــك الكتاب خطرا ، فلم يجب •

فقال له أركاديوس : « ما بالـــك لا تجيب ، وقد قلت انك تشعر بفضلي عليك ؟ » • فظهر عليه الارتباك ولم يجب •

فقال له أركاديوس : « أتدعي الاخلاص وأنت تتردد في اطلاعي على الحقيقة ؟ أهذا جزاء الخير ؟ » •

فوقع مرقس على قدمي أركاديوس وقال : « ان في المسألة سرا لم أفهمه . وأخاف اذا قلت أن يجيء منه ضرر ؛ ان تسترك تحت هذا اللثام مما يزيد خوفي ؛ فهل لك أن تعلمني من أنت حتى أبوح بالحقيقة ، أرجو أن لا يترتب على قولي شر لأحد الناس . وما جزاء الاحسان الا الاحسان » .

فسال أركاديوس كل الميل الى معرفة سر الامر ؛ وتوسم بمرقس خيرا . وعزم على أن يستخدمه في توصيل كتابه الى أرمانوسة ، أو أن يتوصل اليها بوساطته اذا أخلص له الخدمة لأنه قبطي ، وتذكر بعد الاخذ والرد معه أنه رآه غير مرة مع رجال أرسطوليس في الحصن .

فقال له : « تعال معي على انفراد » . فانفردا بعيدين عن بلبيس في منزل خرب . يظهر من أنقاضه أنه كان معصرة يصطنعون فيها الخمر ، وليس حولها الا الصحراء وبعض الاشجار ، فجلسا تحت شجرة ، فرفع أركاديوس اللثام عن وجهه . فحالما رآه مرقس وقف مبهوتا ، وهم بتقبيل يديه ، وقد ذعر وقال : « العفو يا سيدي ، أأنت مولانا أركاديوس وأنا لا أعلم ؟ » .

قال له : « اني بازاحة هذا اللثام قد أطلعتك على سر لم يطلع عليه أحد ، فاحذر أن تفوه بكلمة أمام أحد ، أو أن تذكرني ؛ فاني جئت متنكرا حتى لا يعرفني أحد . هل فهمت ؟ » .

قال : « نعم يا سيدي ، واني أقسم لك بالصليب والمعمودية انني أخلص القول والعمل في كل ما تريد ، الا ما يخشى منه الضرر بالسيدة أرمانوسة ، لأن لها علي فضلا مثل فضلك ، فاذا عاهدتني أن لا تؤذيها في شيء أطلعتك على الحقيقة ، والا فانني مصر على الكتمان ولو قتلتني ».

فازداد أركاديوس شوقا الى معرفة الحكاية ، وعاهده على عدم التعرض بأذى لأرمانوسة مهما يكن من أمرها .

فقص مرقس عليه حكـايته من يوم أن خرج من الحصن مع بربارة الى أن حكم على خطيبته بالغرق ، وكيف أنقذها بكتـاب سلمته اليـه أرمانوسة ، وعليه خاتم أركـاديوس ، ثم شرح له ذهـابه الى الفرمـا للتحقق من موت خطيبها ، وما وقع من أمر يوقنـا ، الى آخر الحكـاية • فانجلت المسألة لأركـاديوس جيدا ، وسر كثيرا لنجـاة أرمـانوسة ، وأعجب بشهامة ذلـك الشاب ، لأنه كـان وسيلة في انقـاذها ، ورأى من نفسه ميلا الى مكـاشفته بأمره توسما للخير فيه • فقال له : « أمـا وقد رأيت هذه المروءة ، وعلمت ما تكنه من الاخلاص لأرمانوسة فسأطلعك على أمر لم يطلـع عليه أحد سواك ، وانـي آمل فيـك أن تكتمه وتبقى على مروءتـك » •

فابتدره مرقس قائلا : « اني مطيـع في كل مـا تأمرني به الا اذا كان فيه ما يلحق الضرر بسيدتي أرمـانوسة » •

فقال أركـاديوس : « حاش لي أن أريد بأرمانوسة سوءا ، بل أطلب اليك أن لا تطيع أحدا في أمر يمسها بشر ، فانهـا ــ ولا أخفي عليك ــ أعز الناس عندي » •

فتعجب مرقس لذلك وقال : « يكفيني انك لا تريد بها سوءا » •

قال : « أنظر يا مرقس وافهم ما أقوله لك ، أنت تعلـم منزلتي ونسبي ، ولا تعجب لمكـاشفتي ايـاك واستسلامي لك ، فقد آنست منك شهامة ومروءة سهلا علي ذلك ، وأنت خطيب مارية وتعرف قلوب المحبين ، فاعلم اني أحب أرمانوسة حبا شديدا ، ولم يعرف بهذا الحب أحد سواها وخادمتها بربارة ، وأما أمر خاتمي فهو بيدهـا ، وقد دفعته اليها عربونا للمحبة ، وأما قسطنطين فهي لا تحبه ، وقد أرسلتك للتثبت من موته لعلها تنجو منه » • وأوضح له حكـايته على قدر مـا تسمح له منزلته ثـم قال : « وقد جئت الآن خفية عن كل من في الحصن لانقاذهـا ، اذ بلغني أن

قسطنطين بعث يستقدمهـا اليه مع يوقنا ؛ وسأنيط بك أمرا أرجو أن تقوم به بالحزم والدراية بحيث لا يلحظ أحد شيئا منك فأنا أريد مقـابلـة أرمانوسة قبل عودتي الى الحصن ، ولكني لا أستطيع الدخول الى بلبيس لئلا يعرفني أحد ، فمـا الرأي ؟ » .

قال : « الامر لسيدي : فهـل تريد أن توافيـك الى مكان خارج المدينـة ؟ » .

قال : « نعم أريد ؛ ولكن كيف السبيل الى ذلـك بغير أن ينكشف أمرنـا ؟ » .

ففكر مرقس قليلا ثم قال : « أرى أن أكاشف سيدتي أرمـانوسة بمـا دار بيننا ، وأدعوها الى منزل خطيبتي بدعوى انهـا تريد أن تقوم بواجب الخضوع والشكر لهـا » .

فقال أركاديوس : « ولكنني لا أظنها تذهب ؛ لأن المسافة طويلة » .

قال : « اذا لم تستطع الخروج الينا فاننا ندبر حيلة أخرى » .

فقال أركاديوس : « أرى أن أتنكر بلباس مثل لباسك ، وأسير كأني رسول اليهـا ، فتأخذ أنت هذا الجواد وتذهب به الى القرية وتبقيـه هناك حتى أعود ، فتكون أنت في انتظـاري على الطريق فاركب وأسير في طريقـي » .

فقال مرقس : « حسنا ، فهل أعطيك ثيابي الآن ؟ » . قال : « هات خوذتك وردائك وسيفك ، وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الجواد ، واذهب الى القرية واحذر أن تخبر أحدا بأنـك رأيتني أو عرفت شيئـا عنـي » .

فتبادلا الثياب ، وأخـذ مرقس الجواد والدرع والحسام ، وسار قاصدا القرية ، وسار أركاديوس كـأنه أحد جنود الروم قاصدا بلبيس ، فلمـا اقترب من الأسوار كـانت الأبواب قد فتحت وأخذ أهل تلـك

الخيمة في تقويضها وحملهـا ، فدخل هو في جملـة الداخلين ، ولـم ينتبه له أحـد .

- ١٠ -

لقاء الحبيبين

باتت أرمانوسة تلك الليلة تفكر تارة في مرقس وخطيبته ، وطورا في تأخر أركـاديوس عن المجيء لنجدتها بعد أن بعثت اليه مرتين ، وكاشفت بربـارة بذلـك . فقالت : « أظنه لا يستطيع الخروج من الحصن خلسة خوف الفضيحة ، أو لعله يأتي في صباح الغد » .

وأصبحت وهي تنتظر رجوع مرقس ، أو من ينبئها بخبره أو خبر خطيبته ، لأنها كـانت في قلق عليهـا ، فجاءتها بربارة تنبئها أن الحراس عادوا وأخبروها بظفره بمارية ، وتمنت أن تظفر هي بأركاديوس أيضا ، فقالت أرمـانوسة : « وكيف ظفروا بها ؟ وماذا فعلوا بذلـك الخائن ؟ » . قالت : « قتله فارس لم يعرفوه بعد » .

وفيمـا همـا في الحديث جاء بعض الخدم يقول : « ان رجـلا يريد السيدة أرمانوسة » .

فسألت بربارة عن الرجل ، فقيل لهـا أنه من الجند ، ولعله رسول ، فهرولت وهي تحسب أنه رسول من أركـاديوس ، فاذا هو بلباس مرقس ، أو مثل لباسه فظنت لأول وهلة أنه هو ، ولكنهـا لما تأملته علمت أنـه غيره ، فقالت له : « ماذا تريد ؟ » . فقال : « أريد السيدة أرمانوسة ، فاني رسول اليها من صديقي مرقس ، وقد جئت لأشكرها بالنيابة عنه » . فقالت بربارة : « انها لا تزال في الفراش الآن ، وسأعلمها بقدومك ، ولا شك

أنها تسر كثيرا بنجــاة مارية ، وقد يتيسر لــك رؤيتها اذا عدت بعــد قليــل » .

فقال : « لا : بل أريد مقابلتها الآن . وكان يكلمها باللغة القبطية » .

فعجبت لهذه الجرأة ؛ وتأملت وجه الرجل فاذا هو روماني ؛ فلاح لهــا أنها تعرفه لما رأت بينه وبــين أركاديوس من الشبه ، ولكنها لــم تكن تتوقع أن يكون أركاديوس نفسه لما رأت من لباسه وحاله .

فقالت : « قد لا تريد أن تقابل أحدا الان » .

فأمسك بيدهــا وقال : «أظنها اذا عرفت من أنا لا تستنــع عــن مقابلتي ؛ فاني رسول جئتهــا ببشارة من أركاديوس بن الاعيرج ، فهــل تعرفينــه يا بربارة ؟ » .

فلما سمعت لهجته رجــح لديها انه هــو ، فالتفتت الى ما حولها فلم تــر أحدا مــن الخدم فقالت لــه : « لعلك سيدي أركــاديوس ؟ » .

قــال : « ربمــا كنت هــو (وتبسـم) فأين سيدتك يا بربارة ؟ » .

فبغتت ، وخفق قلبها فرحــا ، وقالت : « تمهل قليلا ، لأن في دخولك الآن بغتة خطرا عليها ، فاصبر قليلا غير مأمور لأمهد السبيل للاقاتكما » .

ثــم دخلت على سيدتها ، وعلى وجهها أمارات البشر ، وهي تضحك ، فلمــا رأتها أرمانوسة عجبت لسرورهــا فقالت : « ما وراءك يا بربارة ؟ » .

قالت : « مــا ورائي الا الخــير ؟ » .

قالت : « ومــن القادم ؟ » . قالت : « يقــول انه صديق مرقس ، وقــد جاء لينبئك بنجاة عروسه من يد اللصوص » . قالت : « قد سررت كثيرا بنجاتها ، ولكنني لا أرى ذلك داعيا لما يظهر من سرورك » .

قالت : « وما عسى أن يكون سبب سروري اذن ؟ وهل يكــون سروري برسول قادم من عند سيدي أركاديوس أكثر من ذلك ؟ كــلا ! لأن هــذا انما يسرك أنت ، وأما أنا فلا ناقــة لي فيه ولا جمل » .

فبغتت أرمانوسة ونهضت قائلة : « هـل هو رسول من أركاديوس يا بربارة ؟ أخبريني ما هي رسالته ؟ » .

قالت : « لا أعلـم اذا كان رسولا من أركاديوس أو هو أركاديوس عينـه ؟ » . وتبسمت فقالت أرمانوسة : « مـا بالك تخلطين ؟ افصحي . تهزئين بعواطفي وتسخرين من قلبي ؟ » .

قالت : « حاش لله يا سيدتي ! كيف تقولين ذلـك وأنت تعلمين حرمتك عندي ؟ ان الواقف بالباب الآن اما أن يكون أركاديوس أو رسولا من عنده ، وقد تركت أمر تمييزه حتى أستشيرك ، فهل تريدين أن يكون أركاديوس أو رسولا من عنـده ؟ » .

قالت : « لا أعلـم ، سلي قلبك . ولـكن أرجو أن تسرعـي في الافصاح فقد نفد صبري ، هل هو أركاديوس أو رسوله ؟ قولي » .

قالت : « اذا كنت لا تغضبـين مني فهو سيدي وحبيبك أركاديوس ، فهـل تأذنـين له بالدخـول ؟ » . فخفق قلبها فرحـا ، وعلا وجهـها الاحمـرار ، ثم تلاه الاصفرار ، وقالت وصوتها يرتجف : « فليدخـل » . ثم استأنفت فقالت : « ولكن تمهلي يا بربارة . اني ارى قلبي يخفـق كثيرا . ولا أدري ماذا يحل بي عند مقابلته ؟ » .

فقالت لها : «تجلدي ، والا فاني اقول له ان سيدتي ليست هنا ، أو أنهـا لا تريد مقابلتك . وليهدأ قلبك فانه لابس لباس الجند حتى أنك ربمـا لا تعرفينه فهل يدخل »

قال : « كيف لا أعرفه ؟ فليدخل » .

فخرجت بربارة وعينا أرمانوسة تشيعانهـا ، وقد أحست بارتعاش جسدها وبرود أطرافها ، ولم تصدق أن أركاديوس على بضع خطوات منها ، ولمـا وقع نظره عليها نزع خوذته عن رأسه ، واقترب منهـا وهي جالسة تحـاول الوقوف فيقعدها الحياء والرعشة . أمـا هو فمد يده

يصافحها فأحس ببرد أناملهـا وارتعاشها ، ونظر الى وجهها فرأى الحياء يعلوه ، وقد أطرقت لا تستطيع النظر اليه لشدة انفعالها .

ولكنها ظلت ممسكة بيده ، وهو ينظر الى تلك اليد الجميلة البضة تزيد جمالهـا الخواتم الثمينة المرصعة . وبقيا لحظة صامتين والهـوى يتكلم ، ثم بدأ هو فقال : « كيف حال ذلك الخاتم يا أرمانوسة ؟ » .

فرفعت رأسها ونظرت اليه والحياء يمنعها عن الجواب ، ثم أطرقت وقد ازداد خفقان قلبهـا حتى كـاد يغمى عليها ، فشعر أركاديوس بذلك فأراد مداعبتها ، فقال وهو يضغط بأنامله على يدهـا : « أين وضعت ذلك الخـاتم ؟ » .

فنظرت اليه وهي تبتسم ، وتنهدت وأشارت بيدها الاخرى الى قلبهـا ، تريد أن الخاتم في قلبها . وازداد وجهها احمرارا .

فقال : « وماذا فعلت بقسطنطين ؟ » .

فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شبه مغضبة ، كـأنها تقول له : « لا تذكرني بمصائبي » . فقال : « ولم لم تذهبي مع رسوله وهو ينتظرك عند بحر دميـاط ؟ » .

فلم تتمالك نفسها عند ذلك وقالت : « دعـني ومصـائبي يـا أركاديوس . كفاني ما قاسيته » .

فتناول كرسيا كـان الى جانبه وجلس ، وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيما ، فأمسك بيدها وضغط عليها قائلا : « بل كفاني توبيخـا يـا أرمـانوسة » .

قالت : « ومن قال لك اني أوبخك ؟ » . قال : « عيناك ! » .

قالت : « لقد أخطـأت الظن ، وأنا المستحقة للتوبيخ لأني لم أصرح على رؤوس الاشهاد بأني لا أريد ذلـك الرجل ، ولكنك تعلم حالي » .

فقال : « قلت لك يكفيني توبيخا ، وأنت تبالغين في توبيخي ، فاذا

كنت ترين في كتمانك قصورا . فكم يكون قصوري ؟ ولكنك لا تجهلين أمري أيضا » •

قالت وهي مطرقة ، وقد ازداد تورد وجنتيها وتلألأ العرق عـلى جبينها : « اني أعلم أنك رهن مشيئة والدك ، فلا لوم عليك اذا غادرتني مراعاة له ، ولكنني أود قبل مماتي أن تتحقق مما لـك في هذا القلب من •• » • قالت ذلك وشرقت بدموعها •

فازداد هيام أركاديوس ، ورأى أنها توبخه لامساكه عن التصريح بحبه لهـا ، فأخرج منديلا ومسح به جبينها ، ثم مسح به وجهه ، فانتعش من ريحهـا ، والتفت اليها فازدادت خجـلا ، وبالغت في الاطراق • فقال لهـا : « هل تظنين ارادة أبي تحـول بيني وبينك ، وقد سلمتك خاتمي وقلبي ؟ وما الذي ساقني اليك الآن مخاطرا بحياتـي ، وأنا لا أدري مـا يسوقني اليه غضب أبي اذا علم أني غادرت الحصن علـى حين غفلـة ، ونحن في حال حرب ؟ وكم يكون غضبه اذا علم أني جئت لأجلك ؟ » •

فجذبت يدهـا من يده وهي لا تزال مطرقة وقالت : « قلت لك انك مقيـد بارادة أبيك فكذبتني » • فقال : « وهل أبي يحول بيننا ؟ » •

قالت وقد نظرت اليه نظر العاتب : « وماذا اذن •• وأنـا لا ألومك ، فـان اطاعـة الوالدين واجبة ، لأنهـا من وصايا الله العشر » •

فشعر أركاديوس بثقل العبارة عليه ، ومـا تتضمنه من التوبيـخ ، وثارت فيه الحمية الرومانية ، واعتدل في مجلسه وقال لهـا : « اعلمـي يا أرمانوسية أن أركاديوس لا يطيع أحـدا في سبيل اغضابك ، ولا يثنيه عنك أمر في السماء أو الارض ، وهيهات أن ينـال منك ابن الامبراطور شعرة قبل أن تجـري الدماء ، ولا يحول بيني وبينـك شيء الا اذا أردت أنت التقرب من البـلاط الملكـي ، وفضلت القسطنطينيـة وقصورهـا على هـذا الاسير المفتـون » •

فتنهدت تنهدا عميقا ، والتفتت اليه قائلة : « أراك تستهزىء بعواطفي أو لعلك تستضعف النساء فلا تؤمن بثباتهن في الحب ، ولا يعلم مقدار ما أنا فيه الا هذه الرفيقة العزيزة التي هي بمنزلة والدتي ، وان في هذا الخنجر الذي لم يفارقني لأكبر شاهد على صدق محبتي لأركاديوس » . قالت ذلك وأشارت الى الخنجر في بعض جهات الغرفة .

فخفق قلبه عندما ذكرت الخنجر وقال : « ماذا تعنين بالخنجر ؟ » .

فتقدمت بربارة عند ذلك ، وكانت مصغية الى ما يتبادلان من عبارات الوداد ، وقلبها يكاد ينفطر ، ودموعها تتساقط على خديها من التأثر ، وقالت : «انها كانت تخفي علي أمر هذا الخنجر ، ثم علمت انها كانت تريد الانتحار ان تحققت وقوعها في يدي قسطنطين ، وقد كادت توقع بنفسها ضررا عند قدوم يوقنا لو لم يصل مرقس الخادم الامين بالبشرى » .

فأعجب أركاديوس بثباتها وشهامتها ، وازداد تدلها بها فقال : « أتكونين في مثل هذا الثبات وتشكين في ثباتي ؟ ثقي يا أرمانوسة ان هرقل وجنوده ، وأهل الارض قاطبة ، لا يستطيعون مس شعرة من شعرك وأركاديوس حي يرزق ، ولو علمت أن جهري بحبك الآن لا يأتيك بضرر لوقفت على قارعة الطرق وأشهرت غرامي ، ولكنني رأيت من الحزم أن نصبر حتى يأتي الله بالفرج ، فهل تبقين على العهد ؟ » .

قالت : « أتسألني يا أركاديوس بعد ما رأيت وسمعت ؟ أتسألني عن البقاء على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من أجلك ؟ أتسألني اذا كنت أصون عهدك ؟ » .

قال : « ليجمع الله بيننا وهو على كل شيء قدير ، فلنأخذ الامر بالحزم والتروي ؛ فان قسطنطين لن يطمع فيك ، والحالة لا تسمح بذهابك اليه ولو أراد أبوك ذلك ، فان العرب قد قطعوا السبيل على المارة ، ولا بد من أن تنقضي هذه الحرب اما لنا واما علينا ، وستسمعين عن

حبيبك أركاديوس ما يسرك . والله لأحاربن الروم والعرب في سبيل رضاك ؟ » .

فأمسكت بيده قائلة : « لا تذكر الحرب ولا المحاربة ، اني أخاف عليك النسيم ؛ فكيف بالنبال والسيوف ؟ وكيف تقول انك تحارب عني ؟ » .

قالت : « دعنا من الحرب ، وهلم بنا نرحل عن هذه البلاد ؛ بلاد المخاطر والقلاقل » .

فوقف بغتة ويده على حسامه وقال : « أتريدين أن يفر أركاديوس من وجه العدو ؟ وهل ترضين به جبانا يخاف الموت ؟ ولماذا هذا الحسام اذن ؟ » .

قالت : « لا وحبك ! لا أحب الجبان ، ولا أرضى أن يكون أركاديوس جبانا ، ولكن قلبي لا يحتمل أن أرى أو أسمع أن الناس يرمون النبال عليك » .

فقال : « دعيني اذن وشأني والوغى فاذا سلمت بعدها كنت أهلا لرضاك فلا تندمين على استبدالي بقسطنطين » .

فصمتت وهي تتردد بين الشهامة والحب ، ولم تجب . فنهض أركاديوس عند ذلك وهو يقول : « لا بد لي يا أرمانوسة من العودة الى أبي الآن لئلا يسمني عار لتخلفي عن الحصن خلسة . ونحن في حرب فقد خرجت منه ولا يعلم بي أحد ، ولقيت في طريقي مارية ، خطيبة خادمك مرقس ؛ وقد اختطفها اللصوص . وسمعت صوتها تستنجد المارين . فخيل الي أن أرمانوسة في يد العدو ، فأنقذتها وسرت وأنا ملثم أخاف أن يراني أحد فيعرفني ؛ حتى جئت الى ظاهر بلبيس ؛ ولقيت مرقس وتعارفنا سرا ؛ فلبست ثيابه متنكرا ؛ وتركت جوادي وثيابي معه ؛ وقد توسمت فيه الخير ، وهو الذي أخبرني بجلية الخبر عنك ؛ وسنعتمد

عنيه في المخـابرة حين الابتعاد • والآن لا بد لي من الذهاب » •

فنهضت أرمانوسة وظرت اليه وهي حزينة لا تريد فراقه ، ولكنها قالت له : « سر بحراسة الله وها أنذا باقية في بلبيس لا أدري مـا يكون من أمرنا والعرب قادمون الينا ؟ » •

قال : « سأحث أباك أن يستقدمك من بلبيس عندما يتحقق خيانة يوقنـا » •

قالت : « افعل ذلك يا أركاديوس ، فأنا على العهد الى أن يقضي الله بمـا يشاء » •

فهم بالخروج ولكنه عاد فقال لها : « فاتني أن أذكر لك سروري بالوسيلة التي أنقذت بها مارية من الاغراق في النيل » •

قالت : « لعلك تذكرني بجرأتي عليك واستعمالي خاتمـك يـا أركـاديوس ؟ » •

قال : « حاش الله ، اني سلمتك قلبي أفلا أسلمك خاتمي ؟ فاصنعي ما بدا لك ، ولكن ألا ترين أن تنعمي على أركاديوس بتذكـار منك ؟ » •

قالت : « وما عسى أن أقدم لك وقد ملكت كل عواطفي ؟ ان لدي تذكـارا ثمينا أخذته من أمي لم يفارق عنقي منذ صباي ، وهو أثمن ما عندي من الحلى ، وهو هذا الصليب » • ومدت يدها الى عنقها وأخرجت سلسلة ذهبية علق بها صليب ذهبي مرصع ، قد نقش عليـه اسمهـا بالقبطية ، وناولته اياه فتناوله وقبله قائلا : « لا ريب عندي ان هذا الصليب سيدفع عني كـل غائلة ويقيني من كل شر » • قال ذلك وعلقه في عنقه وخبأه بين أثوابه ، ثم أمسك يدهـا وودعها وهو يقول : « اذكري أركـاديوس ولا تنسيه ، فانه سيذكرك ما بقي حيا ، وسيستعيذ باسمك في حومة الوغى يوم تتقارع السيوف ، وتتصادم النبال ! » •

ثم خرج بعد أن ودع بربارة ، فأحست أرمانوسة أن قلبهـا قد

انخلع من مكـانه ؛ وظلت تتنظر اليه وهو يمشي في أرض الغرفة حتى خرج من الباب ، فتحولت الى النافذة تشيعه بنظرها وهو يتلفت لوداعها حتى توارى •

* * *

أسرع أركـاديوس يطلب مرقس ليركب الى الحصن ، وقد أوجس خيفة من غضب أبيه ، وكأنه كـان في سكرة وصحا بغتة ، فهرول يطلب مكـان مرقس ، فوصل الى القرية ونظر يمنة ويسرة فلم ير أحدا ؛ فدخل القرية وجعل يبحث عنه لعله يراه فلم يظفر به ، فشغل باله ، وهو لا يعلم أين يفتش عنه ، ولا يعرف من يسأله عن أمره ، ولا يعرف منزله ، فجعل يطوف كالتائه • ولمـا لم يره خرج من القرية حائرا لا يدري الى أين يذهب ؛ فحدثته نفسه أن يسير الى مكـان المعصرة حيث فارقه لعله بقي هناك مختبئا • وبينما هو في سبيله رأى غبارا يتصاعد عن بعـد ، فوقف ينظر الى ما وراء ذلـك الغبار ، فاذا به قد انكشف عـن جيش جرار تتقدمه الاعلام والفرسان ، فعلم أنه جيش العرب قدم الى بلبيس ، فوقف متحيرا يحرق أسنانه لمـا أصابه في ذلك اليوم من فقد فرسـه وسلاحه ؛ ولبث يفكر في أمره ، والجند يقترب نحوه ، فخـاف عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لا يستطيع النجـاة لو أدركه فارس من أولئك الفرسان • ولم يكد يفكر في ذلك حتى رأى فارسا يعدو نحوه بأسرع من لمح البصر ، فلم تطـاوعه أنفته وشهامته على الفرار ، فبقي واقفـا وقد تهيأ للدفاع . فاذا بالفارس أحد فرسان العرب ، وعليه العمامـة والشملة ، وقد دنـا منه وناداه بالعربية ، فلم يفهم أركـاديوس مراده ، ورآه يهوى عليه بالرمح ؛ فاستل هو الحسام وهجم عليه ، وقد أدرك

مقدار الخطر المحدق به ، ولكنه نسي نفسه وموقفه في سبيل شجاعته .
وضرب الفارس ضربة أصابت رجل جواده . فنزل الفارس اليه وجعلا يتقارعــان ، فأعجب الفارس بشجاعة أركاديوس وأكبر أمره ، وأراد أن يسوقه أسيرا . ثم جاء فارس آخر ، وتعاون الاثنان على أركــاديوس ، فطعنه أحدهما بالرمح فأصاب زنده . فسقط الحسام من يده . فهم به الاثنان وأوثقاه . وسارا به الى المعسكر . وكــان جند العرب قد وصلوا اذ ذاك وأخذ العبيد في ضرب الخيام وانزال الاحمال ، ونصبوا خيمة الامير عمرو في ميمنة المعسكر ، وأنزلوا الهوادج ، وجعلوا يشتغلون بتدبير شؤونهم .

فحملوا أركــاديوس الى الامير . وكــان قد أوى الى خيمته ، وجلس أمراؤه بين يديه ، ونصبــوا علمه أمــام الخيمة . وأركاديوس لا يفهم لسانهم ، وقد عظم عليه الاسر كثيرا ، ولعن الساعة التي خرج فيها من الحصن ، ورأى أنه في موقف حرج قد لا ينجو منه .

فأدخلوه خيمة الامير ، فوقف بين يديه موثقا ، وتقدم اليه وردان وسأله بلسان الروم قائلا : « أمن جنــد الروم أنــت أم مــن رجال المقوقس ؟ » .

قال : « بل أنا من جنود الروم ، وكلنا جند واحد روما وأقباطا » .

فقال له مترجم كلام عمرو : « وما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ » .

قال : « خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفــردا فأمسكوني ، وليست هذه عادة الابطــال ، ونحن نسمع أن العــرب لا يغدرون » .

قال : « نعم ان العرب أصدق الناس عهودا ، وأحفظهم لمقام الرجال ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك ، فأخبرنا بما عليه جندكم ، ولا تخف شيئا فانك أسير بين أيدينا ولا ينقذك الا الصدق » .

قال : « ونحن لا نعرف غير الصدق شعارا ؛ ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين . وأنا لا أخاف من الموت اذا هددتموني بـه . أما جندنا فأبطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدو » . فقال عمرو لوردان : « دعـه يجلس » .

فقال : « لا حاجة بي الى الجلوس ؛ وما نحن ممن يمل الوقوف » .

فعجب عمرو لرباطـة جأشه ؛ وما يتجلى في وجهه من الشجاعة ؛ وما ينبعث من حدقتيه من الذكـاء ، فقال له : « أنت من أفراد الجند أم أنت من كبارهم ؟ » .

قال : « بل أنا من أفراد الجند . وأما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب » .

فازداد عمرو اعجابا بشجاعته وأحبه . لأنه كان محبا للشجعان .

أما جلساء عمرو فاستنكفوا جرأته فقالوا لعمرو : « ألا أمرت بقتل هذا العلج ، فانه قد تجاوز الحد في جوابه ! » .

فأسكتهم وقال لأركاديوس : « اني لأعجب بشجاعتك . ولم ألق بين جند الروم مثل هذه الجرأة . ولذلك فـاني أبقي عليك بشرط أن تخلص لنا الخدمة » .

فقال أركاديوس : « أما ما ترجوه من خياتني فبعيد المنال . فتعجيلك بقتلي أجمل بك وبـي » .

فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله . فأجل الأمر الى فرصة أخرى . وقال لوردان : « خذوه الى مكـان أمين . وليكن هناك حتى أطلبه » .

فساقوه الى بعض الخيـام موثقا ؛ فصار يفكر في حاله . ومـا أحدق به من الخطر .

* * *

أما أرمانوسة فانها روضت نفسها على الصبر ، وارتاح بالها ، وسرت بمقابلة أركاديوس ، وأعجبت بشهامته وبسالته . ولما توارى عن نظرها عادة الى بربارة وتنفست الصعداء قائلة : « نحمد الله تعالى على ما أولانا من النعم ، فقد تخلصنا من الموت ، وشاهدت حبيبي وكلمته وتحققت ثباته ، أما قسطنطين ، فلا أظنه يجسر على دخول هذه البلاد ولو كان حيا ، وقد دخلها العرب ، هي في حرب معهم ، فأطلب اليه تعالى أن يطيل اقامتهم بيننا منعا لذلك الرجل من دخول هذه البلاد الى أن يقضي الله بما يشاء » .

فتبسمت بربارة وقالت لها : « ألم أقل لك يا سيدتي ان أركاديوس شهم باسل حازم أمين ، وكم تقدمت اليك أن تلقي حملك على الله ، وهو ينقذك من مخالب الموت كما أنقذ مارية لخطيبها ، فانها كادت تذوق كأس المنون مرتين ، والفضل في انقاذها بعد الله لحبيبك أركاديوس . متعك الله به ! هلم بنا ننزل الى الحديقة ترويحا للنفس بعد أن اطمأن بالك وسكن روعك » .

فنزعت أرمانوسة ثيابها ، ولبست رداء سماوي اللون ، وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ ، وفي صدرها عروة من الذهب المرصع ، وبيدها الأساور ، وتطيبت ، وأرخت ذوائبها على كتفيها ، ومشت تجر ذيل ردائها ورائها ، وبربارة تمشي الى يسارها ، فخرجت من الغرفة ، ونزلت الى رحبة الدار ، ومنها الى الحديقة ، وبعثت الى الجواري الا يبرحن مكانهن ، لانها تفضل النزهة على انفراد . فدخلت الحديقة وجعلت تخطر بين الرياحين والازهار فلم تكد تمشي خطوتين حتى علت الضوضاء في المدينة ، وهرول الحاكم مسرعا يطلب مقابلتها ، فأذنت له ، فدخل وعلى وجهه امارات الانقباض والبغتة ، وحياها وهو مرتبك ، فسألته فقال : « يسوءني أن أبلغك خبر مجيء العرب الينا

بعدتهم ورجالهم وخيلهم ، وقد تصاعد غبارهم حتى بلغ عنان السماء » .

فلما سمعت أرمانوسة ذلك اضطرب قلبها ، ولكنها ، حمدت الله على ذهاب أركاديوس فقالت : « وهل وصل الجند ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ، وقد جاءني رسول منهم ومعه كتاب من أميرهم ، يطلب الينا أن نسلم المدينة » . فقالت : « وبم أجبته ؟ » .

قال : « أنتظر أمرك يا مولاتي ، لأن مولاي المقوقس أوصاني بألا آتي أمرا الا بعد استشارتك ، وها أنذا بين يديك ! » .

فقالت : « وكيف نسلم لهم وعندنا العدة والرجال ؟ وهل بعثت الى أبي في شأنهم » .

قال : « قد بعثت اليه غير مرة منذ وصلوا الى الفرما . وهو عالم بقدومهم ، ولا أدري ماذا أعد لدفعهم ؟ » .

فتغير لون أرمانوسة وجلا ، لعلمها بقوة العرب ، ولكنها تذكرت ما قاله لها مرقس من أمر الامان الذي كتبه عمرو لوالدها بشأن المحافظة على القبط خاصة ، فسكن روعها ، فقالت للحاكم : « عليك بالتأهب للدفاع ، وبث رجالك على الأسوار والحصون حتى نرى ما يكون » . فعاد ، وأخذ يعد المعدات ، ويبث رجاله في الحصون ، وأجاب العرب بأنه لا يسلم .

وعادت أرمانوسة الى قصرها مضطربة ، تارة تحمد الله على ذهاب أركاديوس ، وطورا تقول : « ليته بقي ليدافع عنا اذا مست الحاجة » . وبينما هي تفكر في ذلك قالت بربارة : « ألم يكن من التعقل يا مولاتي أن نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب ؟ » .

قالت : « قد خطر لي ذلك من قبل ، ولكنني وثقت بعهد عمرو . وهو لا شك يوفي بالعهد ، ولا يريد بنا شرا . وليتنا نبعث اليه مرقس نطلعه على أمرنا » .

قالت : « مرقس ليس هنا ، ولم يعد منذ خرج للبحث عن خطيبته »•
قالت : « ولكنه ظفر بها ، الا نظننه يعود الينا اليوم ؟ » •
قالت : « أخبرني سيدي أركاديوس أنه أبقاه ليحرس له جواده وثيابه حين جاء الينا ، ولعله يعود عندما يرجع اليه سيدي فنرسله الى عمرو » •
ومضى ذلك اليوم في التأهب ولم تقع حرب •

* * *

قضى أركاديوس سحابة يومه في حبسه لم يذق طعاما ، تتقاذفه الهواجس : فيفكر تارة في أبيه وفي ابطائه في الرجوع اليه ، وتارة أخرى في جواده وفي مرقس ، ثم يفكر في أرمانوسة وكيف انها في بلبيس والعرب يهمون بفتحها • وكان اذا تذكر هذا ود لو أنه ظل قريبا منها لعله يستطيع الدفاع عنها ، ثم ينظر الى يديه فيرى أنه مكبل لا يستطيع حراكا ، فتصغر نفسه في عينيه ويسأم الحياة • وبات ليلة لم تذق عيناه الكرى ، حتى اذا لاح الفجر أغمض جفنيه • وما عتم أن سمع صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ، فانتفض وعادت اليه هواجسه • وجاءه رجل بالطعام فأبى ، ولما علم عمرو بذلك بعث اليه وردان يرغبه في الطعام ويستطلع حقيقة أمره ، ولكنه لم ينثن عن عزمه ولم يذق طعاما ولا شرابا • فقال له وردان : « ألا تزال مصرا على عنادك ، ترجو النجاة من هذا الأسر ؟ » •
فقال أركاديوس : « قلت لك اني لا أهاب الموت ، وليس من شيم الروم أن يهابوه » • قال وردان : « والله لولا رحمة أميرنا لقتلناك »•
قال : « لا حاجة بي الى رحمتكم فاصنعوا ما شئتم وكفى » •

فازداد وردان اعجابا به ، وأيقن أنه من خاصة الروم ، وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله ، فرأى في عنقه سلسلة ثمينة من الذهب ، لا يتأتى لمن كان في مثل لباسه أن يتقلدها ، وقام في نفسه أنه من كبار القواد ، فأراد التحقق وهم بانتزاع السلسلة ، فمنعه أركاديوس وقال له : « لا تمد يدك الى ثيابي ، فانما أنتم تطلبون نفسي وهي في أيديكم » .

فأخذ وردان من جرأته ، وازداد رغبة في أخذ السلسلة ، وقال له : « اخسأ ولا تكثر من الهذر والهذيان وأنت مقيد في الاغلال ، ولئن لم تنته عن الاسراف في القول لأضربن عنقك بهذا الحسام » .

فجحظت عينا أركاديوس ، وعض على شفتيه من الغيظ وقال : « كفى تهديدا وثرثرة ، ان الشجاعة لا تكون بقتل الاعزل . فأبلغ أميركم عني هذا ، وانني على استعداد لمبارزة أي شجاع من رجالكم » .

فهابه وردان ، وتذكر أن عمروا حظر قتله ، فتركه وسار الى عمرو ليخبره بما دار بينهما ويحرضه عليه . أما أركاديوس فظل الغيظ يشتد به حتى دمعت عيناه . لكنه تذكر أنه في الأسر ولا يليق به البكاء ، فتجلد وانتظر ما يأتي به القضاء . وفيما هو في ذلك جاءه وردان يدعوه الى الامير ، فسار معه يجر قيوده وهو لفرط غيظه لا يكاد يبصر أحدا من الجنود العرب الذين خرجوا من خيامهم ليشاهدوه . حتى وصل الى خيمة عمرو فوجده جالسا في صدرها وبين يديه أمراء جنده ، وبجانبه رجل في زي غير عربي . وابتدره عمرو قائلا : « علمنا أنك لا تزال تطاول وتتحدى رغم ما أنت فيه من الاغلال » .

فقال أركاديوس : « ليس الاسر عارا على الرجال ، وانما العار أن تقيدوني وأنا واحد وأنتم ألوف » .

فقال عمرو : « حلوا قيوده لنرى ما يكون من أمره » . ولما حلوها قال له عمرو : « ها قد حللنا قيودك فما شأنك ؟ » . قال : « ان

أنصفتم ، فلينهض الى مبارزتي أحد رجالكم ، فان غلبني فدمي حلال لـه » .

فهم أركاديوس بأن يفصح عن أمره . ولكنه أمسك ، وقال : « ان ساحة الحرب تميز الوضيع من الرفيع » .

فازدادت رغبة عمرو في معرفته وقال : « أصدقنا الخبر يا رجل ، ولك منا الانصاف » . قال : « وماذا تريدون مني ؟ » . قال : « قل من أنت ، فأنا نراك فوق عامة جندكم شجاعة .

قال : « ان بين عامة جندنا رجالا أصعب مني مراسا وأشجع ، أم حسبتم أننا مثل من لقيتم من جند الشام ؟ » .

فأمر عمرو بتقييده ثانية وقال له : « حسبنا فك قيودك سيحملك على ترك التطاول والعناد ، ولكنك أخلفت ظننا بك » .

وبينما هم يعيدون تقييد أركاديوس ، تقدم وردان الى عمرو وهمس في أذنه مشيرا الى السلسلة الذهبية التي في عنقه وقال : « لعل هذه السلسلة تنبئنا بشيء من خبره » . فأمر عمرو وردان أن يأتي بها اليه . ولم تجد مقاومة أركاديوس اذ كان وثاقه قد شد ، ودفعوا بالسلسلة الى عمرو ، فأمر بحمل أركاديوس الى محبسه ، وكان هذا لا يكاد يعي شيئا لفرط تأثره ، اذ كان يؤثر قطع عنقه على أن تؤخذ منه السلسلة . فلما ذهبوا به ، أخذ عمرو يتأمل في الصليب المرصع الذي في السلسلة ثم قال : « انه شبيه بما وجدناه في أسلاب الروم بالشام وبيت المقدس . ولكنه أثمن فيما يلوح لي » .

فقال وردان : « ذلك حملني على الشك في أمر الرجل ، وجعلني أظن أنه من كبار القواد قد جاء متنكرا » .

فالتفت عمرو الى الرجل الذي بجانبه وقال له : « ماذا ترى في هذا الصليب يا زياد ، فانك أخبر بأحوال الروم ولباسهم ؟ » .

وكـان زياد حين ذهب الى المقوقس في الحصن برسالة عمرو التي ضمنها الامان للقبط ، قد سمعهم هناك يتحدثون بغياب أركـاديوس المفاجيء • وكـان قد رآه قبل ذلك في الاسكندرية ، ولكن أمره التبس عليه حين رآه في حضرة عمرو ، فتناول السلسلة من يد عمرو ، وأخذ يقلب الصليب بين يديه ، فقرأ اسم أرمانوسة مكتوبا على ظهره باللغـة القبطية ، ولكنه كتم ذلـك ، وقال : « هل يأذن لي الأمير في أن أستطلع سر الرجل بيني وبينه ، فاني على رأي وردان فيه ؟ » •

فقال عمرو : « افعل ما بدا لك » • فأخذ زياد السلسلة وسار توا انى المكان الذي حبس فيه أركاديوس ، فوجده غارقا في بحار الهواجس ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، وأجفل حينما رآه داخلا عليه ، غير انه تجلد ليرى ما يبدو منه • ثم جلس زياد أمامه وقال : « بعثني الامير عمرو ابن العاص لأسألك في أمر ، وأرجو أن تجيبني عنه » •

فقال أركاديوس : « وما ذلـك ؟ » • قال : « من أين لك هـذه السلسلة ؟ » • وأراه اياها ، فما كادت عيناه تقعان عليها حتى أقشعر جسمه وارتعدت فرائصه وترقرقت الدموع في عينيه • لكنه تجلد وقال : « جاءتني اتفاقا » •

فقال زياد : « هذا بعيد الاحتمال لأن مثلها لا يحوزه من كـان من العامـة » •

قال : « ليكن ذلك حقا ، ولكني حصلت عليها اتفاقا والسلام » •

فقال : « وكيف كان ذلك ؟ » • قال : « وجدتها في الطريق » •

قال : « قل لي ما اسمك ؟ » • فكاد أركاديوس أن يبوح باسمه ولكنه أحجم حذر الموت وقال : « وماذا تريد من اسمي ؟ » •

قال : « هذا ما يريد الامير أن يعرفه » • قال : « اسمي طيطوس » •

قال : « أمن جند الروم أنت أم من الاقباط ؟ » • قال : « بل من

جند الروم » .

قال : « ومن أي سلاح ؟ » . قال : « وما أدراك بجند الـروم وتعدادها وأسلحتها ؟ » . قال : « أعرفها جيدا ؛ فهل أنت من جنود الاسكندرية أم منف ؛ أم من جنود النجدات التي جاءت أخـيرا من القسطنطينية ؟ » .

فلحظ أركاديوس في أسئلته معرفة بأحوال الجند الروماني ، رغم قبافته العربية ، ولكنه مع ذلـك يحسن الكلام باليونانية ؛ فقـال : « بل أنا من جند الاسكندرية » . قال : « ولعلك من فرقة القـائـد أركـاديوس » . فبغت وقال : « ربما كنت متهم . ولكن ما أدراك بجنود الروم ، لعلك ممن سكن هذه البلاد ؟ » .

قال : « كنت مقيما هنا منذ بضع سنين وما شأنك أنت وهذا ؟ قل : هل تعرف أركاديوس ؟ » .

فعجب أركاديوس من الحاحه ، وخاف أن يكون قد عرفه فيقع في الخطر العظيم فقال : « أعرفه ، ولكنني أسألك أمرا واحدا فهل تجيبني اليه ؟ » . قال : « وما هو ؟ » .

قال : « أعطني هذه السلسلة وافعل بي بعـد ذلـك ما تريـد ، واسألني مهما شئت فأجيبك » .

فقال زياد : « لم يؤذن لي بذلك ، ويهمني أمـر هذه السلسلـة أكثر مما يهمك ، فانها على ما يظهر لأرمانوسة بنت المقوقس ، وأنت تقول انك من بعض الجند فكيف وصلت اليك ؟ » .

فأنكر أركـاديوس عليه ذلك قائلا : « لا أظنها لها ، ولكنها وقعت الي محـض اتفـاق » .

فقال زيـاد : « عجبـا لاضطراب كلامك ، فبينما تقول أعطني هذه السلسلة واسألني مهمـا شئت ، مما يدل على اعظامك لها ، تعود

فتقول انها وقعت اليك اتفاقا ، فكيف هذا ؟ »

فارتبك أركاديوس ، ولم يعد يستطيع التخلص من هذه الـورطة فسكت • فاستنتج زياد من سكوته أمرا حمله على زيادة التدقيق في السؤال ، فعـاد يستجوبه فلم يجبه ، فألح عليه فأصر على السكـوت ، فقال له أخيرا : « انك ان أصررت على السكوت فلن يصبك الا الاذى فأفصح » • فلم يجب ، فعجب زياد لسكوته وقال له : « لمـاذا لا تفصح •• قل • أجب » • فرفع أركاديوس نظره اليه ، وقد أخـذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وقال : « لا أجيبك الا اذا أخبرتني أنت عن حقيقة حالك ومـن أنت ؟ فاني أرى أنك لست عـربيا ، ومـا الذي تخشاه وأنـا مقيـد اليديـن بين يديك ؟ » •

قال : « وما ينفعك تصريحي وما يضرك ! هذا ليس من شـأنك ، وانما أنت أسير بين أيدينا ، ولا تظن تكتمك يخفي حقيقتك فقد عرفناك ، وأنا أول من عرفك » •

قال متجاهلا : « وكيف لا تعرفني وقد تسميت وانتسبت » •

فضحك زياد وقال : « أتريد أن أصدق انك طيطوس ، وأنت أعظم من ذلك بكثير • اذا أصررت على الانكـار فان ذنبك يزداد ثقلا » •

فقال أركاديوس : « قل من أنا اذن » •

قال : « أنت أركاديوس بن الاعيرج » •

فبغت أركاديوس ، وخاف العاقبة ، ولكنه ابتسم مظهرا الاستخفاف ، وقال : « من أين لسيدي أركاديوس أن يأتي الى هنا وهو محـاط بالابطـال ، لا يخرج من معسكره الا في المئات والالوف من الجند ، ليتني كنت ايـاه ، ولو آل ذلك الى أن تفتكوا بي الآن » •

فانقلب شك زياد يقينا لمـا ظهر على وجه أركاديوس من الاضطراب وقال : « دع عنك هذا ، واعلم أن أركاديوس الذي لا يخرج من معسكره

الا محاطـا بالمئات والالوف قد خرج من حصن بابل وحده ، وترك القوم هناك يفتشون عنه » •

فازدادت حيرة أركاديوس وخفق قلبه ، وتراكمت عليه الهموم من كل ناحية ، وقال في نفسه : « وما الذي أوصل هذا الرجل الى الحصن : وهو من جند العرب ؟ وكيف نجا منه ؟ » • ثم فكر في الامر قليلا وقال : « استحلفك يا أخا العرب بمن تعبد أن تخبرني من أنت ؟ ومن تعبد حتى أستحلفك به ؟ » • قال : « ما لك ومن أعبد ؟ » •

قال : « أسمع أن العرب أهل عهد وذمام ، واني أبوح لك بحقيقة أمري اذا وعدتني بأن تنجز أمرا أطلبه منك » •

قال : « قد أعدك ولا أستطيع الوفاء فليس أمري بيدي » •

قال : « أعلم ذلك ، وأنا لن أعاهدك على ما لا يريده أميرك ، فانه اذا عرف من أنا قد يطمع في قتلي ، وما أنا بخائف من الموت » •

قال : « مـاذا اذن ؟ » •

قال : « عدني ، وأقسم انك ستفعل ما أقوله لك ، ولو بعد مماتي »•

فارتاب زياد في الامر ، وعجب لطلبه هذا ، وقال في نفسه : « ان للرجل سرا عميقا لا بد من معرفته ، فقال : « أعاهدك على شرف العرب وشهامتهم أني أفعل ما تريده الا نجاتك من الموت • قـل مـا بـدا لـك » •

فقال أركاديوس : « أما وقد وعدتني فاني أعترف لـك بأنـي أركاديوس ابن الاعيرج ، وليفعل بي أميركم ما يشاء ، وقد فهمت مـن حديثك أنك دخلت الحصن ، وظهر لي أنك تستطيع الدخول بين جند الروم بغير أن ينكشف أمرك ؛ فرجـائي اليك أن تحتفظ بهـذه السلسلة وهذا الصليب ، حتى اذا قضي علي تدفعهما الى صاحبتهما أرمانوسة سرا ، وتقول لها أن أركاديوس مات شهيدا » •

فعندما سمع زياد كلامه تعجب عجبا لا مزيد عليه ، ولم يفهم معنى هذه الرسالة لعلمه بما بين القبط وبين الروم من عداوة شديدة ، فكيف يصل هذا الصليب اليه وهو لأرمانوسة ، فأراد أن يستطلع جلية الخبر فقال له : « وما العلاقة بينك وبينها ؟ » .

قال : « هذا ليس لك ، ولا هو من شأنك ، فقد عاهدتني أن تفعل ما أطلبه منك ، وهذا ما أرجوه ، فأما أن تفي بالوعد أو تخلفه » .

قال : « أما الخلف فحاش لي أن أرتكبه ، ولكنني أريد الافصاح لعلي أستطيع أن أنقذك من الموت » .

قال : « قلت لك أنك لا تستطيع ذلك ، ثم تقول الآن أنك تفعله ؟ أتهزأ بي دع عنك الوعود وافعل ما أقوله لك » .

قال : « أترضى بالموت ولا ترضى افشاء سرك » .

قال : « ان الموت أسهل علي من الافشاء » .

فقال زياد : « أستحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب ، اذا كنت تحبها ، أن تقول الحق ولا تخف ، فان تصريحك بالحقيقة أنفع لك » .

فأجفل أركاديوس عند ذلـك وقال : « أراك شديد الميل الى معرفة علاقتي بأرمانوسة ، وتستحلفني باسمها كأنك تظن اني أحبها » .

قال : « وهل في الحب عـار ؟ فاذا كنت لا تريد الافشاء خوفا من غضب أبيك فثق أني أكتم عنه وعن سواه أمرك فقل ولا تخف » .

فقال : « أما وقد بلغ الامر بيننا هذا الحد فقل لي من أنت ؟ » .

فقال : « لست من جند العرب ، وكفى ، فقل ولا تخف » .

ففكر أركاديوس قليلا فلاح له أن الرجل قد يكون من جواسيس المقوقس الى العرب ، أو ربما كان من جواسيس أرمانوسة ، فاستبشر به وقـال : « أما والحال كذلك ، وقد أردت بي خيرا فأبوح لـك بأني أحب أرمانوسة وهي تحبني ، وقد أخذت هذا الصليب تذكـارا منها

لا يعلم به أحد سواك الآن ، وحبي لها سر لا يعلم به أبي ولا أحد من جند الروم . وهذه حكايتي والسلام ، فافصح أنت الآن وقل لي من أنت ؟ » .

قال : « أنا من بعض موالي أرمانوسة ، وقد جئت هذا المعسكر فلم يسيئوا الظن بي لأن أصلي عربي . أما وقد علمت الآن حقيقة أمرك فثق بالنجاة على يدي باذن الله ، وها أنذا عائد الى الامير » .

قال أركاديوس ، وقد توسم فيه الخير : « لقد وثقت بك وثوقا تاما ، وأنت تعلم اني أستطيع أن أكافئك خيرا ، فأبذل جهدك وصن سري » .

فعاد زياد الى الامير عمرو ، وقد صمم على بذل الجهد في انقاذه ، ولكنه لم يصل الا وقد ركب عمرو ، وصاح في الناس : « النفير النفير » . وأخذ الجند في التأهب لمهاجمة المدينة ، فلم يملك فرصة لمخاطبته في شأن أركاديوس ، ولاح له أنه ربما استطاع اطلاق سراحه ، والناس في شاغل عنه بالحرب .

- ١١ -

العرب في بلبيس

كانت أرمانوسة في اطمئنان على أركاديوس ، لظنها أنه سار الى الحصن كما قدمنا ، ولكنها أصبحت في خوف على نفسها من العرب ، لم يكن يخفف من وقعه الا ما علمته من اتصال أبيها بهم .

أما حاكم بلبيس فأخذ في الاستعداد للدفاع ، فأعد الجند وفرقهم

على الاسوار فرقا ، فلما أصبح ورأى العرب تأهبوا للهجوم على المدينة ، نادى الجند وجاء الاساقفة والقسيسون فصلوا فيهم ، وحرضوهم على الثبات • وقرأوا الاناجيل ، وحملوا الصلبان والاعلام ، ورشوا الجند بماء المعمودية • وكان عندهم زجاجة منه جاءتهم من القدس ، فاحتفظوا بها من أزمان طويلة ، فلما اجتمع الجند في ساحة المدينة للصلاة جاءوا بالزجاجة وصبوا منها شيئا في وعاء كبير فيه ماء ، وأخذوا من ذلك الماء ورشوا به الجند ، وحملوا الشموع والمباخر ، وتفرقوا على الاسوار تأهبا للقتال •

وأطل الحاكم من أعلى السور ينظر الى العرب ، فرآهم قد ركبوا خيولهم واصطفوا صفوفا ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم ، وتقدم فارس منهم يطلب المبارزة ، وأخذ يجول على جواده مناديا : « البراز البراز » حتى الظهيرة ، فلم يخرج اليه أحد ممن على السور ، فعاد الى معسكره ، فاجتمع الامراء وتشاوروا فرأى عمرو أن يسرع القوم باقتحام الاسوار قبل أن تأتي المدينة نجدة من حصن بابل • وسرعان ما تقدم العرب الى الاسوار وأخذوا يتسلقونها •

وكانت أرمانوسة تنظر من نافذة قصرها الى العرب وحربهم ، فلما رأتهم يتسلقون الاسوار اضطربت وخافت خوفا عظيما ، ونادت بربارة فجاءت تجري وهي تقول : « لا تخافي يا سيدتي ، ان لنا على أمير العرب عهدا كما تعلمين » •

ثم سمعنا ضجيج أهل المدينة وصراخهم فأيقنتا أن العرب دخلوا بلبيس ، فصاحت أرمانوسة : ويلاه يا بربارة قد قتلنا ! وأمرت الحراس باقفال أبواب القصر والتحصين فيه خوفا من الفاتحين • وجعلت تسترق النظر من النافذة فاذا بجيش الروم قد فر ، وأهل المدينة في هرج لا يلوون على شيء ، والعرب قد انتشروا في الحديقة ، وجاء أحدهم

يطرق باب القصر ، فلم يجسر أحد من الخدم أن يفتح خوفا على أرمانوسة ، فسمعوه يقول : « افتحوا . لا تخافوا . اني رسول من الامير عمرو الى السيدة أرمانوسة » .

فلم يصدقوه ، ولما ألح في القول أطلت بربارة من نافذة فوق الباب تستوضح أمره ، فأجابها بالقبطية أنه رسول اليها من عمرو ، فعجبت للباسه العربي ، وكلامه القبطي ، فقالت : « ماذا تريد ؟ » . قال : « افتحوا . اني أريد أن أكلم السيدة أرمانوسة في أمر ذي بال من الامير عمرو » . فلم تصدقه فأخرج من جيبه السلسلة وفيها الصليب . وأشار بها اليها ، فلما رأت بربارة السلسلة عرفتها ، وأسرعت الى سيدتها تقص الخبر فصعقت له ونادت في خدمها أن يفتحوا له الباب . فدخل مسرعا الى أرمانوسة ، وهي في خوف شديد . فلما رأته عرفت انه الرجل الذي كان مع مرقس يوم جاءها الى الخيمة وهي عند يوقنا ، فقال لها : « لا تخافي يا مولاتي . ان الامير عمروا قد أرسلني لأدخل السكينة على قلبك فانك في أمان من هول ما ترين أنت وكل من يأوي اليك » . فأسرعت اليه ، وأخذت السلسلة من يده وقالت : « من أين هذه ؟ » . وحدقت فيها فاذا هي سلسلتها وصليبها . فاضطرب قلبها وجزعت وصاحت به قائلة : « كيف وصلت اليك ؟ وأين صاحبها ؟ »

قال : « لا تجزعي يا سيدتي ان صاحبها في خير ، وهو أركاديوس بن الاعيرج ، وقد عرفت قصته ، وسأقص عليك خبره ، فلا تخافي » .

فقالت : « قل حالا ، فاني لا أستطيع صبرا . أين هو ؟ وكيف وصل اليكم ؟ » . فهمس في أذنها : « انه أسير في معسكر العرب ، ولا خوف عليه لأنهم لم يعرفوه ، ومتى انقضت الحرب

أسعى في اطلاق سراحه » .

قالت وقد اشتد قلقها ، واضطربت جوارحها : « قل الآن وافصح ، كيف وصل الى المعسكر ؟ .. يا ويلاه ! أسر أركاديوس يا بربارة ! » .

فهمت بربارة بسؤال زياد عن أمره فقال : « ولكن قبل أن أقص الخبر خذوا هذا العلم وانصبوه على باب القصر ، ليعلم الجند أنكم في ذمتنا » .

فنادت الخدم ، فأخذوا العلم ونصبوه على الباب ، وجلس زياد يقص عليهما حكاية أركاديوس كما علمها منه ، وأرمانوسة كلها آذان ، وقد امتقع لونها وخفق قلبها واصطكت ركبتاها وما صدقت أن جاء على آخر الحكاية فقالت : « وهل هو أسير عند العرب الآن ؟ قد يكونون أصابوه بسوء وبخاصة اذا عرفوا انه ابن الاعيرج » .

قال : « انهم لم يعرفوه ، وهم لا يفتكون بأسراهم غدرا ، فلا تخافي . وها أنذا ذاهب لاستجلاء خبره وأعود اليكم » . وخرج زياد وقد ترك أرمانوسة على مثل الجمر تلطم كفيها باكية وتصيح : « يا ويلاه ! أأركاديوس حي ؟ آه من الدهر ! كم يعمل على كيدي ! وحتى متى ؟ » .

فجعلت بربارة تخفف عنها وتعزيها ولو أنها لم تكن أقل قلقا منها ، وذهب زياد توا الى معسكر العرب فرآه يكاد يكون خاليا لاشتغال الرجال بالفتح ، وقصد الى محبس أركاديوس ، فذهل ذهولا عظيما لما دخله ولم ير به أحدا ، فخرج يطوف المعسكر يبحث عنه فلم يقف له على أثر ، فعاد الى الخيمة يفحص ما فيها لعله يستطلع شيئا عنه ، فرأى أمراسا من الشعر مقطعة بغير آلة حادة ، وعلى بعضها أثر الدم ، فظن أن الغزاة فكوا وثاقه وضربوه أو قتلوه ولكنه لم ير جثته ، فوقع في حيرة وحزن شديدين ، ورثى لحال

ارمانوسة عندما تعلم ذلك ، فوقف لا يدري ماذا يعمل •

فلنتركه في حيرته على أركاديوس ، ولنعد الى حصن بابل لنرى ماذا كان من أمر أبيه وأهل الحصن بعد خروجه •

* * *

تركنا الاعيرج في غرفته بعد ذهاب أركاديوس ، وقد حمي غضبه لما تخيله من خيانة المقوقس وهم بأن يدعوه ويؤنبه ، ولكنه آثر السكوت الى أن تنقضي الحرب ، وقد أضمر الشر •

وفي صباح اليوم التالي جاءته رسله ينبئونه بوصول العرب الى بلبيس بعد أن فتحوا الفرما ، فاضطرب ، وبعث الى أركاديوس ليشاوره في الامر ، فقيل له ان أركاديوس ليس في قلعته ، فاستقصى خبره ، فعلم انه خرج مساء أمس ولم يعد بعد • فقلق ، وعجب لذهابه بغير استئذان ، في ابان الحرب ، فأرسل الى المقوقس ، فجاءه وأخذا يتدارسان ما جاء من الانباء ، وسأله عن أركاديوس فأجاب بأنه لم يره • وما عتم أن شاع خبر غياب أركاديوس في أنحاء الحصن ، وأخذ الجند والقواد والناس يتساءلون ، فلم ينبئهم بخبره منبيء ، فعظم ذلك على الاعيرج ، وخارت قواه ، لأنه كان يعتمد على أركاديوس في أمر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها ، فبعث من يفتش عنه في ضواحي الحصن لعله يكون قد ذهب في حاجة فلم يقفوا له على أثر أو خبر ، فخامرته الشكوك ، فكان يتهم المقوقس باغتياله ، ثم يراجع نفسه فيظنه ذهب على جواده لتفقد الحصون فكبا به الجواد فمات • فشغل بهذه الهواجس عن اعداد المعدات وتحصين الحصون • ولاح له بعد لأي أن ينفذ جماعة من خاصته يبحثون عنه في الاماكن المجاورة ، وأمرهم أن يستقصوا خبره ما استطاعوا ، فتفرقوا في ضواحي

الحصن ، وأوغـل بعضهم شرقـا الى جوار بلبيس ، فعثروا بمـرقس واقفا ومعـه جواد أركاديوس وسيفه ودرعـه ، وقد فارقنـاه هناك ينتظر عودة أركاديوس ، فأمسكوه وسألـوه عن أمره وعن أركاديوس . فقال انه لا يعلم شيئا ، فجاءوا بـه الى الاعيرج ، فلما رآه الاعـيرج ومعه جواد ابنه وعدته وسلاحـه وثيابه صاح بـه : « ويلك ! أيـن أركاديوس ؟ » . وهدده بالقتـل أو يصدقه القـول ، فلم يزد علـى قوله انه كان مارا بجوار بلبيس فرأى الجواد والعدة ، ولا يعرف شيئا عن صاحبهما . فقال له : « ومن أيـن أتيت بهذا الثوب ؟ انـه ثـوب أركاديوس . لعلك قتلته وأخذت أسلابه ؟ » . قال ذلك وبعث الـى المقوقس ، فلما جاء سأله عن الرجل فصرح انه من خدم ابنه أرسطوليس ، وسألـه فأصر على الانكـار ، ولكنهم رجحوا الشبهة عليه ، وارتابوا في أمره ، ولا سيما عند رؤيتهم سيف أركاديوس ملوثا بالدم وكـان هذا على أثر مقتل خاطف مارية ليلا . فاشتد غضب الاعيرج ، وتراكمت عليه الظنون ، وقال للمقوقس : « لا أعرف قاتل ولدي الا منـك ، فان مرقس هذا من رجالـك ، وقد وجدنـا جواد ابني وسلاحه وثيابـه معه ؛ فأنت مطالب بدمه ، واذا كـان قد قتله فدم الاقباط كلهم لا يكفيني دية لـه » . فعجب المقوقس لذلـك الحادث الغريب ، واستأذن الاعيرج في استجواب الشاب ، فخلا به هو وأرسطوليس ، وبذلا الجهـد في استنطـاقه فلم يفيدا منه شيئا عن أركـاديوس ، فهدداه بالقتـل فقال : « اقتلاني أو فافعلا بي ما شئتما » .

فأمسكه أرسطوليس وقال له : « أما أرسلتك بكتاب البطريرك الى أبي ؟ فقص علينا ما فعلت بعد ذلك » . فحكى لهمـا من الحكـاية ما لا يلقي شبهة على أركاديوس ، وقد اعتزم أن يحافظ على سر أركاديوس جهده ، ولو آل الامر الى قتله ، لأنه كـان عالمـا خوفه من أبيه اذا علم

بما بينه وبين أرمانوسة ؛ وكـان يشعر بفضل أركاديوس عليـه . فأبت عليه شهامته الا الانكـار خوف الايقاع به ، فبقي مصرا . وعبثا حاول المقوقس وأرسطوليس استجوابه .

وأخيرا قال له المقوقس : « اعلم يا مرقس انك بانكارك هذا تجر ويلا عامـا على الاقباط كلهم . وأنت تعلم أمرنـا مع هؤلاء الروم ، وما بيننا وبينهم من الضغائن ، ونحن لا نكـاد نستطيع دفع الشبهـة ، فاذا كنت أنت القاتل فقل وعلينا انقاذك من القصاص ، واذا كنت تعرف القاتل فبح ونج نفسك ونجنا ؟ »

فقال مرقس : « لا أعرف شيئا عنه ، ولا أعلم أن هذا الجواد وتلك الثياب له ، ولكني لا أرى ما يدعوكم الى الظن بأنه قتل » .

فقال المقوقس : « وما أدراك أنه لم يقتل ؟ وكيف يكون حيـا وتسلب منه ثيابه ودروعه ؟ » .

قال : « لا أعلم ، ولكني أقول أنه لم يقتل » .

قال : « وهل أنت واثق من أنه لم يقتل » .

قال : « نعم اني واثق من ذلك ، وأطلب اليـك أن لا تلح في السؤال الى ما وراء هذا الحد ، فاني لا أجيبك ولو قطعت رأسي » .

فقال المقوقس : « كيف تقول انك لا تعلم عنه شيئا ، ثم تقول انك واثق من حياته ؟ » .

قال : « قلت لك يا سيدي اني لا أجيب عن سؤال آخر ولو قطعت راسي ، وهذه هي حياتي بين يديك فافعل ما تشاء » .

فأمر به فأخرجوه مغلولا الى المخفر ، وانفرد المقوقس بابنه فقال : « ما قولك يا أرسطوليس ؟ » .

قال : « أرى في الامر سرا لا يعلمه الا الله ، ويلوح أن مرقس آلى على نفسه ليكتمن السر ، ولو كـان هناك فائدة من قتله لقتلناه ، ولكن

قتله يزيد المشكلة تعقيدا ، فلنحبسه الى حين . وما دام قد أكد أن أركاديوس حي ، فلنتعهد للاعيرج بأننا مطالبون بدم ابنه أو نجده » .

وفيما هما في الحديث اذ جاءهما رسول الاعيرج يدعوهما اليه ، فذهبا فرأياه يتقد غيظا ، فلما دخلا صاح وهو لا يدري ماذا يقول : « اعلم يا ابن قرقت (لقب المقوقس) انني لا أطلب دم ابني الا منك ، والقطرة الواحدة منه تساوي أهل مصر جميعا » .

فجعل المقوقس يهدىء من غضبه ويقول : « لا تعجل بالامر . فان الرجل لا يجزم بموته . وأنا الكفيل لك بحياة أركاديوس ، وها أنذا وابني بين يديك : لا نخرج من الحصن الا عند عودته سالما . وما أدرانا ؟ فلعله عند العرب ؟ أو لعله غائب في مهمة ؟ على اني لن أفتأ استدرج الرجل حتى نعلم منه الحقيقة ، والفرج يأتي من حيث لا ندري »

ففكر الاعيرج برهة ثم نظر الى المقوقس : « اعلم أيها الحاكم اني ملق تبعة فقد ابني عليك وعلى ابنك : وكفاكما خداعا ، وأقسم بشرف الروم ورأس الامبراطور هرقل لأمزجن دماءكم بمياه النيل اذا لم تأتوا بولدي أركاديوس حيا » .

فاضطرب المقوقس ، وخشي العاقبة ، لعلمه أنه حقا يخادع الروم ؛ وأسر لنفسه قائلا : « ان العرب لا يلبثون أن يأتوا ظافرين لا محالة . فاذا غلبوا يرفعون عنا هذه التبعة . انما الحيلة في اقناع الاعيرج بالصبر » . ثم خاطب الاعيرج قائلا : « اني أشاركك القلق على أركاديوس وان ضياعه ليعز علينا جميعا ، لانه من نخبة رجالنا ، بل هو عمدتنا في حربنا مع هؤلاء العرب ، وهذا فضلا عن أننا في حال لا تأذن لنا بالانقسام فيما بيننا ، ولا خفي الا سيظهر ، وقد قلت لك اننا مطالبون

بدمه ، فاصبر ان الله مع الصابرين » • فقال : « سأصبر بضعة أيـام ، وأنتما في الحصن لا تخرجان منه ، فبثا العيون والارصاد للبحث عنه » •

ثم تركهما وخرج الى الحصون ، وأوصى قواده أن يمنعوا المقوقس وابنه من الخروج مهما يكن السبب •

أما مرقس فلبث في سجنه يفكر في حاله وقد تحير في أمره ، لا يدري أيبقى على الكتمان فيعرض نفسه للخطر ، أم يبوح بحقيقة الحال فيعرض أركاديوس لغضب أبيه ؟ وفيما هو في ذلـك اذ جاءه أرسطوليس وعلى وجهه أمارات الكآبـة ، فلمـا رآه مرقس ازداد بلباله ، وشعر ان كتمـانه هو السبب في هذه المصائب • فقال أرسطوليس : « أهكذا فعلت بنا يا مرقس ؟ » •

قال : « وماذا فعلت يا سيدي ؟ » • قال : « بينما أنت تؤكد لنـا بقاء أركاديوس حيا ، اذا بك تكتم عنا حقيقة حاله • والاعيرج مصر على طلب ابنه منا ، وقد اتهمنا بقتله ، وأنت تعلـم أمرنا مع هؤلاء الروم ، وقد بذلنا الجهد حتى لا تظهر لهم دخيلتنا ، أفنفتح هذا الباب للايقـاع بنـا ؟ » •

ففكر مرقس برهة ثم قال : « وكيف يتهمكم بقتله وقد خرج وأنتم لا تعلمون ؟ وما شأنكم أنتم وشأني ؟ » •

قال : « ومن يصدق كلامنا هذا ، والاعيرج لو عرض شكواه هذه على ديوان القسطنطينية لصادف أذنا صاغية ، وعادت العاقبـة وبـالا علينـا » •

فصمت مرقس قليلا ثم قال : « وما رأيك اذا جاءهم كتاب منـه ممهور بخاتمه ينبئهم بأنه على قيد الحياة ؟ » •

فقال أرسطوليس : « ومن أين لنا ذلك ؟ » • قال : « هب أنه جاءهم مثل هذا الكتاب ، فهل يكفون عن اتهامكم ؟ » •

قال : « لا شك انهم يكفون ، ولكن أنى لنـا هذا ؟ » • قال : « اذا أذنتم لي بالخروج من الحصن أتيتكم بالكتاب » •

فعجب أرسطوليس لهذا السر الغريب ، ولم يفهم كيف يستطيع مرقس هذا الامر ، وكيف يقوله كأنه واثق من عمله ؟

فقال : « أتستطيع هذا حقا يا مرقس ؟ » •

فقال : « نعم يا سيدي ، على أن لا تسألوني كيف آتي بالكتاب ، ولا تقولوا للاعيرج اني ذهبت لآتي به ، بل قولوا اني ذاهب للبحث عنه أسوة بما يفعل الآخرون » •

فبهت أرسطوليس ثم قال : « مهلا حتى أطلع أبي على ما تقول » •

وخرج الى أبيه فاذا هو مبلبل الفكر لا يستطيع الكلام لفرط ما ألم به ، فلمـا دخل عليه حياه فقال له : « ما وراءك يا أرسطوليس ؟ » • فقص عليه الخبر •

فقال : « ما بـال هذا الرجل يعرض علينا من المعجزات أنواعا ؟ ولمـاذا هذا التكتم ؟ ان في المسألة سرا عميقا ، ولكـنني أخاف يـا أرسطوليس أن يتخذ خروجه من الحصن ذريعة للفرار ، ومن يضمن لنا عودتـه ؟ » •

قال : « لا حيلة لنا فيه ، وهو مصر على كتمان أمره ، فأرى أن تتحمل التبعة في ارساله لعله ينفعنا ، أما بقـاؤه مسجونا فلا نفع لنـا منه ، وهب أنـه فر فالتبعة علينا لا تزيد ولا تنقص ! لأن غـاية الامـر أن نتهم بقتل أركاديوس ، وهذا واقع فعلا • هذا واني أستشف من كلام مرقس الصدق ، ولا أظنه يخوننا ، وقد عرفناه من زمن ، وعلمنا بلاءه في خدمتنا » • فأطرق المقوقس برهة ثم قال : « أترى أن نثق به ونستأذن الاعيرج في ارساله ؟ » •

قال : « هذا ما أراه ، فلعله يأتينا بالخبر اليقين ، أو لعل أركاديوس

يعود من تلقـاء نفسه » •

ثم ذهبا الى الاعيرج وقالا له : « ان مرقس هذا أقدر النـاس على انبحث عن ابنك ، فلنرسله عسى أن يقف على كنه الامر » •

فقال : « وكيف نطلق سراحه وهو الذي قتله أو علم بقتله ، وقد قبضنا عليه وجواد أركاديوس وعدته وثيابه معه ؟ » •

فقال المقوقس : « يلوح لي أن الرجل بريء من القتل ، ونحن نعرفه منذ أمد بعيد ، ولا نرا محلا للتهمـة : فأرى أن نرسله في هذه المهمـة كمـا أرسلنا سواه ، فلعله يعود بالخبر اليقين » •

فقال الاعيرج : « فليذهب ، وعليكما عبء ما يفعل » •

فأذعنا وجاءا الى مرقس فأطلقا سراحه ، وأوصياه بالعودة عـلى عجل ، فودعهما وخرج •

* * *

أما زيـاد فانه لمـا افتقد أركاديوس في محبسه ولم يجده ، ولم يعثر عليه في ناحية من نواحي المعسكر ، عاد الى بلبيس ليطلع أرمانوسة على الامر • وكـانت أرمانوسة في قصرها ومعها بربارة والخـدم ، وهي على مثل الجمر في انتظـار زياد • فلمـا أبطأ عليها أخذت تندب سوء حظها ، وتقول : « يا بربارة ، ويلي قتلوا أركاديوس ! أيـن أنت يـا أركاديوس ؟ آه من جبروت الدهر ! » • وفيما هي في ذلـك اذ سمعت غوغاء في الدار ، وجاء خادم يقول لهـا أن رجلا رومانيا بالباب ، فخرجت بربارة اليه فاذا به أركاديوس يقرع الباب وعلى وجهه امـارة الرعب ، وعلى زنده آثـار الدم ، فلما رآها صاح بهـا : « أين أرمانوسة ؟ هل هي في خير ؟ » •

قالت : « نعم في خير » • فدخل مسرعـا وهو لا يكـاد يصدق انه

يراها على قيد الحياة ، فلما وقع نظره عليها لم يزد على قوله : « الحمد لله . أنت حية » فدهشت وقالت : « ما خبرك يا حبيبي ؟ وكيف أتيت ؟ هل رأيت زيادا ؟ » .

قال : « لا ، لم أره » .

قالت : « كيف نجوت من الأسر ؟ » .

قال : « نجوت منه بالرغم من الحبال التي شدوا بها وثاقي ، وما ساعدني على تمزيقها الا خوفي عليك ، فقد كنت في الخيمة بعد ذهاب زياد بالصليب الذي أرسلته اليك ، فسمعت قرع الطبول ونفخ الابواق والعرب يهمون بالهجوم على بلبيس ، فوقفت أرى ما يكون من أمرهم ، فاذا بهم قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة ، فأيقنت أنهم سيصيبونك بسوء ، فهبت عواطفي واتقد دمي حتى غاب رشدي ، وهممت بالمجيء للدفاع عنك عسى أن أموت دونك أو أنقذك ، فحاولت قطع الوثاق فلم أستطع ، لأنه كان أمراسا مجدولة من الشعر ، فأصبحت كالمجنون ، وأخيرا أسندت ظهري الى عمود الخيمة ، وجعلت أحك بالحبل به ذهابا وايابا ، فشعرت بنتوء حاد بارز من العمود فجعلت أمر الحبل عليه كأني أحزه به حزا ، وقد شعرت بقوة غريبة ، فكنت أحك ظهري بالعمود صعودا ونزولا ، وأحاول التملص من الوثاق وأضغط ذراعي بعنف ، حتى غرز الحبل في لحمي وأنا لا أشعر ، فانقطع الحبل بعون الله ، فأسرعت الى الاسوار لا ألوي على شيء ، وجئت مسرعا وأنا لا أكاد أصدق أني ألقاك ، فالحمد لله على سلامتك »

فأعجبت أرمانوسة بشهامته ، وتناثرت الدموع من عينيها لعظم تأثرها ، وقالت : « حماك الله من كل سوء ، أنا في خير ، وقد من الله علينا باللقاء »

فقال : « لمن هذا العلم الذي على باب القصر ، قالت هو علم عربي

بعثوه الينا لحمايتنا من السلب ؛ وكأني بهم لا يريدون بنا سوءا » .
وغسلت له جرحه فاذا هو طفيف نتج عن شدة العنف في محاولته قطع الوثـاق ، فضمده ولبس الثياب . وأطل من النافذة فرأى العرب قد أمعنوا في المدينة قتلا ونهبـا ، فثارت حميته الرومانية . وجعل يتململ ويحزن على ما أصابه العرب منهم فقالت أرمانوسة : « ما بالـك تتململ ؟ » . قال : « أتململ أسفا على ما حل بجندنا ، ألا ترين العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ؟ مهلا سوف يلقون منا في حصن بابل ما يردهم على أعقابهم » .

ولم تشأ أرمانوسة أن تخبره بمـا دار بين أبيها وبين العرب من الاخـذ والعطاءخوفا من الفضيحة عند الروم . فقالت : « حمـاك الله يا أركاديوس من نوائب الزمان ، فلو كان في جند الروم مثلك لمـا مكن للعرب في هذه البلاد ، فاجلس الآن واسترح لنرى ما يأتي به الغد » .

قال : « آه يا أرمانوسة ، لا أستطيع البقاء على هذا الذل ، ولا أطيق أن أرى الروم يذبحون ذبح الاغنام ، وان نفسي تحدثني بـأن أتقلد الحسام وأهجم على العرب لأروي غليلي من دمائهم » .

قالت : « لا تلق بنفسك الى التهلكة ، وسوف تلقاهم في الحصن ، وما لنا وللحرب يا أركاديوس ، فأنا لا أطيق فراقك » .

فعاد صوابه اليه وقال : « أما رأيت مرقس يـا أرمانوسة ؟ » .

قالت : « لا لم أره ، ولماذا ؟ وكيف وقعت في الاسر ؟ قل لـي » .

قال : « خرجت من عندك الى المكان الذي واعدت مرقس فيـه ، فلم أقف له على أثر ، وفيما أنا أبحث عنه وصل العرب بخيولهم وقبضوا علي ، فوالله لو كنت على ظهر جوادي ما استطاعوا الي سبيلا » . ثـم تذكر جواده وثيابه فقـال : « ولا أدري كيف ذهب مرقس بثيابـي والجـواد ، وأخشى أن يكون رجالنا قد قبضوا عليه وساقوه الـى

الحصن واتهموه بقتلي : وربما قتلوه ظنا منهم انه قتلني » .

فقلقت أرمانوسة على مرقس وقالت : « مسكين مرقس ، انه لا يستحق ذلك ، وعسى أن يكون في مأمن ، وسننظر في أمره . أما أنت فابق هنا ريثما ينجلي الامر » .

فتنهد تنهدا عميقا وقال : « أتعلمين انه لا أشهى الى قلبي من جوارك ، ولكن النجدة والمروءة يقتضيان اللحاق بالجند ، وهم في حالة حربهم مع العرب واني لا أدري ماذا أبدي لوالدي عندما أعود ولا أظنه يصدق قولي مهما بالغت في الاعتذار » .

قالت : « غدا نرى ما يكون » . وقضوا بقية اليوم وباب القصر موصد .

وباتوا ليلتهم ، فلما جاء الصباح أقبل بعض رجال العرب يقودون رجلا موثقا ، فلما دخلوا به القصر اذا به مرقس ، فسألوا أرمانوسة عنه ، لأنهم قبضوا عليه عند الاسوار فادعى أنه من خدم السيدة أرمانوسة . فقالت : « نعم هو من خدمي » . ورحبوا به ، ولما رأى أركاديوس فرح فرحا عظيما ، وقص عليه قصته،، وقال له ان المقوقس وابنه متهمان بقتله ، وأنه اذا لم يعجل بالمسير سعى الاعيرج وسجنهما وقد يقتلهما .

فصاحت أرمانوسة : « ويلاه يا أركاديوس ان أبي وأخي في خطر الهلاك وحياتهما في يدك » .

فقال : « لا تخافي يا أرمانوسة على انقاذهما والذود عن كل من تحبين . لا تخافي ، ولولا خوفي عليك لأسرعت الى الحصن ، ودفعت هذه التهمة عنهما ، انما يجب أن أبقى هنا لأرى ما يؤول اليه أمرك » .

قالت : « أنا لا أريد أن تذهب الى الحصن الآن ، ولا أن تحضر المعارك ، ولكني لا أريد أن يهلك أبي وأخي ، فان الروم ظلمة ، لم يخرج

منهم شهم غير أركاديوس » •

فقال أركاديوس لمرقس : « وكيف حالهم في الحصن ؟ » • قـال : « فارقت أباك قلقا عليك ؛ وقد بث العيون والارصاد ؛ وبعث الرسل للبحث عنك ، ولمـا لم يعثروا عليك شدد النكير على سيدي المقوقس وابنه أرسطوليس ؛ وهو ينوي الايقاع بهما اذا لم يعلم خبرك • وأنـا الآن أعترف لك اني جئت على نية أن أزوّر كتابا عن لسانك وأختمـه بخاتمك الذي عرفت منك أنه مع سيدتي أرمانوسة ؛ وأذهب بالكتـاب الى أبيك بأنك حي وأنك آت عما قليل » •

فقال أركاديوس : « أصبت يا مرقس ؛ ونعم الرأي رأيك • الي بقطعة من البردى لأكتب الكتاب » • فلم يجد شيئا من البردى هنـاك فقطع قطعة من قماش كان غطاء للفراش ، وهو نسيج كتاني يعرف بالقباطي من صنع مصر ، كانوا يستعملونه للكتابة ، وعليه كتبت المعلقات السبع وعلقت في الكعبة فكتب الى أبيه يقول ما معناه :

« أبي العزيز المحترم

« لا ألومكم على قلقكم علي لخروجي من الحصن وأنتـم لا تعلمون ، وسأطلعكم على ما حملني على ذلـك فيمـا بعد • وأما الآن فاني أكتب اليكم لتطمئن قلوبكم فأنا حي مقيم ببلبيس ؛ بعد أن أسرني العرب فنجوت من الأسر ، وعرفت من أحوال هؤلاء العرب ما سأقصه عليكم ، وفيه قوة لنا • ولولا جراح أصابتني في ذراعي لجئت اليكم بدل هذا الكتاب ، ولكني سأسرع حالمـا أستطيع الركوب . وذلك قريبا ان شاء الله ••

« كتبه ولدكم أركاديوس »

فحمل مرقس الكتاب ، وتقدم الى أرمانوسة وسجد أمامها وقال :

« أرجو منك يا سيدتي أن تشفقي على عبدتك مارية » .

قالت : « وما خبرها ؟ قال : « مررت بالقرية في طريقي اليك وأردت الدخول اليها فأمسكني العرب وجاءوا بي اليك ، وأخشى أن يكونوا قد أصابوا مارية بسوء ، فأستحلفك بسيدي أركاديوس هذا أن تنظري في أمر انقاذها » .

فأجابه أركاديوس قائلا : « ان لك علينا أفضالا تقضي بأن نذود عنك وعن مارية جهدنا ؛ لا تخف ، كن براحة بال » .

قال : « ولكنني لا أستطيع السفر قبل أن أعلم ما آل اليه أمرها في هذه الحرب » .

فالتفتت أرمانوسة الى بربارة كأنها تستشيرها ، فقالت : « الرأي يا سيدتي أن نبعث الى الامير عمرو فنخبره أن أهل مارية ممن ينتسبون الينا ، ونأتي بهم جميعا ليكونوا معنا » . فقالت : « أحسنت يا بربارة ومن يذهب ؟ » قالت : « زياد وهو لا يزال هنا » .

ثم خرجت فأتت به ، فلما رأى مرقس سلم عليه وصافحه وسأله عن أمره ، فقصت بربارة القصة عليه ، فقال : « لا تخف يا مرقس ، فان أهلكم في ذمتي وها أنذا ذاهب لأنظر في شأنهم » . وخرج .

ولبث الجميع في انتظاره ، ثم دق باب القصر وعلت الضوضاء واذا بالخدم يقولون ان أمير العرب قد جاء يريد الدخول ، فقالت أرمانوسة لأركاديوس : « الأولى أن تختبىء لئلا يراك فيعرفك » فاختبأ في بعض غرف القصر ، وخرجت بربارة لاستقبال الامير ، وهي أول مرة شاهدت فيها مثل هذا الرجل ، فرأته كما تقدم وصفه ، وقد أحاط به جماعة من قواده ، وفي مقدمتهم وردان المترجم ، فأسرعت بربارة بهم الى بهو كبير جلسوا فيه . فقال وردان : « ان الامير جاء بنفسه ليطمئن أرمانوسة بألا خوف عليها ولا على أحد ممن في منزلها » . فقالت بربارة : « اننا

نعجز أيهــا الأمير عن ايفاء الشكر حقه فقد أمنتنا وجنبتنا الحــرب وأوزارهــا »

ثم خرجت وعادت بسيدتها ، وقد لبست أحسن ما يكون من الثياب الفاخرة : وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جمــالا ؛ فجلست وخاطبت عمروا قائلة : « ان ما أوليتنا من الفضل لا يسعنا القيام بشكره » •

فأجابها عمرو وهو مطرق : « ان هذا في سليقتنا وقد عاهدنا أباك على حمايتك • وساءني كثيرا ما ارتكبه ذلــك الخائن يوقنا من خداعك ؛ ولو أدركناه لعاقبناه شر عقاب • أمــا الآن فاعلمي أنك في ذمتنا ، وأنــا لا نغدر في أعمالنا ، فاذا شئت البقاء هنا بقيت ، واذا أردت المسير الــى أبيك بعثنا معك من يوصلك الى حيث تريدين ، فاختاري » •

فأطرقت أرمانــوسة ثم قالت : « أؤثر الذهاب الــى أبي اذا أذن الأمــير » •

قال : « لك ذلــك » • وكان وردان يترجم بينهما ؛ فقال له عمرو : « هيىء لها من يكون في ركــابها الى حيث تريد ، وكن أنت حــارسا لهــم » •

قال : « سمعا وطــاعة » •

وأرادت بربارة أن تقدم لضيوفها شيئا من الخمر على عاداتهم ، فقال لهــا وردان : « احذري أن تفعلي ذلك لأن الخمر محرم في ديننا ، وليس عليكم الا التأهب للمسير ، وفي صباح الغد نبعث اليكم رجالا يسيرون في حراستكم » •

فشكرته • ثم قام عمرو مودعا وخــرج • وخفت أرمانوسة الــى أركاديوس وأخبرته بما كــان فقال : « اذن أسير أنا أيضا معكم الى قرب الحصن ، ثم انفرد وأدخله وحدي ؛ وأنت تذهبين الى منف » •

وعند الظهيرة جاء زياد ومعه مارية ووالدها ، فطــار مــرقس

فرحا ، وأوصى أرمانوسة بهم خيرا ، وقال لها : « فليذهبوا معكم الى منف لأنهم يكونون في مأمن هناك » ، فوعدته خيرا ، ثم ودعهم وخرج يحمل كتاب أركاديوس الى أبيه .

* * *

لبث أهل الحصن في انتظار مرقس ، ثم سمعوا بسقوط بلبيس ، فتكدر المقوقس كثيرا وخاف على ابنته ؛ ولكنه كان مطمئنا لما لديه من العهود . وفي اليوم التالي وصل مرقس بكتاب أركاديوس ، فدفعه الى أبيه فقرأه . واطمأن قلبه على ابنه ؛ ولكنه بقي في حيرة لا يدري لخروجه سببا . ولما خلا مرقس بالمقوقس أطلعه على ما أتاه عمرو من الجميل مع ابنته وأنها ستكون في منف بعد قليل ، فبعث بعض رجاله لاستقبالها وتشييعها الى قصرها .

ولبث الاعيرج يوما آخر في انتظار أركاديوس حتى جاء ودخل عليه فقبله ورحب به وسأله عن سبب غيابه فقال : « أنت تعلم يا سيدي غيرتي على شرف الروم ، وقد رأيت الجواسيس يأتوننا بالاخبار المتناقضة ، فلم نفهم حقيقة قوة العرب ، فحدثتني نفسي أن أذهب لاستطلاع حالهم ، وأنا أعلم أنك لا تأذن لي خوفا علي ، فخرجت على حين غفلة من الحراس ، على ألا اغيب الا يوما واحدا واثقا من انـي اذا عدت وأخبرتك بما استطلعته تعفو عن عملي .

« فلما وصلت الى جوار بلبيس خشيت أن يكون جوادي ولباسي الفاخر حائلين بيني وبين ما أريد ، فرأيت رجلا من جندنا خارج المدينة ، فتبادلنا الثياب وتركت جوادي عنده ، وسرت الى معسكر العرب ، وكانوا مخيمين أمام المدينة ، وما كدت أن أخرج من المعسكر حتى قبضوا علي وسجنوني ، وبقيت الى أن أقتحموا بلبيس ، فغافلتهم

وقطعت الوثاق ، ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت علمه ؛ فـاذا عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتـل ؛ ولكنهم ، والحـق يقـال ؛ يهجمون على الاسوار هجوم الاسود ؛ ويزأرون كأنهم ذاهبون الى مغنم . ولكننا بحول الله سنبدد شملهم أمام هذا الحصن . فان بلبيس ليست مدينـة حـرب » .

فقال الاعيرج : « بورك فيك ؛ وهم به وقبله وقـال : « انهـا شجاعة فائقة الحد يا ولدي لأنك عرضت نفسك للخطر الشديد » .

فقال : « ولا ينجح الا المخاطر المجازف » .

فقال : « ولكني رأيت على سيفك أثر الدماء ! » . فأجاب في غير اكتراث . « لعله كـان ملوثا من قبل وهذه هي جلية الخبر ؛ ومـا علينا الا الاستعداد والتحصين ؛ فان العرب لا يلبثون أن يقدموا علينا » .

فأمر الاعيرج بالتأهب للقـاء العرب . وبعث الى كبار قـواده . وخطب فيهم حاثـا على الثبـات والدفـاع ناسيا ما لقيـه العـرب من النصر في طريقهم الى الحصن الى ضعف جنود الفرما وبلبيس ، ثـم فرقهم في القـلاع على السور ؛ وأوصى ابنه بتعهدهم وتفقد الاسوار . فبعث أركاديوس رجالا الى خارج الحصن يتفقدون الخنـدق المحيـط بـه ، وأوصاهم أن يبذروا فيـه حسك الحديد بذرا ؛ أي أن يغرسوا الحسك في قاعـه وجدرانه . فاذا هجم العرب على الاسوار حال الخندق بينهم وبينه ، فاذا نزلوا الخندق دخـل الحسك في أقدامهم ؛ وأكثرهم عـراة فتعوق تقدمهـم .

أما أرمانوسة فانها وصلت الى ضفة النيل بموكبها ، وكان أبوها وأخـوها قد علما بقدومها فخرجا لملاقاتهـا ؛ ورحبا بها وسألاها عـن العرب ؛ فروت ما حدث لها معهم ؛ وأثنت على شهامة عمرو فاستبشروا بنجـاح حيلتهما . وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معهـا

الى منف . وأجالت نظرها في الحصن لعلها ترى أركاديوس فتتزود منه بنظرة . فاذا هو يرقبها من أعلى السور عند كنيسة المعلقـة ، فجـرى قاربها وهي تسترق النظر اليه كأنها تودعه وتدعـو له بالسلامة ، وقلبها يخفق وجلا لئلا يصيبه سوء . فقد خيل اليها لما عاينته من شجاعة العرب وبطشهم انه في خطـر . فتناثرت الدموع من عينيها . وكان القـارب قد جرى بعيدا ، وبربارة معها تنظر اليها وتراقب حركاتها ، فأدركت مـا هي فيه فخاطبتها قائلة : « سلمي أمرك الى الله ، وهـو يحرسـك يـا مـولاتي » .

وكانت مارية وأهلها قد ركبوا قاربـا آخـر ، وسارت القوارب تمخر عباب المـاء ، والوقت أصيل ، فلما أشرفوا على ضواحي منف تذكرت أرمانوسة ما كان من أمرها مع أركاديوس وقسطنطين ، وشكرت الله على نجاتها . ولكنها ما زالت توجس خوفا على حبيبها ، فأدركت بربارة ذلك فقالت لهـا : « ما لي أراك غارقة في بحار الهواجس ؟ ثقي بالله وتوكلـي عليه ، فان الذي أنقذك وأنقـذ أركاديوس من مخالـب الموت حتى الآن سيحرسكما الى يوم اللقاء ، وهو قريب ان شاء الله » .

فلما دنوا مـن شاطىء منف ، ورسا القـارب عنـد الرصيف ، تذكرت أرمانوسة تلك الليلة المقمرة التي باحت فيها بسرها لبربارة ، فانقبضت نفسها وغلب عليها الجزع ، فطفرت الدموع من عينيها ، وكان الخدم والحاشية في انتظارهـا على الرصيف ، فاستقبلوها بالأزهـار والرياحـين ، وجاءت الجواري واستقبلنها باسمات الثغور ، يحمـدن الله على سلامتها ، وكن قـد سمعن بما أحدق بها من الخطر في بلبيس ، ورافقنها من الرصيف الى الحديقة . كل ذلك وهـي في شاغل عنهـم جميعا بهواجسها وخفقان قلبها ، وما صدقت أن وصلت الى قصرها حتى دخلت غرفتها ، وكانت بربارة قد تركتها وذهبت لتعـد مكانـا لنزول

خطيبة مرقس وأهلهـا ، وأوصت الخدم بهم خـيرا . ولم تكن مارية المسكينة أقـل قلقا من أرمانوسة لأجـل مرقس . ثم عادت بربارة الى غرفـة سيدتها ، وكانت الغرفـة مزينة بأنواع الرياحـين والأثـاث الثمـين ، فرأتها قد استلقت على السرير ، وأوغلت في البكاء والنحيب ، فأخذت تخفف عنها وتؤملهـا بالفرج القريب .

فتنهدت أرمانوسة وقد خنقتها العبرات ، ولمـا سكن روعهـا قالت : « دعيني يا بربارة من الآمـال الباطلة ، فنحن قد عدنـا الـى حيث كنا ، وعادت مخاوفنا الينا ، وكان ما مر بي في أثناء هذه الغيبـة أضغاث أحلام » . فأمسكت بربارة بيدها ، وجلست الى جانبها وهـي تبتسم لتخفف قلقها وقالت : « كيف تقولين انها أضغاث أحلام ، وقـد نلت ما كنت تتمنين ؟ ألم تكوني في ريب من محبة أركاديوس . وقد رأيته وكلمته غـير مرة ، وتبادلتما عربون المحبة . ووثقت بحبه لك ؟ ألـم يكفك ما رأيت من غيرته عليك وشغفه بك ؟ ألم تكوني في ريـب من أمـر قسطنطين ، وقد تحققت الآن نجاتك من قبضته ؟ أليس هذا بالشيء الكافي الآن ؟ فكيف تقولين انها أضغاث أحلام ؟ » .

فأجابتها أرمانوسة : « أجل ، أنها أضغاث أحلام لأني قد عدت الى هذه الغرفة كما خرجت منهـا ؟ ولم أنل شيئا غير الآمـال ، ومـا أحسب ما مر بي من رؤية أركاديوس وسماع كلامه الا حلمـا مر وزال ، بـل أراني أكثر قلقا عليه من ذي قبل ، فقد كنت في ريب من حبـه ، ولم أكن أشعر بمثل مـا أنـا فيه من القلق عليـه . فهل تجود لـي الأيام به ، وأرى ذلـك الوجه الباسم ، وتينك العينين البراقتين ؟ » . وشرقت بدموعهـا ، فأخذت بربـارة تخفف عنها وتشغلها بالآمال والوعود ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فأخذت بيدهـا وخرجت بها الى شرفة القصر ، فأطلت على الحديقة ، وبربارة تمنيها بالأحاديث ، وتذكرها

بما مر بها لتصرفها عن هواجسها ، وهي صامتة تنظر الى البر الثاني من النيل تستأنس بقربه من الحصن ؛ فأمرت بربارة الخدم فجاءوا بالوسائد وفرشوها في الشرفة . وجلستا تارة تتشاكيـان . وطورا تتأمـلان ، وأرمانوسة لا يرضيها الا الحديث عن أركـاديوس ، وبربارة تلهيها تارة به وطورا بسواه .

حديثه ، أو حديث عنه يطربني هذا اذا غاب ، أو ذياك ان حضرا
كلاهمـا حسن عندي أسر به لـكن أحلاهما مـا وافق النظرا

* * *

أما أركاديوس فلبث ينظر الى أرمانوسة حتى توارى قاربهـا عن نظره ، فوقف برهة كاسف البال يتأمل فيما يتهدده من الخطر ، ومـا يحول بينه وبين حبيبته من العوائق ، وبقي برهة على هذه الحالة حتى دعـاه أحد جنود الحامية أن يذهب الى أبيه لأمر يريده فيه ، فسار حتى دخل على أبيه ، فاذا هو جالس وحوله أرباب مجلسه يتداولون فيمـا هم فيه . فلمـا دخل حيى والده وجلس الى جانبه ، فآنس والده شيئا من الارتباك في وجهه فابتدره قائلا : « ما لي أرى أثر الانقباض في وجهك يا أركاديوس ؟ هل داخلك خوف من أمر العرب ؟ » . قال ذلك وهو يبتسم كـأنه يمازحه .

فانتبه أركاديوس لحاله ، وأظهر الاستغراب قائلا : « أنت تعلم يا أبتـاه أني لا أخاف الموت ، ولا أحسب للحرب حسابا ، فكيف تقول اني خائف ؟ وما الذي يخيفني وأنا تحت جناحك ؟ لا سيما اني رأيت هؤلاء العرب ، وعلمت من ضعفهم وقلتهم ما لا تعلمون ، وأما ما ظننته فيّ من الارتباك فانما هـو شدة اهتمامي بالاستعداد وتهيئة الوسائـل لدفع الاعداء ، ولا شك في فوزنا عليهم باذن الله وهمة أبطال الروم » .

وأشار الى الحضور ، فأجابوه جميعا : « أننا بين يديك متفانون في سبيل الرومان ، ضاربون بسيف جلالة الامبراطور الى آخر نسمة من حياتنا » .

فأثنى الاعيرج على غيرتهم وصرفهم ، فخرجوا يجرون سيوفهم وطيالسهم ، فلما خلا الاعيرج بابنه أوصد الباب ودعاه الى القرب منه وقال له : « اطلعني يا أركاديوس على ما خبرته من أمر هؤلاء العرب وقوتهم مما عاينته وشهدته ، ودع الاستخفاف والبسالة جانبا ، وقل كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من ضعفهم وقلتهم ، ونحن نعلم ان حامية بلبيس قوية وحصونها منيعة ؟ » .

فصمت أركاديوس برهة يفكر ولم يبد جوابا لعلمه أن العرب لم يستطيعوا ما استطاعوه الا بما أعارهم القبط من العون سرا وجهرا ، وتذكر أمر أرمانوسة وحماية عمرو لها ، وما لاقته من الحفاوة والاكرام ؛ وأيقن أن ذلك لم يكن نتيجة خلق العرب فقط . وحدثته نفسه أن يصرح بما خامره من الشك ، ولكنه خاف أن يزيد الخرق اتساعا ، فتزداد الهوة الحائلة بينه وبين أرمانوسة . وكان أبوه يرقب ارتباكه ، وينتظر جوابه بفارغ الصبر ، فلما أبطأ في الجواب أعاد السؤال قائلا : « مالي أراك صامتا لا تجيب ؟ افصح وقل الصدق ولو كان علينا ، فان ذلك أول معدات الدفاع ، لأننا اذا عرفنا قوة عدونا وثقل وطأته عرفنا السبيل الصواب الى دفعه » .

فلم يدر أركاديوس بم يجيب ؟ وخاف أن يسيء أبوه الظن به فتبسم وأظهر الاستخفاف وقال : « لم يكن سكوتي لشيء مما خامر ذهنك ، ولكنني كنت أفكر في السبب الحقيقي فلم أهتد اليه ، على اني أعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا ، فلا عجب اذا انتصر العرب على بعض حصوننا الضعيفة ، فلعل الله قدر أن يكون دفعهم على أيدينا فننال الفخر دون جند الروم بمصر » .

فقال الاعيرج : « بورك فيك يا ولداه ، فأوص رجالك بالثبات ، وشجعهم . وتفقد مراميهم وأسلحتهم . والاتكـال على الله • ولا تنس الجسر بين الحصن والجزيرة فانا كنا قد نزعناه ثم أعدناه لحاجة اقتضت اعادته ، فأمر بنزعه لئلا يكون للعرب سبيلا للوصول الى منف . وكذلك الجسر بين الجزيرة والبر الغربي ، اعمل على اعادته لكي تتمكن من جلب المؤونة والذخيرة من منف عند الحاجة • وبث العيون في جهات بلبيس لينبئونا بقدوم العرب . فنكون على بينة من أمر مسيرهم ، فلا يأتونا على غرة • وأوصيك وصية أخرى أرجو ألا تنساها ولا أظنك تجهلها : وهي أن تحذر المقوقس ورجاله . فانهم يمالئون العرب علينا » •

ثم افترقا ، وسار أركاديوس الى قلعته . فأوصى الجند بنزع الجسر . واعادة الجسر الآخر الموصل الى منف . وبعث الجواسيس الى بلبيس ، وأوصاهم باليقظة ليراقبوا حركـات العرب ، فاذا علموا بسيرهم نحو الحصن عادوا اليه بالخبر • ثم تحول الى غرفته ، وكـان الليل قد أسدل نقابه ، فنزع خوذته وسلاحه وجلس الى النافذة المطلة على النيل . وقـد هدأ الجو ، وأوت الطيور الى أوكـارها ، وهب النسيم عليلا ، وجرى النيل بازاء الحصن هادئا . وأطل البدر من وراء الافق فأرسل أشعته على سطح المـاء تتلألأ تلألؤا ضعيفا • فأرسل نظره الى جهة منف ، حيث تقيم أرمانوسة ، وتصور حاله معها وما هو فيه ، فغلبت عليه الهواجس . وتراكمت عليه الهموم ، فانقبضت نفسه ، وأظلمت الدنيا في عينيه • وتحير في أمره ، فخيل له أن العرب سيغلبون بما نالوه من عون القبط . فارتعدت فرائصه ، وثقل عليه عار الانكسار • فقال في نفسه : « اني لأوثر الموت على الفرار . ولكن أرمانوسة جعلت الحياة عزيزة علي » • ثم عاد فتصور أنهم تغلبوا على العرب وأعادوهم القهقرى ، وأخذ يفكر فرأى أن ذلك أيضا لا ينيله بغيته من أرمانوسة ، لمـا يعلمه مما بين أبويهما من الضغائـن

والاحقاد . فلبث يفكر في ذلك حتى شعر بالتعب والنعاس ، فذهب الى فراشه ينتظر ما يأتي به القدر . وقضى معظم اليوم الثاني في التأهب .

وفي مساء ذلك اليوم جاءهم الجواسيس ينبئونهم باقلاع العرب عن بلبيس ، وقدومهم نحو الحصن . فهاج الناس وماجوا ، وأخذوا يطلون من المنافذ والمرامي ليشاهدوا العرب قادمين ، فقضوا ليلتهم ساهرين بعدتهم وسلاحهم ، والعرب لم يصلوا . وفي صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم ، فتحولوا الى شمالي الحصن يراقبون وصول العرب ، فلما كان الضحى تكاثر الغبار وبانت من ورائه الاعلام والفرسان والهجانة . ثم وصلت الساقة ، وعسكر الجميع في البقعة التي بين الحصن والمقطم ، وكانت كلها بساتين وغياضا لا شيء من العمارة فيها الا بعض الاديار القائمة مبعثرة هنا وهناك . فنصبوا خيامهم فيما هو الآن جامع عمرو وما يحيط به . فشاهدهم الروم يضربون خيامهم ، وينصبون أعلامهم ، وكان أركاديوس في جملة الناظرين ، فتذكر أيام بلبيس وما كان من أسره هناك .

أما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة في دفع العرب ، وذهب الى الاعيرج وكلمه في شأن معدات الدفاع . وكان الاعيرج يكتم ما يعلمه عن المقوقس والعرب ، فأجاب : « اننا لا نلبث أن نعيدهم على أعقابهم ، وهم انما غرهم ما لاقوه من ضعف حامية بلبيس » .

فقال المقوقس : « واني لأعجب من فتحهم بلبيس وهم في مثل هذا العدد القليل ، فانك لو أشرفت على معسكرهم لرأيتهم شرذمة قليلة لا تلبث أن ترتد خاسرة اذا خرج جندنا اليها » .

فقال الاعيرج مستهزئا بقول المقوقس الدال على الجهل بضروب الحرب : « ليس من الحزم أن نترك حصننا ونخرج اليهم طالما كانت المؤونة ملء مخازننا وطريقنا الى منف مفتوحة ، ولكننا نتركهم وشأنهم

حتى يملوا الانتظار ، فاذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة ، فان الحصن يمتنع على أضعاف أضعافهم لما تعلم من مناعته ، وبخاصة بعد حفر الخندق المحيط به ، فان هؤلاء العرب اذا هاجمونا واحتملوا نبالنا منعهم الخندق من الوصول الى السور ، فاذا نزلوا الخندق انغرست أشواك الحديد في أقدامهم وهم حفاة . كل ذلك والنبال تتساقط عليهم من مرامي السور »

وقضوا ذلك اليوم في مراقبة العدو ، والنظر إلى ملابسهم وخيامهم وأعلامهم عن بعد ، لأنها تخالف ما عند الروم .

وكان أركاديوس قد راعه كل ذلك عن قرب ، فوقف الى جانب أبيه ، وأطلا على بعض المرامي ، وأخذ أركاديوس يصف لوالده خيام العرب ، فدله على خيمة عمرو ، وحظيرة الجمال ، وخيام النساء والاولاد ، ومواقع الرايات . والاعيرج يعجب ويستغرب لاختلاف ما عندهم عما عند العرب ، فلما كان الاصيل رأى أركاديوس رجلا قادما عن بعد ومعه علم أبيض يتبعه رجلان آخران ، والكل مشاة ، فعلم من لباسه أنه عربي ، فأدرك أنه قادم لشأن من الشؤون فأنبأ والده ، فنادى الرسل من أعلى السور ، وأمر بالترجمان فجاء ، فلما دنا الثلاثة من الحصن تقدم أحدهم وخاطب الحامية بالقبطية ، بلغة دلت على أنه ليس دخيلا فيها ، فأغناهم عمن يترجم كلامه . وكان مرقس في جملة الوقوف على السور ، فعرف أن المتكلم زياد العربي صاحب يحيي النحوي ، ومعه وردان ورجل آخر لم يعرفه ، قالوا أنهم جاءوا بكتاب من أميرهم الى المقوقس . ففتحوا باب الحصن وأدخلوهم ، وقد تكأكأ الجند لرؤية لباسهم وهيئتهم ، أما هم فساروا بأقدام ثابتة كأنهم دخلوا الحصن فاتحين ، فرافقهم بعض الحراس حتى وصلوا الى غرفة المقوقس ، وكان جالسا بجانب الاعيرج ، وبجانبه ابنه ، وبجانب الاعيرج أركاديوس ، وبين أيديهم أرباب المجلس ،

ومعظمهم من الروم ، فدخل وردان وقدم ملفـا مكتوبا بالعربية ، فأمر المقوقس الترجمان ، فتلاه عليهم واذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص أمير جند العرب القادم لفتح مصر الى المقوقس حاكم مصر . أما بعد فان الله قد كتب لنـا النصر منذ دخلنا هذه الديار ، ففتحنا الفرما وبلبيس عنوة ، ولا بد لنا من فتح هذا الحصن ان عنوة وان صلحا ، ولا نبالي بمن يقتل منا في سبيل فتحه ، فان أحدنا ينتظر ساعة الشهادة ليلقي وجه ربه ، وها أنـذا أعرض عليكم واحدة من ثلاث : فأما أن تدخلوا في ديننا فيكون لكم ما لنـا وعليكم ما علينا ، وأما أن تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأمـا السيف ، فاختاروا لأنفسكم » .

« كتبه عمرو بن العاص »

* * *

فلما أتم الترجمان تلاوة الكتاب تكدر الاعيرج ، واشتد به الغضب ، ونظر الى المقوقس كأنه يستشيره في الجواب . فأمر باخراج الـرسل والاحتفاظ بهم حتى يعودوا بالجواب . وأخذ أهل المجلس يتفاوضون ، فأظهر المقوقس أن التسليم لا يليق بهم ، وهم لم يغلبوا على أمرهم بعد ، فأقروا الرأي وأجمعوا على أنهم يختارون السيف ، وكتبوا الجـواب ومهره المقوقس باسمه ، لأنه الوالي الذي تصدر الرسائل عنه ، وأعطوه الى مرقس وكـان بين يديه ، ليوصله الى رسل العرب ، وأمرهم أن يشيعوا الرسل الى باب الحصن . فلمـا ذهبوا خاف المقوقس أن يظن عمرو فيه سوءا عندما يقرأ الكتاب ، وكـانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فذهب الى غرفته فخلا بابنه . وبحثا الامر ، فقال أرسطوليس : « أرى أن نبعث

الى العرب نستمهلهم الفتح ، ونفهمهم أننا عـلى عهدنا معهم » • فقال : « بأي لغة نكتب الكتاب ؟ ومن يوصله ؟ » • قال : « يوصله مرقس فانه يعرف العرب ، وأمـا كتابته فتكون بالقبطية ، وترجمانهم يترجمه الـى لسانهـم »

فكتب أرسطوليس كتابا بالقبطية أبان فيـه ان الكتاب الذي بعثه أبوه ردا على خطابهم انما كتبه ليموه به على من معه مـن الروم ، وليريهم أنه يريد دفع العرب ، ولكن الحقيقة أنه باق على عهده معهـم ، ولا يلبث أن يسلم الحصن اليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ، ولكنه استمهلهم قضاء ذلك حتى سنوح الفرصة •

وجيء بمرقس الـى المقوقس والليل قـد أرخى سدوله ، فدفـع اليه الكتاب ، وأوصاه أن يحتفظ به ، وسأله : « كيف توصله الى معسكر العرب » •

فقال مرقس : « أما الخروج الى العرب فلا يخلو من الخطر ، وهؤلاء الروم قد أساءوا الظن بنا ، فهم يراقبون خطواتنا مثل خطوات عـدوهم ، فاذا اشتبهوا في أحدنا دققوا في استطلاع حاله ، فكيف اذا رأوني سائرا ليلا نحو معسكر العرب ؟ فالرأي أن أحتفظ بهذا الكتاب الى فرصة أذهب فيها الى منف لغرض ما ، ثم أتحول من هناك الى طريق آخر يؤدي الى معسكر العرب ، فلا يراني أحد ، فاستحسن المقوقس وأرسطوليس رأي مرقس وأبقيا الكتاب معه تلك الليلة ، فذهب الى مبيته فوق السور •
وتذكر طريقة أركاديوس وأرمانوسة ، وما لهما عليه من الفضل ، أيقن أن مساعي المقوقس هذه تضر أركـاديوس ، وربما أذاقته حتفه اذا دخل العرب الحصن على غرة ، وأن أركاديوس اذا أصيب بسوء عـاد ذلك بالوبال على أرمانوسة ، وفي هذا ما يسيء والدها وأخاها ، كمـا أن شرا يصيب أركاديوس يسيء والده !

فوقع في حيرة من أمره ، فبينا حبه لأركاديوس ولأرمانوسة يدفعه الى اطلاع أركاديوس على الامر لينجو هو وخطيبته . تراه يأنف من خيانة المقوقس وهو مولاه ويذهب مذهبه في كره الروم ، ثم بدا له في الصباح التالي أن خير السبل لبلوغ الغايتين في آن واحد انما يكون في ابعاد أركاديوس عن الحصن عندما يقتحمه العرب ، ولا سبيل لابعاده الا اذا جاء عن يد أرمانوسة لدالة الحب بينهما . وأما أن يترك أركاديوس الحصن فرارا من العرب فهذا مستحيل لما هو عليه من الشجاعة والنخوة .

فلما وضح له الرأي زال قلقه وسكن روعه . وذهب توا الى مولاه المقوقس ، فاذا هو في مجلس الاعيرج وابنه وجميع كبار القواد يتفاوضون ، فانتظره حتى خرج ، فأومأ المقوقس اليه أن يتبعه . فتبعه حتى وصل الى غرفته فقال له : « لقد قررنا في جلستنا هذه أن نبقى متأهبين لا نفاجيء العرب بحرب ، فربما طال حصارهم وقد نحتاج الى مؤونة ، ولذلك رأينا أن نبعث فريقا منا الى منف ، فتطمئن أرمانوسة علينا ، فاذا ذهب الناس بأحمالهم فاسلك أنت طريقا آخر الى معسكر العرب وادفع الكتاب الى أميرهم » . فقال مرقس : « حسنا يا سيدي ، وهل ترى يوم نجاتنا من هؤلاء الروم قريبا ؟ » . وقد أراد مرقس أن تستطلع رأي سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر ، فيسعى في انقاذ آركاديوس . فقال المقوقس : « ان يوم النجاة قريب ، قد يكون بعد بضعة أشهر ، ولا يخفى عليك يا ولدي أن استسلامنا للعرب ، أو تسهيل الفتح عليهم ، يجب أن يبقى سرا ، فاذا استعجلنا الامر ظهر تواطؤنا على الروم واننا نحن الذين ساعدناهم ، أما اذا طال الحصار فان الشبهة ترتفع عنا بعض الشيء ، فاحذر أن يطلع أحد على شيء مما ذكرته لك » .

فخرج مرقس وفعل ما أوصاه به المقوقس ، واطمأن على أركاديوس ، فسار مع من ساروا الى منف ، فلقي خطيبته ووالديها ، ففرحوا لرؤيته

أيما فرح ، واستطلعوه الخبر فطمأنهم وبشرهم بالفرج القريب ، ومكث عندهم برهة يتستع بحديث مارية ورؤيتها ، وهي لا تدري أتبكي أم تفرح وقد تعاقبت الحوادث من كل جانب •

ثم لقي بربارة فذهب معها الى أرمانوسة فلما رأته استبشرت ، لعلمها بأنه مطلع على أسرار قلبها ، عالم بما بينها وبين أركاديوس ، وبأحوال والدها وشقيقها في الحصن ، فاستطلعته الخبر فقال : « ان العرب نزلوا خارج الحصن ، وقد كتبوا الينا أن نسلم ، فأجبناهم بأننا مصرون على الدفاع الى آخر نسمة من حياتنا » •

فضحكت بربارة وقالت : « دعنا من المزاح وقل الحقيقة ، فقد علمنا أن مولانا المقوقس أخذ عهدا على أمير العرب ؟ أفلا يزالان على العهد ؟ » •

قال : « نعم يا سيدتي ، انهما باقيان على العهد ، هذا كتاب من سيدي المقوقس الى الامير عمرو بهذا الشأن » • ومد يده وأخرج الكتاب ودفعه الى أرمانوسة ، فقرأته ، فلما جاءت على آخره شعرت بانقباض • ولكنها صمتت برهة ثم قالت : « وماذا تكون عاقبة هذا التواطؤ على أركاديوس ؟ الا تظنه يصبح في خطر ، وهو شجاع اذا لقي الموت لا يفر منه ؟ فما هذا يا مرقس ؟ ان العاقبة وخيمة علينا جميعا على ما أرى » •

فابتسم وقال : « طيبي نفسا يا سيدتي ، فقد قضيت يوما كاملا أفكر كيف أنقذ سيدي أركاديوس من الخطر ، فبدت لي حيلة اذا أطلعتك عليها استصوبتها لا محـــالة » •

قالت : « وما هي ؟ » •

فأطلعها على ما دبر ، فقالت : « بورك فيك ، هذا هو الرأي الصواب وأحذر أن تبطيء في أخباره ، واني أترك لك ملء الحرية في دعوتك اياه الي عن قولي ، وقد ألقيت الحمل عليك ، ولك بعد ذلك الاجـــر مـــن الله ومني » •

فجثا مرقس أمامها وقال : « اني عبدك وخادمك ، واذا سفكت دمي في خدمتك لا أفي جزءا من فضلك » • فأنهضته وقالت : « بورك فيك من شهم غيور » • فقبل يدها وقال : « أرجو أن تأمري باعداد قارب أركبه هذا المساء ، وأنزل منه بعيدا عن الحصن ، حتى أصل الى قبالة معسكر العرب ، فأصعد اليهم وأبلغهم الرسالة » • فأمرت بربارة بذلك • أمـا هو فذهب الى بيت خطيبته وقضى بقية ذلك اليوم •

- ١٢ -

فتح الحصن

بقي الحصن محاصرا والعرب معسكرون حوله سبعة أشهر ، جاءهم في أثنائها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب مؤلف من أربعة آلاف رجل ، فصارت قوة العرب ثمانية آلاف ، وفيهم جماعة من نخبة قواد الاسلام •

وقد مضت الاشهر السبعة وأركـاديوس على مثل الجمر تشوقـا لأرمانوسة . لأن الاتصال كاد أن يكـون منقطعا بينهما ، فمل الاصطبار ، وتاقت نفسه الى لقياها ، وطارت روحه شعاعا الى مقرها •

ففي ليلة من ليالي الشهر السابع كـان أركاديوس في حجرته ، وقد أعـد فراشه التماسا للرقاد ، لعله يرى طيف حبيبته في منامه ، وتوسد الفـراش ، ولم يكد يفعل حتى جـاءه أحد الحرس ينبئه بمجيء مـرقس فاختلج قلبه في صدره ، توقعا لأن يكون قـادما برسالة من أرمـانوسة ، فأذن له ، فدخل وسلم ، فقال لـه : « ما وراءك يا مرقس ؟ » • فقـال : « ما ورائي الا الخـير » • قال : « قـل » •• فدفع اليه رقا ففضه ، فاذا

هـو من أرمانوسة تقول فيه :

« من أرمانوسة الى حبيبها أركاديوس •• أما بعد فاذا كانت أرمانوسة لا تزال تخطر في خاطرك : أو ما برحت حياتها تهمك ، فأسرع اليها بمنف عند وصول هذا اليك ؛ والسلام » •

فلم يكد يتلو الكتاب حتى تغير لونه ، وانقبضت نفسه خوفا على أرمانوسة . وقال لمرقس : « هل جئت بهذا الكتاب منها ؛ أم هي أرسلته اليك مع رسول ؟ » • قل : « بل أرسلته مع رسول دفعه الي وكر راجعا » •

فقال : « انها تدعوني فيه لأذهب على جناح السرعة : ولكنها لم تذكر سبب هذه الدعوة » •

قال : « خيرا ان شاء الله ، فهل أزمعت الذهاب ؟ » •

قال : « لا بد من ذلك ؛ ولكن كيف أترك الحصن ونحن محصورون ، والعرب محدقون بنا من كل جانب ؟ » •

قال : « تذهب متنكرا ، فتقضي بضع ساعات عندها ثم تعود ولا يعلم بك أحد » •

قال : « نذهب اذن بعد نصف الليل متنكرين كأننا من جواسيس أركاديوس ، فاذا ظنوا بنا سوءا قلنا لهم شعار الجند المتفق عليه الليلة ؛ فهل تذكره ؟ » •

قال : « نعم ، ان الشعار الليلة لفظ (هرقل) » • فاتفقا على ساعة من الليل يجتمعان بها في ناحية من الحصن ؛ ثم التقيا وجاءا الى الباب بلباس جند المقوقس ؛ فحاولا فتحه فنهض الحراس ومنعوهما من الخروج ؛ فذكرا شعار الليل ، فأطلقوا سراحهما فخرجا • وكان مرقس قد أعد قاربا عند الضفة فركباه : وأوصى النوتية أن يسرعوا ما استطاعوا ليصلوا الى منف عند الضحى ، فسار القارب والكل سكوت ؛ وأركاديوس يستحث النوتية ، ويحسب لخروجه هذا ألف حساب خوفا من غضب

أبيه . حتى وصل الى منف ، وأطل على قصورها ، فكان أول ما شاهده قصر أرمانوسة ، لأنه أعلاها كلها . ولم يكن قد دخله من قبل ، فأخذ يستعد لمقابلة حبيبته بعد طول الغيبة .

أما هي فكانت تتوقع قدومه ، وقد أرسلت بعض الخدم مع بربارة لاستقباله خوفا من انكشاف الامر ، ولبثت هي في الحديقة تنتظر قدومه وقلبها يخفق وركبتاها ترتعشان . وكلما آنست صوتا أو رأت شبحا ظنته أركاديوس ، فأخذت تتمشى في طرقات الحديقة تتلهى بمشاهدة الازهار وتقف طورا عند أقفاص الحيوان تتشاغل بمراقبة حركاتها ، حتى سمعت وقع أقدام ثم دخل اثنان بلباس جند القبط ومعهما بربارة ، فعرفت أنهما أركاديوس ومرقس ، فتقدمت اليهما ، فأشارت بربارة اليهم جميعا أن يصعدوا الى القصر ، فصعدوا . ثم استأذن مرقس وسار الى خطيبته ، ودخل أركاديوس وأرمانوسة غرفتهما ، وبربارة معهما . ولم يصدقا أنهما مجتمعان حتى سلما وتصافحا ، فقبض أركاديوس على يدها فأحس بكهربية ارتعش منها جسمه ، ونسي الحصن وأهله والعرب والروم ، ولكنه ما برح في قلق لمعرفة سبب استقدامها اياه على هذه الصورة ، فوقفا برهة لا يتكلمان ، ولحظ أركاديوس في وجه أرمانوسة نحولا وذبولا فانفطر قلبه . وكانت بربارة قد أعدت لهما مائدة عليها أنواع الاطعمة والاشربة ، فلما جلسا قالت أرمانوسة : « مرحبا بالقادم بعد طول الغياب ، قد كنا نحسب الحصار على الجند في الحصن فقط ، فاذا هو حصار علينا أيضا » .

فقال : « لا تبدئي بالعتاب قبل أن تخبريني عن سبب استقدامك اياي بعبارة مبهمة شغلت بالي وأكثرت عندي الظنون » .

قالت : « ما دعوتك الا لأراك ، فقد قضيت سبعة أشهر منذ ودعتك المرة الاخيرة ، وأنت تنظر الي من نافذة الحصن ، وأنا لا يرتاح لي بال

ولا أذوق رقادا حتى صرت الى ما تراه من الضعف ، وخشيت أن يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقـاء ، لا سيما أننا في حال توجب الاضطراب والخوف . ألا تزال على عزمك تخوض معامع القتال غير مبال بمـا يقاسيه هذا القلب ؟ » .

قال : « انما أحب الحرب يا أرمانوسة من أجلك لأدافع عنـك ، وأستقبل السيوف والنبال تعزيزا لمقام خطيبك عندك » .

فقطعت عليه الكلام قائلة : « ان كنت تحبني وتبغي رضاي فاقلع عن القتال ، ودع الحصون ، وابق الى جانبي ، فاني لا أستطيع صبرا عـلى بعـدك » .

فتنهد وقال : « نعم اني أحبك ، وأنت تعلمين ذلك ، ولكنني أحب شرفي ، وأحب وطني أيضا ، أتريدين مني أن نترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من أقصى بادية الحجاز ، ونحن الروم أربـاب المجد والسطوة ، وقد رفعت أعـلامنا على هام الامم ، ودانـت لنا الملـوك والقياصرة ؟ أنفر أمام نفر من البدو رعاة الابل ؟ أترضين لي ذلـك ؟ » . وكان يكلمها والعرق يتصبب من جبينه لعظم تأثره .

قالت : « كلا ، فما قصدت الى الحط من مقامك ، فاني أفـاخر الناس ببطولتك وبسالتك ، ولكنني اعتزمت الا أفترق عنك بعد اليوم أبدا ، وهذا هو سبب استقدامي اياك » .

فنهض مذعورا وقال : « أصحيح ما تقولين يا أرمانوسة ؟ هل تريدين لي هذه الخيانة ؟ ألا تخجلين اذا ذكر أركـاديوس أن يقال أنه جبان يفر من الحرب ؟ لا أظنك ترضين بذلك » .

قالت : « قلت لك أني لا أرضى لك حطة ، ولكنني لا أرضى أن تعرض نفسـك لحرب لا أمل بالفوز فيها » .

فعجب لقولها هذا وقال لها : « وما أدراك ؟ أتحسبين جند هـذا

الحصن كجند بلبيس والفرما ؟ أما الفرما فلم يكن فيهـا أحد من الروم على ما أعلم ، أم أنت تستخفين بي ؟ » •

قالت : « رأيت فيما يرى النائم أن الحصن أخذ ، وخفت أن يصيبك شر ، فاستقدمتك الي على ألا يفرق بيننا الا الموت . فاذا سرت سرت معك ، أو قعدت قعدنا معا •• هذا قولي والسلام » •

فتلطف بالجواب تخفيفا لمـا ثار في قلبه ، وقال : « تعقلي يا حبيبتي . فقد صبرت أشهرا فاصبري أياما ، وسترين العاقبة كيف تكون ، ولـو تركني أبي أفعل ما أريد لخرجت الى جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالي فقط ، وبددتهم أيدي سبا ، ولكنني أعمل برأيه مكرها • اما اذا نشبت الحرب واحتدم الوطيس فالفوز لنا لا ريب فيه باذن الله » •

فتبسمت ثم قالت : « وهب أنكم حاربتم العرب في هذا الحصن ثم خرجتم منه الى غيره فانك تحاصر في ذاك أيضا • ثم تذهب الى حصـن آخر ، وهكذا ، وتترك أرمانوسة في زوايا النسيان لا تنام الليل خوفـا عليك • أيرضيك هذا ؟ » •

قال : « حاش لي أن أنسى أرمانوسة ، أو أغفل عن راحتها ، وأعدك وعدا شافيا أن واقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل ، فاذا بقيت بعدها لم أفارقك أبدا » •

قالت : « أتقسم لتفعلن هذا ؟ » • فأقسم بشرفه وبمحبتها أنه اذا انقضى أمر هذا الحصن سواء لهم أم عليهم فلن يعود الى حرب أو الى فـراق •

وطـال بهما الحديث حتى صارت الشمس في الاصيل ، فقـال أركاديوس : « أراني قد نسيت واجبي ، فتركت معقلي وجندي على حين غفلة ، وجئت وقد طـال بي المقام • هلا أذنت لي بالذهاب ، وموعدنا قريب ان شاء الله » •

فأمسكته تريد اقناعه بالبقاء قليلا وهو يعتذر ، واذا ببعض الخدم داخل وعلى وجهه امارة البغتة .

فقالت بربارة : « ما الخبر ؟ » . فقال : « رأيت سفنا قادمة من الحصن » . فأطلت أرمانوسة من شرفة القصر ، وأطل أركاديوس : فاذا السفن سفنهم ، وفيها بعض رجالهم ، فاختلج قلبه في صدره ، وما لبث أن جاء قارب عليه بضعة من رجال المقوقس .

فاستقدمتهم بربارة الى القصر ، فصعدوا وهم يتأففون ، وعلى وجوههم ملامح البغتة والخوف . فتقدمت أرمانوسة وكلمتهم وأركاديوس منزو يسمع فقالت لهم : « ما وراءكم ؟ » . فتقدم أحدهم وقال : « ان المقوقس بعثنا اليك لتكوني على أهبة السفر اذا اقتضت الحال » .

فوقف أركاديوس مذهولا ، ولكنه لم يتكلم . فقالت أرمانوسة : « وما الداعي لهذا التأهب ؟ » . قال : « لأن العرب دخلوا الحصن في هذا الصباح على حين غفلة . وخرج سيدي المقوقس ومن بقي من الجند الى جزيرة الروضة على الجسر الذي كانوا قد نزعوه . فأعادوه ومروا عليه ، ونحن نتوقع أن يتعقبهم العرب ويضطروهم الى المجيء الى هنا » .

فلما سمع أركاديوس بسقوط الحصن ترقرقت الدموع في عينيه ، فتوارى وراء حائط الشرفة لئلا يلحظ أحد منه ذلك ، وجعل يحرق أسنانه ويتأوه . أما أرمانوسة فرأته بهذه الحال . ولم يكن سقوط الحصن شيئا غير متوقع عندها ، ولكنها تظاهرت بالاستغراب أمام أركاديوس لكي تنطلي الحيلة عليه . فلما رأته على هذه الحال تركت الجندي يتكلم مع بربارة ، ودنت منه على الشرفة بحيث لا يراها أحد ، وأمسكت بيده فاذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لا يبدي حراكا ، فقالت له : « أأركاديوس يبكي ؟ لقد صدق القائل : (لا تذكر الحزن الا اذا رأيت دموع الابطال !) . مالك يا حبيبي ؟ » . فلم يجب لأن العبرات

خنقته ، فقالت : « ما بالك لا تجيب ؟ » . فحرق أسنانه وتنهد ، وهو يتميز غيظا ، ولم يجب . فأمسكت بيده فاذا هي باردة ترتجف ، وأراد جذبها منها فضغطت عليها وقالت : « لماذا لا تجيب يا أركاديوس ؟ » .

فالتفت اليها والدمع ملء عينيه وقال : « كيف لا أبكي يا أرمانوسة وقد خرج الحصن من أيدينا ، وأنا محبوس هنا لا أستطيع حراكا ؟ ومن الغريب ان هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه الا وأركاديوس بعيد عنهم . ولكن آه يا أرمانوسة .. آه من الحب ! ما أعظم سلطانه ! ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن ، فقد كان في وسعي ملاقاة الشر قبل وقوعه ، ولكن حبي أرمانوسة حملني على التجاهل . فالعرب لم يغلبونا ، ولكنها خيانة أنا شريك فيها على غير قصد ، والحب يعمي ويصم .. آه منه ! » .

فأدركت أرمانوسة مراده ، فعمدت الى مغالطته لئلا يزداد غضبه فقالت : « اجلس يا حبيبي ريثما نسأل هذا الرسول عن كيفية سقوط الحصن لعلنا نكشف أمرا جديدا » .

قال : « وماذا عسى أن تكشفي ؟ فقد كشفت الحقيقة ، وعرفت سر الامر ، فهل أستطيع بعد هذا كله أن أواجه أبي وأنا لا أدري ما يكون ظنه في ، الا يعدني شريكا في الخيانة ؟ » . قال ذلك وهو يحاذر أن يسمعه الرسول أو يعلم به ، وقد شاقه أن يعرف كيف سقط الحصن ، فقال لأرمانوسة : « اسأليه عن الحصن كيف سقط ؟ » .

فعادت الى الجندي ، وكان في انتظارها مع بربارة ، فقالت : « احك لنا كيف دخل العرب الحصن ؟ » . فقال : « لا نعلم كيف دخلوه ، ولكننا أصبحنا فاذا هم يتسلقون الاسوار ، وكان سيدي المقوقس قد أمرنا بالخروج الى جزيرة الروضة فعبرنا على الجسر وأقمنا هناك » .

فقالت : « ألم تدفعوا العرب عند دخولهم ؟ » . قال : « فعلنا ، ولكن

جند الروم دافعوا قليلا ، ولم يترك العرب لنا فرصة للدفاع » .

فقالت : « هل جاء أبي الى جزيرة الروضة ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ، ومعه رجال حكومته وسائر جنده » .

فقالت : « وماذا جرى للاعيرج ورجاله ؟ » .

قال : « أظنهم ساروا الى الاسكندرية ليتحصنوا فيها » .

فقالت : « أذهب وحده أم سارت معه حاشيته ؟ » .

قال : « أظنهم ساروا جميعا على غير نظام ، لأنهم انما خرجوا من الحصن فارين . ولكنني لم أر ابنه أركاديوس معهم ، ولم أره أبدا . والناس يتحدثون بشأنه . ويزعمون أنه قتل أو فر قبل دخول العرب الحصن » .

فقالت وهي تصرفه : « سنتأهب للرحيل طوعا لأمر أبي » . ودعت بربارة وقالت : « يجب أن نتأهب . ولكنني في قلق على أبي . فلنرسل اليه من يأتينا بتفصيل الواقعة . فقد لا يكون هناك داع للسفر » .

أجابت بربارة : « ليس لهذه المهمة أليق من مرقس . وهو الآن عند خطيبته » فبعثوا اليه فجاء مسرعا . ولما أخبرته بربارة خبر الحصن لم يستغرب . لأنه كان على بينة من قرب سقوطه . فقالت له : « أين مارية ؟ » . قال : « في البيت مع أبويها » . قالت : « فليأتوا الينا جميعا ، وليقيموا في القصر ؛ وأما أنت فاذا رأيت ثم حاجة الى فرارنا فعد الينا مسرعا » .

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج فجاء بخطيبته ووالديها . وودعهم جميعا ، وسأل عن أركاديوس فدلوه على مكانه . فذهب اليه وقبل يده . فاذا بأثر الدمع يبدو في عينيه ، وامارات اليأس ظاهرة على وجهه . فتناثرت الدموع من عيني مرقس ، ووقف أمام أركاديوس وقال : « ما بال سيدي يبكي وهو البطل المجرب الذي لا تهزه الحوادث ؟ فهل

يبكيك الفشل مرة ، وأنت تعلـم ان الحـرب سجال ، وأمـد الحرب لا يزال طـويلا ؟ » •

فتنهد أركاديوس وقال : « دعني يا مرقس . ان كلامـك هذا لا يعزيني . فما أنـا ممن ييأسون من النصر ؛ والانكسار في الحرب لا يوجب يأسا ، لأن القتال سجال كمـا قلت ؛ ولكنني حـزين لأني تعاميت عـن حقائق كنت أراهـا رأي العين ، وأحسب أنني لم أرها ، وأكذب نفسي ؛ لا لجهـل أو سذاجـة ؛ بل لغشاء غطى عيني وأعمى بصيرتي ، وشاغـل شغلني عن أبي ووطني ، ألا وهـو الحب • وأظنك خبرت شيئا منـه وعرفت سلطانه • ولولا تلك الغشاوة لاستطعت انقـاذ الحصن ومن فيه ، وارجـاع هؤلاء العـرب على أعقابهم الى مراعي ابلهـم وماشيتهم . انما لقد سبق السيف العذل ، فأنا شريـك في الخيانـة . وعون على تسليـم الحصن للعرب ، أفلا يحق أن أبكي وأندب سوء حظي ؛ ألا أرثي حياتي ؛ وقد أضعت رشدي ، وأصبحت آلـة لا ارادة لهـا ؟ أرى اللص ينقب بيتي فأتغافـل عنـه ، فاذا أتـم النقب تركت البيت لـه يفعل بـه مـا يشـاء ! »•

فأدرك مرقس أن أركاديوس لم يكن غـافلا عن تواطؤ المقـوقس مع العرب ؛ فتجاهل وقال : «اني لا أرى أن سيدي أركاديوس قـد أتى أمرا يلام عليه . فانك عمدة جنـد الروم وخير أبطالهم . ولم تخرج مـن الحصن فارا . والعنـاية قدرت لك النجاة من عـار الفرار ، ولو أراد الله سلامة الحصن ما خرجت أنت منـه ولا دخلـه العرب ؛ ولكنها مشيئته ، فخفف عنك . وها أنذا ذاهب للبحث عن تفصيل الواقعة ، وسأعـود اليكم بالخبر اليقين » • وودعـه وخرج ، فناداه أركاديوس فعـاد فقال لـه : « تفهم جيدا ؛ وأخبرني ما عـدد الجند ، وقـل للمقوقس ان علينـا أن نعيـد الكرة علـى هؤلاء العرب مـن الجزيرة ، فان آنست منـه

قبولا فأخبرني ، فاني لأبلـون فيهم بلاء حسنا ، ولا أقعـد حتى أعيدهم على أعقابهم أو أقتـل ، ولا تنس أن تبحث عن أبي أين هو الآن ، واحذر أن يعلـم أحد أني هنا » • قـال : « سمعا وطاعة » •

- ١٣ -

عقد الصلح

ساء أرمانوسة كثيرا كـدر أركاديوس ، ولكن سرها نجـاح حيلتها ، ولم تكن تخشى بأس العرب لعلمها أن أباها ضالـع معهم ، فانصرف همها الى تخفيف وقـع المصيبة على أركاديوس وحمله على التسليـم بمـا حـدث • فلما ذهب مرقس أمرت بطعام فأعـد لهم ، والشمس قد مالت الى المغيب ، فجلسوا الى المائـدة وأركاديوس يحسب أنه في حلم ، ولا يكاد يصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته ، فقال لأرمانوسة : « أراني في حلـم ، ولا أستطيع تصديق الخبر ••• أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا ونحن جنود الروم لنا العدة والسلاح وهم شرذمة قليلة ، انها لخيانة أو لعله سحر أو لعله غضب من الله » • فقالت أرمـانوسة : « لعله الاخير » ، وتبسمت تريد مداعبته ، فاستمر قائلا : « ولنفرض أنهم أخذوا الحصن ، فلسوف يخرجون قهرا فـانه سهل علينـا أن نحصرهم فيه ، ونقطع عنهم المؤونة برا وبحرا حتى يسلموا أو يهلكوا جوعا ، اذ لا سبيل لهم الى المؤونة لأن بينهم وبين بلادهم شقة بعيدة وجنودنـا تملأ القطـر » •

فقالت أرمانوسة : « سوف نرى » • وقد آلت الا تدعه يبتعد عنها مهما يحدث ، وبعد أن تناولا شيئا قليلا من الطعام نهض الجميـع

وذهب كل واحد الى حجرة نومه ، فلمـا أصبحوا وجدوا أهل منف في قلق يتأهبون للفرار . وأما أرمانوسة فلبثت يومهـا تنتظر عودة مرقس ، فقضوا نهارهم في الانتظار والقلق وكـان أركاديوس قد خف يأسه وعادت اليه آماله في استرجاع الحصن ، وفي اليوم الثالث ، أطلوا من شرفة القصر فرأوا قارب مرقس فعرفوه ، فدنا وصعد اليهم وجلس يقص عليهم رحلته ، وكلهم آذان واعين ، وليس في الغرفة الا هو وأرمانوسة وأركاديوس وبربارة ، وهذا ما حكاه :

وصلت الى الجزيرة مساء أمس الاول فوجدت جندنا معسكرا فيها ، فذهبت الى سيدي المقوقس فقبلت يده ويد سيدي أرسطوليس وطمأنتها على سيدتي أرمانوسة ، وقضينا الليل في حديث الحصن ، فعلمت أنه أخذ مفاجـأة وان العرب مقيمون به الآن ، وأمـا جند الروم فساروا الى الاسكندرية ، وفيهم مولاي الاعيرج . وقد فهمت من حديث سيـدي المقوقس أن الناس في ريب من أمر سيدي أركاديوس ، فمن قائل انه قتل قبل فتح الحصن وقائل أنه فر بعد الفتح ، وظن بعضهم أنه قتل وضاعت جثته ـ حرسه الله ـ وعلمت أيضا أن سيدي المقوقس بعث الى أمير العرب يعرض عليه صلحا على أمر فيه خير للفريقين ، وأرسل اليهم قاربا يركبه وفدهم الينا ، فبتنا ليلتنا وأصبحنا ننتظر مجيء الوفد ، فلمـا كان الضحى جاءنا نبأ بأنهم وصلوا الى الجزيرة ، فبعث سيدي وفدا استقبلهم عند الشاطيء وجاءوا بهم اليه ، وكـان في مجلسه ، وأنـا بين يديه ، فما لبثنا أن رأينا الوفد قادمين ، وكانوا عشرة من البدو ، وقد رأيت أزياءهم في بلبيس ، وتقدم واحد منهم لم أر أفظع منه منظرا ، أسود فارع الطول ، ضخم الجثة ، قالوا أنه زعيمهم وخطيبهم ، واسمه عبادة بن الصامـت ، وقد رأيت منه جرأة لم أعهدها في أحد من الناس حتى اليوم . ولحظت أن سيدي وأهل مجلسه هابوا منظره ، وكأني سمعت سيدي يطلب منهم

ان يستبدلوا به غيره فقالوا : « هو كبيرنـا المقدم فينا » . فقـال له سيدي والترجمان ينقل كلامه : « تقدم يا أسود وكلمني برفق ، فـاني أهاب سوادك » . فتقدم وقال : « فهمت قولك ، وان فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا وأفظع منظرا ، وأشد هيبـة مني ، وقد وليت وأدبر شبابي ، ولكني بحمد الله لا أهـاب مائة رجـل ، وذلك لرغبتنا في الجهاد واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا زيادة فيها ، الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك ، وجعل ما غنمنا منه حلالا ، وما يبالي أحدنا ان كان له قنطـار ذهب أو درهم واحد لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليلـه ونهـاره ، وشملة يلتحفها ، فان كـان لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في سبيل الله ، واقتصر على هذا الذي في يده ، لأن نعيم الدنيا ليس نعيما ، ورخاءها ليس رخاء ، انما النعيم والرخـاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمر به نبينا ، وعهد الينا الا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر به عورته ؛ وأن تكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه » .

فلما سمع سيدي هذا الكلام قال لنـا بالقبطية : « هل سمعتـم مثل كلام هذا الرجل قط ، لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب . ان الله أخـرج هذا وأصحابه لخراب الارض ، ومـا أظنهم الا الغالبين » . ثـم التفت الى عبادة وقال له : « أيهـا الرجل الصالح قد سمعت قولك ومـا ذكرت عنك وعن أصحابك . ولعمري انكم لم تبلغـوا ما بلغتم الا بمـا ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليهم الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها . وقد توجه منا لقتالكم جمـع من الروم لا يحصى عددهم ، عرفوا بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ؛ وأنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقـد أقمتم بـين أظهرنا أشهرا

وأنتم في ضيق وشدة ومسعبة ؛ وهـا نحن أولاء نعرض عليكم الصلـح على أن نفرض لكل رجـل منكـم دينارين ولأميركم مائـة دينـار . ولخليفتكم ألف دينار ؛ تأخذونها وتنتقلون الى دياركم قبل أن يغشاكـم ما لا طاقة لكـم به » . فأجابـه عبادة : « لا تغرن نفسك ولا أصحابـك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعـددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا مما يخيفنا ؛ ولا الذي يثنينا عما نحـن فيه ؛ وان كـان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ؛ وأشد لحرصنا عليه ؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه وقـد قتلنا عن آخرنا ؛ فهذا أمكن لنا في رضوانـه وجنته ، وما شيء أقـر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، واننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ؛ فاما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكـم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ؛ وانهـا لأحـب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال في كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) . وما منا الا من يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، والا يرده الى بلاده ولا الى الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ؛ وقـد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا . وأما قولـك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ، ولو كـانت الدنيا كلها لنـا ما أردنا منهـا لأنفسنا أكثر مما نحن عليه ، فانظر الذي تريده فبينه ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ونجيبك اليهـا الا خصلة من ثلاث خصال ؛ فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل . بذلك أمرني الامير ، وبه أمر أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله من قبل الينا ، أما أن أجبتم الى الاسلام دين الله القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته والذي أمرنـا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كـان له ما لنا وعليه ما علينـا وكان أخانا

في دين الله ، أما أن أجبت الى هذا وقبلته أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ؛ ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم • وان أبيتم فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، على أن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا • وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا السيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم • هـذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم » •

فعجبنا لجرأته وقوة جأشه ، فأجابه سيدي : « هذا ما لا يكون أبدا • ما تريدون الا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا » • فقال عبادة : « هو ذاك ، فاختر لنفسك ما شئت » • فقال سيدي : « أفلا تجيبونا الى غير هذه الخصال الثلاث ؟ » • فرفع عبادة يده الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها وقال : « ورب هذه السماء ، ورب هذه الارض ، ورب كل شيء ، مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » •

فالتفت سيدي اذ ذاك الى أرباب مجلسه وقال : « قد فرغ القوم ، فما ترون ؟ » • فقالوا : « أيرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون أبدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لا نعرفه • وأما أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك • فلو رضوا أن نضاعف لهم ما أعطينا مرارا كان أهون علينا » • فقال سيدي لعبادة : « أبى القوم فما ترى ؟ فراجع أصحابك على أن نعطيهم في مدتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون » •

فقال عبادة وأصحابه : « لا » • فقال سيدي لأرباب مجلسه : « أطيعوني وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم

طاقة ، ولئن لم نجبهم اليها طائعين لنجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين » •

فقالوا : « وأي خصلة نجيبهم اليها ؟ » • قال : « أما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم أحدكم به ، وأما قتالهم فأنا أسلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة » • قالـوا : « فنكـون لهم عبيدا أبدا ؟ » قال : « نعم ، تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، فأطيعوني قبل أن تندموا » • فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه • فقال سيدي للأسود : « قل للأمير أن يجتمع بنا لنكتب عهد الصلح » •

ثم خرج الوفد وأهل الجزيرة يشيعونهم بأنظارهم ، وقد بهروا لمـا شاهدوا من جرأتهم ، ولبثنا ننتظر مجيء أميرهم عمرو ، فلمـا كـان أصيل أمس علمنا بمجيئه ، فخرج سيدي لمقابلته على الضفة ، ولا أزيدكم علما على ما تعلمونه من هيبة عمرو بن العاص ، فقد رأيتموه في بلبيس • فلمـا التقيا تصافحا ودخل الجميع القاعة ، فصارت تعج عجيجا لاختلاط القبط بالعرب ، لاول مرة ، ولم يأت المساء حتى كتبوا الصلح بينهما في اللغتين ، وأمضاها الفريقان ، وقد تمكنت من استنساخها وهـذا هو ذا نصهـا :

(بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامـان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصـاعهم ومددهـم وعددهم ، لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ، ولا يساكنهم النوبة • وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف ، وعليه ممن جنى نصرتهم ، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة ، وان نقص نهرهم عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهـم ، ومن أبى واختار الذهاب

فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا ، وعليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا ، على ألا يغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .. شهد الزبير ، وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر) .

ولما كتب على هذه الصورة قرىء على الحضور من القبط والعرب باللغتين ، فتصافح الفريقان وصاروا جميعا يدا واحدة ، ثم كتب سيدي الى البطريق حاكم الاسكندرية يخبره بالامر ، ولا ندري ما يكون جوابه .

وفيما كان مرقس يتكلم كانت أرمانوسة وبربارة ترقبان أركاديوس وما يبدو منه . أما هو فكان مصغيا الى مرقس وقلبه يتقطع ، ويكاد يتميز غيظا ، حتى سمع شروط الصلح ، وأن العرب والقبط تصافحوا بعد كلام المقوقس وتثبيطعزائم رجاله ، فوثب بغتة ونادى : « يا للعار ! قد قضي الامر يا أرمانوسة لم يبق لي مقام بهذه البلاد ، فها هو ذا والدك قد أتم ما كان يبغيه من صلح العرب ، ولم تبق لنا حيلة في دفعهم عنا ، وليس في طاقتي أن أنظر الى أبيك . وقد تحققت الآن أنه هو الذي ساعد العرب على فتح الحصن واخراج جندنا منه ، فالاقامة هنا لا أستطيعها ، وقد عاهدتك وأقسمت لك الايمان المعظمة أن لا أفارقك بعد واقعة الحصن ، فها قد انتهت الواقعة ، فنحن — أنا وأنت — روح واحد ، وبقاؤنا هنا تحت سلطة هؤلاء البدو مستحيل ، واذا ذهبنا الى الاسكندرية فلا آمن غضب أبي لأنه عالم بمساعي أبيك ، فلا يرضى ببقائنا معا . فما الحيلة اذن ؟ » . قالت : « اني رهينة أمرك » .

قال : « اعلمي يا أرمانوسة أن أباك قد ارتكب خيانة لن تمحو ذكرها

الأيام . لانها ستؤدي الى خروج وادي النيل من أيدينا الى أيـدي العرب .
فاذا عرف هؤلاء المحافظة عليه طـالت اقامتهم به قرونا . لأنـه من خـير
بلاد الله تربة وأكثرها خصبا ؛ فجعله أبوك غنيمة باردة للعـرب ؛ وأصبحت
الـروم ومنازلهم وما ملكت ايمانهم في قبضـة هؤلاء العرب . انهـا
خيانة لا أستطيع عليها صبرا ؛ فاقامتي معه ضرب من المستحيل . ولولا حبك
الراسخ في هذا القلب لسعيت الى قتله بهذا الحسام » .

وكانت أرمانوسة أثناء كلامه مطرقة خجلا لمـا أتاه والدها ؛ وكأنها
استيقظت من سبات فأدركت كنه الجريمة فلم تحر جوابا .

فأتم هو كلامه وقال : « ولكنني لا أمسـه بسوء اكراما لعيني أرمانوسة
وطالما دافعت عنه عند أبي ؛ وكثيرا ما غالطته . مع علمي بالخيانة . فكأني
شاركته فيها ؛ وأنا لا أصبر على جواره . فاذا أطعتني هجرنا هذه البلاد .
وأتممنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد الى أن يقضي الله بما يشاء » .

فقالت : « اني معك حيثما توجهت ؟ » .

فقال : « أما والحالة هذه فلنترو ولنتعقل . فنحن الآن متحدان
قلبا فلندع قسيسا يتم عقد اتحادنا الجسدي » .

وكان مرقس وبربارة يصغيان ليعلما عاقبة الحديث ؛ واستحسنـا
الرأي . فأسرع مرقس فجاء بقسيس منف فصلى وبارك قرانهما فلمـا
تمت صلاة الاكليل قال مرقس : « وأنـا لا اقامة لي هنا بعدكما ؛ فهـل
تسمحان بأن أكون في خدمتكما أنا ومارية ؟ » .

فنصحا له بالا يلقي بنفسه فيما هو في غنى عنه ؛ فأصر ؛ وبعث الى
مارية ووالدها فحضرا فأنبأهما بقصده . فقالا : « نحن نسير معكم أيضا ،
ثم صلى القسيس وعقد قران مرقس بمارية .

* * *

خلا أركاديوس بأرمانوسة يتشاوران ، فقر رأيهما على الذهاب الى بلد لا يعرفهما فيه أحد . أمـا أرمانوسة فانها لما تحققت أنها أصبحت زوجة أركاديوس ، وسكن قلقها عليه ، انتبهت وكأنهـا أفاقت من سبات : كيف تعقد قرانا لا يعرفه أبوهـا ؟ وشعرت أنها أثمت في حق أبيهـا ، وبأنها خرجت من بيته في غيابه ، ثم تخيلته وقد جاء منف على أثر ما قاساه في أمر الحرب ولم يجدها في منزله ، ولم يعرف أين هي . وقد كـانت منذ حداثتها تسليته الوحيدة بعد وفـاة والدتها ، ولم يكن يهمه شيء لا يهمها ، ولولا اشتغاله بالحرب ومعداتها لمـا فارقها يوما واحدا ، فقد كـان ينتظر عودته الى منف بفارغ الصبر ليقضي بقية أيامه بجانبها ، فكيف يأتي ولا يجدها ، وهي تعلم منزلتها عنده ؟ فجعلت هذه الهواجس تجـول في خاطرها ، وتتجاذبهـا وهي صامتة ، وأركاديوس يفكر في مثل ذلـك ، لأن حاله تشبه حالهـا من هذا القبيل . وبعد أن صمتا برهة هب أركاديوس فجأة ورفع يده الى صدره ، وجعل يبحث بين أثوابه كـأنه أضاع شيئا ، فنظرت أرمانوسة اليه فرأت البغتة والقلق باديين عليه فقالت : « ما بالك يا حبيبي ؟ ما الذي جرى ؟ » .

قال : « لقد أضعت شيئا لا تقل خسارته عن خسارة هذا الحصن » .

قالت : « وماذا عسى أن يكون ذلك ؟ » .

قال : « أضعت الصليب الذي أهديتنيه ، وقد كان معلقا في صدري تحت ثوبي حتى ليلة مجيئي اليك ، وكنت أخرجته لأقبله وأنـا أنزع ثيابي للرقـاد ، ووضعته أمامي ، ثم جاءني رسولـك على عجل ، فاضطررت الى المجيء عملا بأمرك ، فلبست ثيابي ونسيته هناك ، واني لأتشاءم أن نجتمع ويضيع الصليب ؟ » .

قالت : « وكيف تستطيع الوصول اليه ، وفي دخولك الحصن بعد احتلال العرب ما فيه من الخطر ؟ » .

قال : « أرى أن أصطحب مرقس الى الدير فهم يعرفونه : انه مـن أتباعك فلا يسيئون الظن به ؛ وألبس أنا لباسا مثل لباسه فندخل معا للبحث عن الصليب » .

قالت : « وماذا بعد ذلك ؟ » .

قال : « نضرب موعدا نلتقي فيه في موضع نسير منه الى حيث نريد » .

قالت : « كيف الفراق بعد الاجتماع ؟ » .

قال : « لا بد من خروج كل منا على حدة لئلا ينكشف أمرنا ، فأذهب أنا أولا ، وغدا أو بعد غد تلحقين بي ؛ وأكون بانتظارك في عين شمس ومعي كل المعدات اللازمة ، فأرسل مرقس ليأتي بك وبأهلـه ؛ فنسير معا الى حيث نريد ، وليكن خروجك متنكرة » .

فعظم عليهـا الفراق وما وراءه من الفرار فبهتت ولم تجب ؛ فحمل ذلـك منها على محمل الحياء ، وودعا مرقس ، ثم ودعا أرمانوسة وخرجا ، وظلت هي في حجرتها وحيدة ، وقد عظم عليهـا الامر ، كـأنها في حلم ، وعادت اليها هواجسها ، وشعرت بحال والدهـا وما بينهما من الرابطة ، وبحبه لهـا ، فكيف تتزوج بلا علمه ؟ وكيف تهجره الى الابد ؟ وتصورت حاله بعدها . ثم تحول ذهنها الى أركاديوس وحبهـا له ؛ وما قـاسته لأجله ، فانشرح صدرها انشراحا أشبه بلهيب أضاء بغتة في ليل دامس ثم انطفأ . فأخذت في البكـاء . وكـانت بربارة في شاغل من أمر البيت ، تعد معدات السفر وتجمع المتـاع اللازم مما خف حمله وغلا ثمنه ، فعادت الى الغرفة لتسألها عن شيء أشكل عليها فرأتهـا تشرق بدموعها ، فهمت بها وقالت : « ما بالـك يا سيدتي تعودين الى البكـاء وقد تم لك فوق ما كنت تتمنين ، فأركاديوس زوجك ، وقد قيل : (ما يجمعه الله لا يفرقه انسان) . ولم يبق لهرقل ولا ابنه سلطـان عليك ، لخروج البلاد مـن قبضتـه ؟ » .

فتنهدت أرمانوسة وقالت : « آه يا بربارة ! لا أدري أين هي السعادة ؟ فقد كنت أحسبها في لقاء الحبيبين فقط ، فلما ظفرت به ، نقصتني فيه السعادة ، فما أنا بسعيدة يا بربارة ! » .

قالت : « ولماذا ؟ » . قالت : « أتسألينني وأنت أعلم الناس بحال أبي الذي لو فتشت قلبه وبحثت بين جوارحه لم تجدي غير أرمانوسة ؟ فأنا تعزيته في أواخر أيامه . كيف يعود من تكاليف حياته غدا ولا يراني في البيت ؟ ما الذي يخطر في خاطره ؟ واذا عرف بعد ذلك سر غيابي الا يعيش بقية عمره حزينا كئيبا ؟ أأرضى له ذلك ؟ أليس هذا عقوقا مني ؟ قد كنت يا بربارة تائهة وعلى عيني غشاوة . كان لهفي على أركاديوس وشوقي الى لقياه قد شغلاني عن بري بأبي ، ولم أكن أتوقع الخروج من بيته هربا على هذه الصورة » .

وكانت أرمانوسة تتكلم وهي تبكي ، وبربارة مصغية لا تبدي حراكا وكأنها أفاقت هي الاخرى من غفلة ، ولسان حالها يقول : « لقد صدقت » . فلما أتمت أرمانوسة كلامها ظلتا صامتتين برهة ، ثم قالت بربارة : « وما العمل يا مولاتي ؟ ان أركاديوس لا يرضى الاقامة مع أبيك بعدما ظهر له من أمر الحصن وتسليمه » .

قالت : « لا أدري يا بربارة ، انجديني برأيك ، فاني لا أعي شيئا » .

قالت : « دعيني أفكر في الامر ، وقومي الى الحديقة روحي عن نفسك ونزهي طرفك ، وان غدا لناظره قريب » .

فنزلت أرمانوسة الى الحديقة ، واشتغلت بربارة بتهيئة المعدات ، وهي لا ترى بدا من السفر ، لعلمها أن تأخيره يحبط كل مساعيهم ، وقد عولت على استرضاء المقوقس واستعطافه بعد انقضاء الحرب .

* * *

لم يغمض لأرمانوسة جفن في تلك الليلة لمـا تقاذفها من الهواجس وما تولاهـا من التردد ، وفي صباح اليوم التـالي نهضت لصلاتها المعتادة فسمعت لغطـا ووقع خطوات عرفت أنهـا خطوات بربارة . فتوقعت دخولها عليهـا ، وهي تدخل بلا استئذان . فلم تدخـل حتى أتمـت أرمانوسة الصلاة . فقالت لها : « ما وراءك يـا بربارة ؟ » . قالت : « ما ورائي الا الخـير ، لقد جـاء المبشرون بقدوم سيدي المقـوقس الآن » .

فبغتت أرمانوسة ، وكـانت لا تزال جاثية تصلي . وصاحت : « جاء ؟ أواه ! ما الذي جاء به ؟ ما العمل يـا بربارة ؟ اني أرتعش خوفا وازداد خفقان قلبي . وكنت قد ارتحت قليلا وأنـا أصلي . لأني توسلت الى الله وألقيت حملي عليه » . قالت ذلـك واستلقت على السرير . وهي لا تدري كيف تقابل والدها . فقالت لهـا بربارة : « لعل الله قد هيـأ لنا الخير ، سكني روعك » .

فما لبثت أن سمعت وقع أقدامه وقرع عصاه وصوت سعاله في الدار . فازداد خفقان قلبها ، وتحفزت للقيام وركبتاها ترتجفان . واذا به قد دخل ، وأسرع اليها وضمها الى صدره وقبلهـا . أما هي فألقت نفسها علـى صدره . وتذكرت حنانه فهاجت شجونهـا وتذكرت ما هي فيه مـا لا يعلمه . فغلب عليهـا البكـاء . فجعلت تبكي وتنتحب . فبكى والدها وهو يعجب لحالها . وكـان يحسبهـا تبكي بكـاء الفـرح . فلما طـال بكـاؤها سألهـا عما يدعوها الى ذلـك فلم تجب .

أمـا بربارة فهمت بيدي المقوقس فقبلتهما وقلبها يخفق مخافة أن تبوح أرمانوسة بسرها . فيقع الجميع في مـأزق حرج . فجعلت تلتمس الاعذار عن بكـاء أرمانوسة . وتحذرها خلسة أن تقول شيئا . وقالت للمقوقس : « ان طول غيابك يا سيدي سبب هذا البكـاء . فقد تركتنا

والبلاد في حرب ، وسيدتي أرمانوسة وحيده هنا ، فهي لا تكاد تصدق أنها تراك ، فغلب عليها البكاء وهو بكاء الفرح » .

قال : « ولكنكم تعلمون الا خوف علينا من هذه الحرب ؟ » .

قالت : « لم نخف الخطر ، ولكننا استوحشنا . فالحمد لله على سلامتك » .

قال : « وهذا ما أشكو منه أنا أيضا ، ولذلك فاني اذا سرت الى مكان يطول غيابي فيه اصطحبتها معي » .

قالت : « عسى ألا يحدث بعد اليوم سفر طويل ، فتبسم وقال : « لا بد من السفر . واني انما أتيت لنذهب معا الى الاسكندرية » .

فخفق قلب أرمانوسة ، وعلا وجهها الاحمرار ، ثم امتقع لونها حيرة ووجلا ، وأدركت بربارة ذلك ، فقالت للمقوقس : « وما الذي يدعو الى هذا السفر يا مولاي ؟ » .

قال : « ان العرب الذين دخلنا في ذمتهم ، وأنقذونا من ظلم الروم ، ذاهبون غدا الى الاسكندرية لفتحها ، وقد طلبوا الي أن أصحبهم اليها لنعد لهم المؤونة بعد طول الغياب ونسهل وسائل النقل . ولما كان شوقي قد اشتد الى أرمانوسة فقد جئت لأصطحبها ، ولا خوف علينا لاننا سنكون بعيدين عن مواقع الحرب » .

فلما سمعت أرمانوسة ذلك ازدادت حيرتها ، ولبثت صامتة ، وذكرت دعاءها ربها في صلاتها في الصباح : « لعل الله قد فعل ذلك لأجلي » . ولكنها لم تدرك الخير في بعدها عن أركاديوس ، فسلمت أمرها لله وقالت لأبيها : « اذهب معك الى حيث شئت » .

قال : « هلسي يا بربارة مري الخدم باعداد ما تحتاج اليه سيدتك من معدات الاسفار ، فاذا أحبت الركوب على فرس أو هودج أو عربة فليهيئوا لها كل ما تريد ، وليحملوه في القوارب الى الضفة الشرقية ، ونحن نلتقي بهم

أمام الحصن بالقرب من معسكر العرب ، ليركبوا ونحن في مقدمتهم ، وحولنا حرس منهم حتى نأتي الاسكندرية » . قال ذلك وخرج فنادى الحراس وأمرهم باعداد القوارب . فلما خرج قالت أرمانوسة : « ماذا نعمل يا بربارة لأركاديوس ؟ » . قالت : « نترك له خبرا مع مارية ليوافينا الى الاسكندرية . فان العرب لا يلبثون أن يفتحوها ، وبعد ذلك تتدبر سبيلا ينجيك من هذه القلاقل » . وسارت بربارة للتأهب فأخذت كل ما خف حمله وغلا ثمنه . وأطلعت مارية على ما وقع وأوصتها بما تفعله ، ثم عادت وقد تم كل شيء : فركبوا جميعا وجرت بهم السفن نحو الحصن . فالتفتت أرمانوسة الى منف تودعها وهي تخاف الا تراها بعد اليوم . وكانت تظن أن والدها يعرج على الحصن ، فلما دنت منه أخذت تنظر الى مراميه وأبوابه وأسواره فلم تر أحدا . وتجاوزته السفن الى معسكر العرب حتى رست عند الضفة ، وكان رجال القبط في انتظار مولاهم : فنقلوا الامتعة الى مكان أعدوه لها ؛ وكانت أرمانوسة قد اختارت العربة لركوبها فأعدوها لها هناك ، ولكنها عدلت عنها الى السفر في النيل . ونزلت أولا في خيمة ومعها أبوها وبربارة . وكان عمرو يهم بالسفر ، وقد أمر بتقويض الخيام وتحميل الاحمال الى الاسكندرية . فلما علم بمجيء المقوقس مر بخيمته فحياه ، ورحب به وبمن معه . وجلس اليه يستشيره في الطريق الذي يختاره في الذهاب الى الاسكندرية . ودار بينهما الحديث في شتى الشؤون ، والمقوقس يصف له بواسطة الترجمان الطرق وقوات الروم والاماكن الحصينة عندهم ، وبربارة مشغولة بالحديث مع أرمانوسة ، ورجال عمرو مشتغلون بالتقويض والتحميل .

وفي الصباح التالي أرسل المقوقس أرمانوسة وبربارة ، ومعهما بعض الحاشية والخدم ، في سفن تسير في النيل ، على أن يوافيهم الى مريوط .

وفي الضحى أقلع العرب والمقوقس وحاشيته قاصدين الاسكندرية . وكان المقوقس يتقدم العرب مسافة يوم أو نحره ليصلح الجسور ويسهل الطرق ويهيء ما يحتاجون اليه من المؤونة ووسائل الحمل . والروم يفرون أمامهم الى الاسكندرية ، وهي آخر ملجأ يلجأون اليه . فاذا أخرجوا منها لم يبق لهم مقر .

* * *

أما أركاديوس فتنكر بلباس جند القبط ، واصطحب مرقس الى حجرته التي كان ينام فيها بالقرب من كنيسة المعلقة ، فمرا بالكنيسة ، وكان أركاديوس يتوقع أن يراها خرابا محطمة الايقونات متهدمة المذابح ، ولكنه بغت لما رآها لا تزال سليمة ، والمسلمون والاقباط يدخلونها ويخرجون منها باحترام ووقار ، فعظم أمر المسلمين في نفسه . ولم يكن مرقس أقل استغرابا منه ، لأنه لم ينس ما فعله جند الروم في تلك الكنيسة . يوم جاءوا لاحتلال الحصن منذ بضعة أشهر ، وأركاديوس معهم . فحدثته نفسه أن يذكر أركاديوس بذلك . ومشيا في الكنيسة لا يعترضهما أحد ، لأن أكثر الناس هناك يعرفون مرقس لعلاقته بالمقوقس ولدخوله معسكرهم مرارا . وفيما هما ماشيان لقيتهما الراهبة التي كانت قد حفظت كتاب البطريرك بنيامين للمقوقس حتى أخذته بربارة لتوصيله اليه . فلما رأت مرقس هشت له واستقبلته محيية وهي تبتسم مستبشرة ، فسلم عليها وسألها عن حال الراهبات ، فقالت : « نشكر الله على نجاتنا من الروم (ولم تكن تعلم رفيقه رومي) وأبشرك يا بني بأن البطريرك بنيامين حبيبنا التقي الورع سيأتي عما قليل » . فتجاهل مرقس قولها اخفاء لقصة البطريرك فقال لها : « كيف هؤلاء العرب معكن ؟ » . قالت : « انهم من خيرة

الناس ، وقد كنت أخشى أن يفعلوا في هذه الكنيسة ما فعل الروم يوم دخلوها ، فما شعرت الا والامير نفسه قادم الينا يطمئننا ويخفف عنا ، ويقول : (لا بأس عليكن) . فلما آنست فيه هذا اللطف دعوت له وطلبت اليه أن يستقدم الينا البطريرك بنيامين ، فوعدني خيرا حفظه الله وأدام سلطة العادلين » .

وكان أركاديوس يسمع كلامها وهو يتقد غضبا ، ولكنه علم أن اطلاعها على أمره لا يخلو من الخطر الشديد فسكت . وقد شعر بما كان يقاسيه الاقباط من العنف والاستبداد في أيام دولتهم . وظلا سائرين حتى دخلا الغرفة . وبحثا فيما بقي من الاثاث ، فوجدا السلسلة والصليب في بعض أركان الحجرة ، لم يمسهما الفاتحون ، فتناولهما أركاديوس وقفل راجعا ، وكان الليل قد أسدل نقابه . وفي اليوم التالي أنفذ مرقس الى أرمانوسة ، وكانت قد خرجت من منف . فلا تسل عن حاله لما عاد مرقس وأنبأه بالخبر ، فانه استعاذ بالله ، واسودت الدنيا في عينيه ، فقال له مرقس : « لا تجزع ان سيدتي أرمانوسة في حفظ وأمان ، لا خوف عليها في صحبتها والدها ، فاذا رأيت أن تسير الى الاسكندرية فتلقي أباك وتخبره بما أنت عازم عليه فافعل ، فلعل القلوب تصفو . وأنا أذهب الى سيدتي أرمانوسة لأكون بمعيتها حيثما توجهت ، وآتيك بأخبارها وآتيها بأخبارك ، حتى ينقضي أمر الاسكندرية ، فتكون مصر أما للروم وأما للعرب ، وفي الحالين أنت لأرمانوسة وهي لك . فهي لا تلام على ذهابها مع أبيها ، وهو لا يعلم شيئا من أمركما ، فأرجو أن تتدبر الامر حتى يرتاح ضميرها » .

فقال أركاديوس : « لا لوم عليها ولا تثريب » ثم فكر قليلا وقال : « اني أعهد في أمر أرمانوسة اليك ، وما دمت الواسطة بيني وبينها ، فانك لا شك تقوم بما فيه نفعنا » .

قال : « اني عبدكما ، وكل ما أتيته فهو منكما واليكما .. ولم يكن لي في الدنيا مأرب غير اجتماعكما على سكينة وطمأنينة » .

فقال أركاديوس : « بورك فيك ، وها أنذا ذاهب الى الاسكندرية لعلي ألقى أبي هناك ، أو ألقاه قد يئس من حياتي وسافر الى القسطنطينية . وعلى كل حال فاني سأقيم في معسكر الروم لعلي أشفي غليلي من العرب . وأما أنت فجئني بخبرها ومكانها بعد أن يصل العرب الى الاسكندرية » .

فقال مرقس : « ولكن كيف أستطيع الوصول اليك ، والاقباط الآن أعداء للروم ؟ . على أن في استطاعتك أن تحل هــذه المشكلة ، ومشكلة غيابك عن الحصن معا . فتذكر لهم أني جاسوس على المقوقس ، وانــي أنبأتك بخيانته فلم تصدق وخرجت معي متنكرا لتتحقق الامر ، فسقط الحصن خلال ذلــك » . فوافقه أركاديوس على هذا الرأي .

- ١٤ -

فسطاط عمرو

امتطى أركاديوس جواده وسار قاصدا الاسكندرية في غير طريــق الجند ، وقد امتلأ بالفوز على العرب والأخذ بالثأر ، وكلمــا تخيل ذلك انتعشت آماله ، وآثر أن يرى أرمانوسة وقد كلله الظفر ، على أن يفر بها خلسة الى حيث لا يعلم .

أما مرقس فيمم معسكر العرب بالقرب من بابل ، في المكــان الذي فيه جامع عمرو الآن ، فرأى الارض مقفرة ليس فيها الا بقايا الاطنــاب وما تركه الجند من الالبسة والاسلاب ، ورأى فسطاط عمرو لا يــزال

منصوبا في مكـــانه لا يخفره أحد ، فعجب لذلـــك ومشى حتى دنـــا منه فاذا هو خال ليس فيه الا بعض اليمـــام المعشش في سقفه أو في بعـــض ثنايا الجدران ، فوقف ينظر يمنة ويسرة . فرای عبدا يقترب منـــه عرف أنه من عبيد العرب الذين يقومون بخدمة الجند من احتطـــاب وسقاية ونحو ذلك ، وقبل أن يصل العبد صاح في مرقس أن يخرج من الفسطـــاط على عجل ، فعجب لذلك وخرج ينتظر وصوله ، فلمـــا وصل سأله بالعربية وكان قد حفظ بعضها : « ما أمر هذه الطيور وهذا الفسطاط ؟ » .

قال : « ان مولانا الامير أمر ببقاء الفسطاط منصوبا محافظة على حياة هذه الطيور لانهـــا كانت معششة فيه يوم عزمنا على الرحيل ، فلم يشأ الامير عمرو تقويض هذه الخيمة رفقا بصغارها . وبعد أن أقلع الجند وساروا ، خاف أن يعتدي أحد المـــارة على هذا الفسطاط لجهله سبب بقائه ، فأمرني بالرجوع والاقـــامة هنا ريثما يعود هو من الاسكندرية ظافرا حامدا ان شاء الله » .

فأعجب مرقس بالمسلمين وازداد ميلا الى الرضوخ لسلطانهم ، ثـــم سأل العبد عن مسير الجند فقال : « انهم سائرون على رأي المقوقس » . قال : « وهل سار المقوقس معهم ؟ » قال : « انه في مقدمتهم ، بل هـــو يتقدمهم عدة أميال يهيىء لهم وسائل النقل والطعام ، ويمهد لهم الطريق . وينشيء الجسور وغير ذلك ممـــا يحتاج اليه الجند في مسيرهم » . قال : « ومتى أقلع المقوقس ؟ » . قال : « بعث أهلـــه في الصباح باكرا ، ثم أقلع الجند في الضحى وهو معهم ولكنه تقدمهم كما أخبرتك » .

قال : « الا تعلم أين سار أهله ؟ » . قال : « لا أدري ، وما يهمك من أهله ؟ » . قال : « أنا من أهل قصره » . قال : « اذا أسرعت أدركـــت المقوقس والجند لأنهم سائرون ببطء » .

فودعه وسار مسرعا على جواده ، فأدرك العرب قبل أن تغرب الشمس

وقد حطوا رحالهم للمبيت ، فوجه انتباهه نحو خيمة سيده فلم يرها ، فسأل عنه فقيل له أنه على بضعة أميال في المقدمة ، فأسرع حتى بلغ مضربه ، وقد خيم الغسق ، فلم ير أحدا غير الحاشية ، فسأل عن المقوقس وأهله فأجابوه بأنه تحول الى بعض القرى يخابر شيوخها ليعدوا الرجال لخدمة العرب فيما يحتاجون اليه في أثناء مسيرهم لأن رجاله وحدهم لا يكفون ، وقد أرسل بعضهم الى شيوخ القرى في بعض المهام •

فقال : « وأين السيدة أرمانوسة ؟ » • قالوا : « أرسلها وخادمتها في سفينة الى بلدة في ضواحي الاسكندرية تقيم مع بعض أهلها ريثما تنتهي الحرب » •

قال : « ما اسم تلك البلدة ؟ » • قالوا : « مريوط » •

فعرفها وأراد الخروج توا قبل أن يأتي المقوقس ويستبقيه معه ، ولكن الظلام منعه ، فتنحى للمبيت في قرية قريبة يعرف فيها صديقا ، فبات عنده وبكر قاصدا مريوط •

أما أرمانوسة فكان أبوها قد أرسلها الى مريوط وقاية لها من غوائل الحرب فسارت في مياه النيل المبارك ، وقد أعد لها الملاحون سفينتها وجهزوها بكل ما تحتاج اليه من أسباب الراحة : فجلست في صدر السفينة وبربارة بين يديها ، ثم تذكرت حالها وأخذت تفكر في أركاديوس وما قد يبدو منه بعد علمه بسفرها ، وتوقعت أن يأتيها مرقس بالخبر ، وكانت تخاف أن يكون مكدرا ، وكلما فكرت فيه تقلب شعورها بين الخوف والاضطراب والارتياح والبغتة • وما زالوا سائرين يرسون ليلا ويقلعون نهارا حتى أدركوا مريوط بعد بضعة أيام ، وكان مرقس قد سبقهم ، ووقف في انتظارهم عند مرسى السفن ، فرأى أهل المدينة يتأهبون لاستقبال ابنة حاكمهم ، وقد وقفوا عند الضفة فوقف معهم •

* * *

فلما رسا القارب تقدم بعض النسوة من أعيان البلدة ، فاستقبلن أرمانوسة ، وبربارة تصحبها ، واشتغل الرجال بنقل الامتعة ، وأرمانوسة تسلم سلاما رقيقا ، والكل ينظرن اليها ويعجبون بهيئتها وجمالها . أما مرقس فلم ير الظهور أمامها حينئذ لئلا يضرها الاضطراب أو البغتة ، وكانوا قد أعدوا لها مركبة ذهبت فيها الى منزل شيخ البلد . فسار مرقس في أثرها حتى اذا دخلت استأذن عليها فأذنت له ، واستقبلته بربارة أولا وسألته . فقص الخبر عليها فدخلت به الى أرمانوسة ، فحالما رأته خفق قلبها واستطلعته الخبر فطمأنها ، وروى لها ما تم عليه الاتفاق مع أركاديوس ، ففكرت قليلا ثم قالت : « أذهب أركاديوس الى الاسكندرية للحرب ثانية ؟ » .

قال مرقس : « نعم يا مولاتي ، ولكنه حريص على حياته ، والله حارس له » .

فنظرت الى بربارة وقالت لها : « ألم يقسم لي أنه لن يشهد حربا ؟ » .

فقال مرقس : « العفو يا سيدتي ، وما الذي يفعله وقد رأى نفسه وحيدا وأنت مع سيدي المقوقس ؟ » .

فقالت والدمع يكاد يتناثر من عينيها : « نعم ان الذنب ذنبي . نعم أنا تركته وهو لم يتركني » . وحولت وجهها فأدرك مرقس انها تريد الاختلاء ببربارة فخرج من الغرفة . فما كاد يخرج حتى أطلقت سراح دموعها وقالت : « لقد ارتكبت ذنبا كبيرا ، ولكن ما العمل ؟ .. آه ماذا أفعل ؟ أكنت أترك أبي وأهجر بيته ، وقد رباني وكفلني وأحبني وترك كل شيء من أجلي ؟ آه .. آه .. » . وأجهشت في البكاء ثم قالت : « ولكن أركاديوس .. أركاديوس حبيبي ... » . وكانت بربارة مطرقة تفكر صامتة ، فلما قالت أرمانوسة : « حبيبي » رفعت رأسها

وقالت : بل هو الآن أقرب حبيب » . فأدركت أنها تذكرها باقترانهما ، وأنه أصبح زوجها فقالت : « نعم انه أقرب من الحبيب وألصق من الأخ وأعز من الروح » .

فقالت بربارة بصوت منخفض : « بل هو أقرب من الاب ، تذكري قول الكتاب المقدس » . فعلمت أنها تذكرها بأمر الكتاب القائل : « يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته » . فقالت لها : « ولكنك لا تجهلين يا بربارة أن اكرام الوالدين من وصايا الله العشر » . فأفحمت بربارة وصمتت ، ثم قالت : « هلم يا سيدتي الى الاغتسال وتبديل الثياب والاستراحة من وعثاء السفر ، وأنا أضمن لك الراحة ، وهي لا تكون الا بالوفاق بين والدك وعريسك ، وعلى الله التوفيق » . فلما سمعت أرمانوسة قولها أشرق وجهها ولكنها استبعدت ذلك الوفاق وظلت صامتة ، ثم تحولت الى حجرتها وخدم المنزل ينتظرون أوامرها .

أما مرقس فظل في حديقة المنزل ينتظر اشارة أرمانوسة حتى خرجت بربارة وأوصته بأن يذهب الى الاسكندرية ويحتال في الدخول على أركاديوس ويطمئنه على أرمانوسة ثم يعود فيطمئنها عليه .

فاستراح بقية ذلك اليوم ، وأصبح في اليوم التالي فلبس لباس الروم وحمل بيده علما أحمر كان أركاديوس قد أوصاه بحمله ليعرفه به عن بعد فيدعوه اليه . فلما أطل على أسوار الاسكندرية وقف على مرتفع فأشرف على المدينة وقصورها ، ووراءها بحر الروم يرغي ويزبد ، وقد علا هديره ، ووقف الجند على الأسوار في مراميهم وأبراجهم ، وخفقت الاعلام فوق رؤوسهم ، فهاله منظرهم ، وخاف أن يرميه أحدهم بنبل أو سهم ، فسار مبتعدا على حذر حتى أتى الموضع الذي عينه له أركاديوس ، ولم يكد يقف هناك هنيهة حتى رأى رجلا خارجا من المدينة يناديه ، فأسرع اليه فاذا هو رسول أركاديوس في

انتظاره ليأتي بـه اليه فدخلا المدينة ، ولـم تكن هذه أول مرة دخـل فيها الاسكندرية ، ولكنه رأى فيها هذه المرة غـير ما عهده فقد تزاحمت الاقـدام ، لما تقاطر اليها من جالية الروم من سكان وادي النيل بعـد فتح الحصن ، فازدحمت أسواقها بهم ولا سيما سوق المأكولات والمشروبات ، ومشى يتأمل المساكن وحـال الناس من الاضطراب ، فوصل الى منزل عـرف أنه منزل يحيي النحوي وكـان قد سمع حديثه من زيـاد العربي ، فأحب أن يراه لأنـه على رأي المقوقس فسأل رفيقـه قائـلا : « أليس هذا بيت يحيي النحوي ؟ » •

قال : « بلى ! هذا هو بعينه ، ولكنه ليس هنا الآن ، فقـد هجر الاسكندرية منذ اضطهده القوم أكثر من ذي قبل » • فقال : « والى أين ذهب ؟ » • قال : « لا أدري ، لعله يقيم في بعض الاديار أو بعـض المكتبـات » •

ثم مل مرقس السير فقال : « الى أين نحن ذاهبان ؟ » • قـال : « نذهب الى القائد أركاديوس » •

قال : « وأين هو ؟ » • قال : « هو في الملعب مع سائر القواد يلعبون بالأكر ترويضا لأجسامهم ، وكذلك يفعلون في كل صباح » •

قال : « وما أدراك اني آت اليه ؟ » • قال : « علمك الأحمر ، لأن مولاي القائد أركاديوس أوقفني عند باب الحصن ، وقال اذا رأيت رجلا حاملا علما أحمر مارا بجانب السور فجئني به ، وقد أوصـاني الا أكلمك أثناء الطريق ، وهذا شأننا في مثل هذه الحـال ، فالاولى السكوت لئـلا يرانا أحد فيشي بنا فأعاقب •

فسكتا وسارا حتى أتيا الملعب في أطراف المدينة من جهة البحر ، فدخل الرسول أولا ، ثم دخل مرقس الى ساحة كبيرة فرأى أركـاديوس قادما نحوه ، وقد ترك رفاقه القواد جلوسا على كراسيهم وعلى دكة من

الرخـام قائمة على أعمدة منقوشة ، وفيهم بطريق كبير على كرسي ضخم مموه بالذهب الخالص . فلمـا التقى بأركاديوس هم بتقبيل يده ، فدعاه أركاديوس الى السير معه ، حتى دخلا غرفة من غرف الملعب ، وسأله عن أرمانوسة ، فقص عليه خبرها وخبر الجند ، فقال أركاديوس : « الذي أعلمه أن العرب حاربوا جندنا في مريوط » .

قال مرقس : « تلك مدينة ، وهذه قرية والاسمان متشابهان » .

فسر لوجودها في مكان أمين بعيدا عن المعسكر .وأوصاه أن يعود اليها بالتحية ويطمئنها .

وكـان البطريق وقـواده قد علمـوا بقدوم مرقس جـاسوس أركاديوس ، وأنه أتـاه بأخبار العرب ، وحركاتهم فلمـا خرج أنصتوا لسماع ما سيقصه عليهم أركـاديوس فأطلعهم على ما علمه وزاد فيه وهذب .

فقال البطريق : « يلوح لي أن جاسوسك عالم بدخائلهم » .

قال : « انه يا مولاي واحد منهم ، وهو أقرب القبـط الى المقوقس ، ولكنه لا يرى رأيه في خيانة الدولة ، وسيأتينا بالاخبار ويبين عدد جند العرب وكل حركاتهم ومقاصدهم » .

فضحك البطريق ضحكة ارتج لها بطنه وأجفل سامعوه وقال : « ما عسى أن يكون أمر هؤلاء البدو الحفاة ؟ ألمثل هؤلاء أقمنا المتاريس ونصبنا المجانيق وأعددنا الرجال ؟ » . قال ذلك وأغرق في الضحك .. وفي ضحكه معنى لم يدركه من الحضور غير أركاديوس ، فاستشاط غيظـا لعلمه أنه يوبخه لخروج الحصن من أيديهم الى تلـك الشرذمة من العرب الحفـاة . وكان البطريق قد وبخ أباه الاعيرج عند عودته من الحصن وهدده ولامه على انكساره وفراره بمن معه من الرجال ، وأرسله الى القسطنطينية ليرى الامبراطور هرقل رأيه فيه ، وكـان أركاديوس عنه

وصوله الى الاسكندرية : واظهاره العذر الذي تم الاتفاق عليه مع مرقس لم يؤانس ارتياحا من البطريق ، لأن هذا لا يريد أن يكون لغيره يد في قهر ذلك العدو ، ولم يصرح بذلك ، لكن عبارته نمت على ما في ضميره .

أما أركاديوس فلم يكن يجهل شيئا من سر البطريق ، ولكنه تجاهل التماسا لنيل بغيته .

وبعد بضعة أيام جاء العرب وعسكروا عند أسوار الاسكندرية وحاصروها ، ومرقس يتردد سرا بين أركاديوس وأرمانوسة .

واستمر الحصار وأركاديوس لا يدري ما الذي يصيبه من عواقب تلك الحرب ، فان كانت الغلبة للروم ، وهذا ما يتمناه قلبه ، خاف أن ينتقم الروم من المقوقس ، فيفتكوا به وبأهله ، فيصيب أرمانوسة سوء يستطيع دفعه ، واذا كانت الغلبة للعرب وتصور دخولهم الاسكندرية واستيلاءهم على قصورها وخزائنها وأسواقها وخيراتها اسودت الدنيا في عينيه ، ولكنه كان يرى من خلال تلك الظلمات سلامة أرمانوسة تشرق كالقبس في الديجور ، فلبث ينتظر ما يجيء به القضاء .

وطال الحصار أشهرا ، ومل العرب الانتظار فأجمعوا على الهجوم وتسلق الاسوار ، وجاء من أبلغ أرمانوسة الخبر فخافت على أركاديوس ، فأرسلت من جاءها بمرقس فقالت له : « هل أتاك خبر العرب ؟ » .

قال : « قد علمت .. ثم ماذا ؟ » .

قالت : « ماذا علينا أن نعمل وأركاديوس في المدينة في خطر القتل ؟ » .

قال : « أيحتاج مرقس الى تنبيه وقد وقف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمتك ؟ اني محتاط محاذر ؟ فألقي عنك القلق واتكلي على الله » . ثم ودعها وقصد الى معسكر العرب وتفهم خططهم ، فعلم أنهم مهاجمون المدينة في الصباح الباكر من جانبها الغربي ، فتفتق له

وسيلة ينقذ بها أركاديوس من الخطر ، فذهب الى الاسكندرية على عادته ، ووقع ذلك في عيد مريم العذراء . فلقيه أركاديوس وسأله : « ما خبرك ؟ » .

قال : « كانت سيدتي قد نذرت يوم حصار الحصن أن تجعلك توقد شموعا للعذراء مريم بيدك لكي ينقذك الله من الخطر فنجوت : وشغلتم بالاسفار والنذر باق لم يوف . وقد رأت سيدتي بالامس مريم العذراء كما يرى النائم ، فعتبت عليها هذا الاهمال : فأفاقت مذعورة للاخلاف في وفاء النذر وأنت في خطر . ولما كانت ذكرى سيدتنا مريم تقع غدا فأستحلفك بمحبتها أن تأتي معي الى كنيسة العذراء في الصباح لتفي بالنذر » .

قال : « وأين هي الكنيسة وكيف أفارق حصني ؟ »؟

قال : « أما الكنيسة ففي طرف المدينة بالقرب من الرابية التي كانت المكتبة عليها قبل احتراقها ، فلنذهب معا ، ونعود قبل الضحى . أما حصنك فقد مضى أشهر والعرب ساكنون لا يبدون حراكا ، فهل يتفق أن يهجموا اليوم وأنت غائب ؟ . فهب انك لا تزال نائما » . فأذعن أركاديوس . وفي فجر الغد أيقظه مرقس واخترقا المدينة حتى انتهيا الى كنيسة العذراء . فقرع مرقس الباب وطلب القسيس ، فاستغرب هذا لان الكنيسة للأقباط اليعاقبة ، والذين أرسلوا يدعونه من الروم الملكيين ، ففتح الباب بمفتاح ضخم ويداه ترتجفان ضعفا وخوفا ، ودخلا من باب ضيق . فكلمه مرقس بالقبطية وطمأنه ، فرحب بهما ، فأفهمه مرقس أنهما آتيان لوفاء نذر للعذراء والصلاة واضاءة الشموع ، وأوعز اليه أن يطيل الصلاة اجابة لرغبة الطالب ، فوقفا وأركاديوس قلق على معقله ، وخاف أن يراه أحد من الروم هناك فيشي به الى البطريق . وكان مرقس يحتال في أثناء الصلاة فيخرج من الكنيسة ويتسلق الاكمة فوق أنقاض المكتبة فيشرف على

الاسوار ؛ فعلم من حركـات الجند هناك أن العرب قد هاجموا المدينة باكرا جدا ، ولم يأذن بانتهـاء القداس حتى انقضى الهجوم ورجع العرب عن الاسوار • فما كاد القسيس يفرغ من صلاته حتى خرج أركـاديوس مسرعا يلتمس السور ، وكـان الوقت ضحى ، ومرقس معه فمـا وصلا الى الطرق العامة حتى رأيا الناس في هرج يهرعون الى قصر الحكومة فبغت أركاديوس واستفهم ، فأخبروه الخبر ، فأسرع يلتمس معقلـه • ومرقس في أثره فمرا بدار البطريق فرأيا الناس يتزاحمون بالمناكب رجالا ونساء كأنهم يتطلعون الى شيء غريب هناك ، فـسأل مرقس عن السبب فعلم أن ثلاثة من العرب دخلوا المدينة فقبضوا عليهم وسيقوا الى الحاكم

فقال أركاديوس : « وهل دخل العرب الاسكندرية ؟ » •

قالوا : « كلا ، ولكن هؤلاء الثلاثة دخلوها من ثغرة في الـسور ، ثم أقفلت الثغرة فظلوا أسرى ؛ وتقهقر رفاقهم وانتهى الهجوم » •

* * *

نظر أركاديوس الى مرقس نظرة استفهام ، ولسان حاله يقول : « ما قولك في هذا الاتفاق الغريب ؟ » •

فقال مرقس : « هلم بنا يا سيدي ندخل الدار لعلنا نعرف أحدا منهـم » •

فقال أركاديوس : « كيف أدخل ؟ » • قد يراني البطريق ، وعهده بي اني مقيم في حصني ؟ لا أقول هذا خوفا منه ، ولكني لا أريد أن يظن بي الجبن أو الخيانة » •

فقال مرقس : « ان الهجوم لم يكن من جانب حصنك ، وما أنت بمقصر فضلا عن أن الواقعة انقضت ، ورجع العرب الى معسكرهم ، وانظر الى قوادكم كيف تجمعوا في الدار لمشاهدة الاسرى • ألـست واحـدا

منهم ؟ فاجعل انك جئت فيمن جاء منهم • وثق يا مولاي ان صلاتنا في هذا الصباح هي التي ساعدت على رد العرب وحفظ أسوار المدينة ، فان للسيدة العذراء كرامة » •

فسكت أركاديوس وتحول الى الباب المعد لكبار الضباط فوسعوا له ، فدخل ودخل مرقس معه ، فرأيا صحن الدار غاصا بالناس من الاعيان والوجهاء والقواد ، فانخرطا في سلكهم وتطلعا فرأيا ثلاثة من العرب في لباس متشابه جيء بهم الى القاعة التي فيها البطريق • وتفرس مرقس فيهم عن بعد فلم ير غير أقفيتهم ، فلما وصل الناس الى باب القاعة لم يأذن الحجاب لغير كبار القواد ، فدخل أركاديوس • ودخل مرقس معه • وجلس الجميع على كراسيهم بين يدي البطريق ؛ وأوقفوا الاسرى في الوسط • وكان مقعد البطريق على دكة في الصدر ، ومجالس القواد على كراسيهم الى يمينه ويساره ، وأرض القاعة مرصوفة بالرخام الملون ؛ والجدران مزينة بالرسوم الجميلة على أبدع ما رسم الرسامون •

وما كاد نظر مرقس يقع على الاسرى حتى عرف أنهم عمرو بن العاص ، ووردان ، ومسلمة بن مخلد • فنظر الى أركاديوس فرآه يرنو اليه كأنه يستقدمه فتقدم ، فهمس أركاديوس في أذنه : « أليس هذا هو الامير عمرو ابن العاص ؟ » • قال : « بلى » •

فسر أركاديوس بأسره ، ثم ذكر يوم رآه للمرة الاولى في بلبيس ، وما كان من حمايته أرمانوسة وتأمينها ، وكيف أرسلها الى أبيها سليمة آمنة ، فلبث صامتا يترقب •

أما عمرو فكان ينظر الى البطريق ، ويلتفت يمنة ويسرة لا يعبأ بما يبرق أمامه من السيوف ، وما يتلألأ على رؤوس الجماعة من القلنسوات المزخرفة ، أو الخوذ اللامعة ، أو الثياب الموشاة بالالوان الزاهية ، ووقف رابط الجأش ورفيقاه الى جانبيه ، وتطلع بهدوء وسكينة في وجوه

الجالسين ، فعرف مرقس ، وتأمل وجه أركاديوس فخيل اليه أنه يعرفه ، ولكنه لم يذكر أين رآه . ولم يعجب من لقاء مرقس هناك لانه كثيرا ما سمع بخروجه الى الاسكندرية ليتجسس للمقوقس .

فصاح البطريق يطلب الترجمان قائلا : « أين الترجمان ؟ أين زياد العربي ؟ » .

فدخل زياد ، فعرفه عمرو ، وكان قد عاد الى مولاه يحيي النحوي بايعاز من عمرو بعد فتح الحصن ، ليكون عينا له عند الحاجة ، فوجد الروم قد زادوا في اضطهاد يحيى حتى لم يعد يستطيع الظهور ، فاختبأ ، والروم يعتقدون أنه فر من الاسكندرية . فتظاهر زياد بنصرة الروم ، وكانوا في حاجة لمعرفة اللسان العربي ، فصار في جملة المترجمين . وقلر زياد في الجالسين فرأى أركاديوس ومرقس ، فتذكر ما مر بهم جميعا أمام حصون بلبيس ، وان عمروا أحسن اليهم جميعا .

وخاطب البطريق الاسرى بلسان زياد قائلا : « ها أنتم أولاء أسرى في أيدينا ، فقولوا : ما الذي جاء بكم الى بلادنا وحملكم على قتالنا ؟ » .

فأجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت : « أتينا ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم ما لنا ، أو أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، والا فلا مفر عن قتالكم ، فان الله يأمرنا بجهاد عدونا الا اذا أجبتمونا الى أحد الامرين » .

فلما فهم البطريق قوله عجب لأنفته وشهامته ، وقد كان يتوقع أن يراه يتذلل ويستعطف ، فارتاب في أمره ، والتفت الى أعضاء مجلسه ، فاذا هم في مثل حاله ، فقال لهم باليونانية : « يظهر من أنفة هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجوه العرب ، وقد يكون من كبار قوادهم ، فلا بد لنا من قتله » . ودار الحديث بين القواد في مثل هذا المعنى ، فخاف مرقس أن يقتل عمرو فيفشل جند العرب ويتغلب الروم ، فتعود العائدة على

المقوقس وأرمانوسة ، فمـال الى انقاذ عمرو . أما أركاديوس فقد هم بأن يصرح بما يعلمه عن عمرو . غير أن مرقس تقدم اليه وقـال : « أذكر يا مولاي انه لولا هذا الرجل لكـانت سيدتي أرمانوسة ترابـا أو في قبضة يوفنا الخائن . فلولاه لقبض عليها وسافر بها الى القسطنطينية غنيمة باردة ، فانقذها منه وحفظ حياتها ، وأنا كنت الوسيط في ذلك كمـا تعلم . فهي مدينة لـه . أفيليق بنا أن نساعد على قتله ؟ وهب أنهم قتلوه : فعنـد العرب كثيرون غيره » . فسكت أركاديوس ، ولكنه لم يستطع البقـاء في القاعـة . فخرج . وظل مرقس وفي قلبه وجل على حياة عمرو . وأمـا زياد فكان ينظر الى عمرو بطرف خفي كأنـه يلومه على مجازفته . وكـان وردان يعلم اليونانية فلما فهم ما قالـه البطريق أحب أن يفهمه عمـرو فلم ير خيرا من أن يلكمه منتهرا . فلكمـه وصاح فيه : « ما بالك تهذي يـا رجل ؟ ومن أنت حتى تنسب الى سادتك ما قد نسبت ؟ ومـن أقامك متكلما عنهم ؟ وما أدراك بأغراضهم ؟ ولست الا من صعاليكهم » .

فسأل البطريق زيادا عما يقول وردان . فترجمه للبطريق وفخمـه وزاد فيه ما يرفع الشبهة عن عمرو . فازداد البطريق تعجبا لصـدور تلك الجرأة من صعلوك . فقال لوردان : « ومـا غرضكم الآن ؟ » .

قال . « اعلم يا سيدي ان أميرنا أعزه الله أقرب الناس الى المسالمة . ولكنـه يود قبل النكوص أن يعقد مجلسا من كبار الجيشين يتفقـون على شروط الهدنـة فاذا أذنت برجوعنا اليه أخبرناه بمـا لقينا من حسن الوفادة وكـرم الاخلاق » .

فضحك البطريق وقـال : « شروط الهدنـة ؟ أي شروط تريدون ؟ سوف نعيدكم على أعقابكـم القهقرى . قولوا لأمـيركم ان حاميـة الاسكندريـة ليس فيها أحد من القبط : وانما هي كلها من أبطال الروم . وليعلم انه لولا خيانة المقوقس ما استطاع البقاء في وادي النيل يوما واحدا ،

وسيلقي ذلك الخائن منــا ما يشيب لهوله الاطفال . ووالله ومريم العذراء لأجعلن لحمــه ولحم أهله طعاما للاسمــاك . عودوا الى أميركم بذلك » .

فهــاج غضب عمرو لتلــك اللهجة . ولكن زيادا ووردان ومرقس كانوا ينظرون اليه خلسة يخففون عليه مخافــة أن يصيبه الاذى . فصمت ولم يجب . وأشار البطريق أن يخرجوهم . فعادوا بهم الى باب المدينــة وأطلقوا سراحهم . فنجوا .

أمــا أركاديوس فقال لمرقس بعد خروج عمرو : « لقد ارتكبت عارا كبيرا يا مرقس لأنــي كنت أستطيع قتل أمير العرب ولم أفعل » .

فقال مرقس : « كيف نقتله وكنت أسيرا عنده ولــم يقتلك ؟ » .

قال : « ولكنه لم يطلق سراحي » .

قال : « ألم يطلق سراح سيدتي أرمانوسة ؟ ألم ينقذها من خيانــة يوقنا اللعــين ؟ ألم يكن مجيء العرب الى هذه البلاد سببا لنجاتها مــن قسطنطين بن هرقــل ؟ لا تندم يا سيدي على خــير فعلته جزاء لخــير نلته . وزد على ذلك أن مثلك يفتخر بقتل الامراء في ساحة الوغــى وليس في أغــلال الحــديد » .

فأفحــم أركاديوس وسكت . ثم حــول مرقس الى زياد فسلــم عليه وأطنب في حسن ترجمته . ثم ودع وانصرف . ولــم يكن أركاديوس قد رأى زيادا في الاسكندرية منذ رجوعه اليها . فلما لقيه دعــاه اليــه وقال له : « عهدتك في جند العــرب . فما الذي جاء بــك ؟ » . قــال : « عدت الى بلدي . فقد كنت في جند العرب لمهمة ورجعت » . فلم يشــأ أركاديوس أن يطيل الحديث لعلمه باطلاع زيــاد على كثير من سرائــره في حب أرمانــوسة .

وخرج عمرو من السور ومعه رفيقاه وكأنه في حــلم لا يكاد يصدق انهم نجوا ثم التفت الى وردان وقــال له : « ألم تر يــا وردان رجــلا

قبطيا كنت أعهده في خدمة المقوقس ، وأخالني رأيته مرارا ؟ » •

فقال وردان : « نعم رأيته وعرفته فهو مرقس الذي جاءنا مع زياد العربي يوم وصلنا الى الفرما • ورأيت زيادا وهو يترجم كلامك للبطريق ؛ لقد سررت والله بترجمته ؛ لأني رأيته يترجم ويفسر على هوانا ، ولكنني رأيت رجلا بالقرب من مرقس لا أظنك عرفته ، أما أنا فأراني عرفته من قبل ، ولعله الرجل الذي قبضنا عليه خارج بلبيس ولم نعرف حقيقته ، ثم فر منا أثناء الهجوم ، ويلوح لي انه من كبار القواد ، ويستدل على كبر نفسه من كتمانه أمرك ، ولا ريب في انه عرف انك الامير ؛ وتلك مروءة أهل الوفاء » • ووصلوا الى المعسكر والجند يبحث عنهم ، فسروا بقدومهم ، فجلسوا يقصون الخبر عليهم وهم فرحون •

* * *

وكان بعض أهالي الاسكندرية قد ملوا الحصار ، فأخذوا في الفرار بالسفن والزوارق • ولم يكن أركاديوس غافلا عن حال الاسكندريين وضعفهم وخوفهم وهجرتهم ، ولكنه بقي ثابت الجأش صابرا على اداء واجبه ، مع علمه بأنه لا يستطيع فرارا ، ولا هو يبغيه ، لأن قلبه عالق بمصر ، فقضى الشهر الاخير من الحصار في قلق شديد ، يظل ليلته ساهرا يفكر في حاله وحال الاسكندرية ، فاذا خيل اليه أن العرب فتحوها تحير في أمره وعز عليه أن يقابل أرمانوسة مغلوبا على أمره ، كما يعز عليه أن يرى أباها وهو الذي خانهم ونصر عدوهم • وفي ليلة من الليالي المقمرة طال الليل على أركاديوس ، وعز نومه ، فخرج الى السور • واتجه الى الشاطيء يصرف هواجسه وباستنشاق نسائمه لعل النعاس يأتيه ، فمر في الاسواق ، وأهلها نيام ، فلم يسمع غير نداء الحراس ينبه بعضهم بعضا بشعار الليل ، حتى انتهى الى الشاطيء فأحس برودة الهواء ، وتنسم

رائحة البحر ، والتف بعباءته وجلس على صخرة ناتئة ، ونظر الى البحر ونور القمر ينعكس على سطحه فينكسر بتحرك الامواج وينتقل بريقه من موجة الى أخرى ، وحركة الموج تبدأ ضعيفة خافتة فاذا دنت من الشاطىء تعاظم صوتها وأزبدت وتصاعدت منها فقاعات صغيرة تزداد بها رائحة البحر حرافة ، فاذا لطمت الصخور وعادت متقهقرة وقد تحول ارعادها الى دمدمة ، كجيش ضعيف هاجم جيشا قويا ، فلما دنا منه أطلق قنابله وكر راجعا وعدوه ثابت لا يكترث به . وقد سرى هذا عنه برهة ثم عادت اليه همومه ، وظل يفكر في أمره وفي الحرب وأرمانوسة حتى شعر بالبرد القارس وبالنعاس فنهض وعاد يلتمس حجرته فوق السور .

فلما وصل الى الحجرة وقف له الحراس فسلم وهم بالدخول ، فاقترب منه أحدهم فعلم أنه يبغي أمرا فوقف مصغيا ، فقال الحارس : « أن رجلا أظنه من أعيان الاسكندرية افتقدك ، وهو في انتظارك » .

قال : « وأين هو ؟ » . قال : « هو في غرفة الحراس » . قال : « ادعه » .

ودخل حجرته وقد أضاءها بالشمع ، ولم يكد ينزع القباء والخوذة حتى عاد الحارس ومعه رجل قصير القامة نحيل الجسم متجعد الوجه طويل شعر اللحية عريضها وقد وخطها الشيب ، غائر العينين ، وعلى رأسه قلنسوة العلماء وفي وجهه ملامح الرومانيين ، وتدل قيافته على الزهد والتقشف . فلما دخل تهيبه أركاديوس فوقف وتلقاه بالتحية ورحب به ، وأجلسه ، وتأمل في وجهه فلم يعرفه ، فعجب لقدومه اليه في الليل ، واشتدت رغبته في استطلاع حقيقة أمره ، ولبث برهة والرجل يردد أنفاسه يلتمس الراحة من تعب الطريق ، ويتهيأ للكلام ، ثم نظر الى وجه أركاديوس وقال : « أأنت أركاديوس ابن الاعيرج ؟ » . قال : « نعم ،

ومن أنت ؟ » . قال : « سوف تعلم . ولكنني أستحلفك بشرفك وبمن تحب أن تسمع حديثي الى آخره . فاذا لم تر العسل به أطلقت سراحي فأعود من حيث أتيت . فهل تعدني بذلك ؟ » . قال أركاديوس : « فمن أنت ؟ » . قال : « لا شك انك اذا عرفتني استغربت جرأتي في القدوم اليك . ولكنني جئت ناصحا ، فاذا لم تنتصح عدت وما علي بأس » .

فقال أركاديوس : « قل ما تريد .. ولكن ما اسمك ؟ » . قال : « قلت لك يا ولدي اني سأطلعك على اسمي ، وغاية ما أرجوه منك أن تجيبني عن بعض الاسئلة قبل أن أبوح لـك باسمي ، وأنا على الحالين بين يديك » . قال : « اسأل » .

فتنحنح الشيخ ومسح وجهه بيده الى أسفل لحيته ، وهو يتفرس في أركاديوس ويبتسم ابتساما مقرونا بالحزن ، وقال : « ألست القائد أركاديوس بن الاعيرج قائد حامية الروم في مصر ؟ » . قال : « قلت لك اني هو » . قال : « ولماذا ؟ » .

قال : « لا أدري ، ولعله ذهب اليها ليسأل عن سبب سقوط الحصن في أيدي العرب وهو قائد حاميته » .

قال : « وما ظنك بالاسكندرية ؟ » .

فأطرق أركاديوس برهة يفكر ، وهو يحاذر أن يبوح بضعف أمله لئلا يكون الرجل جاسوسا ، ثم قال : « لو اجتمعت قلوب القواد واتحدت كلمتهم وثبتت أقدامهم فانها تمتنع عن جند العرب . ولو كـانوا ألوف الالـوف » .

قال : « ذلك ما نشكو منه ، ولكنني أسألك عن رأيك ؟ هل تقوى على دفع العرب ؟ » . فقال : « أظنها تقوى » .

فقال الشيخ : « وما دليلك على ذلك وأنت ترى الناس يهجرونها ؟ وقد تفرقت كلمتهم وضعف أمرهم ، وما ضعفهم الا من اختلال حكومتهم

وانقسام حكامهم » .

قال وقد تجاهل حقيقة الواقع : « وأي انقسام تعني ؟ » .

قال : « أعني الانقسام الذي وقع بعد وفاة الامبراطور هرقل في هذه الاثناء وكثرة من ادعوا الحق في الملك وقاموا يطالبون به . فأفضى الامر الى قسطنطين ابن هرقل ، فقتلوه بالسم بعد مائة يوم . سقته اياه مارتين امرأة أبيه » .

فلما سمع أركاديوس اسم قسطنطين ، وأنه مات ، تذكر انه منافره القديم على أرمانوسة . وأتم الشيخ كلامه قائلا : « وعقد الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين هذه ، ولم تمض مدة حتى نصب قسطان بن قسطنطين ، وهم مع ذلك في نزاع دائم فقد تولى كرسي القسطنطينية ثلاثة أباطرة في وقت واحد . أليس ذلك مضعفا للعزيمة موهنا للقوى ؟ ما الذي ترجوه من جند هذه حال دولته ؟ كيف يثبت في ساحة القتال ؟ وكيف يقاوم العدة والرجال ؟ ان الخلل تمكن من هذه الدولة حتى كاد يذهب بها . أقول ذلك والاسى ملء فؤادي لأني ولدت رومانيا ، والدم الروماني في عروقي ، والحمية الرومانية في كل جوارحي ، ولكنني أرى المستقبل أمامي رأي العين ، وهذا شأن الدول منذ أول العمران وهب ان الاسكندرية دافعت العرب ولم يفتحوها ، فهل يستطيعون اخراجهم من مصر والاقباط عون لهم ؟ » .

وكان أركاديوس مطرقا يسمع حديث الشيخ ولا يرى ما يدفع به حجته ، فلما وصل الى ذكر القبط خفق قلبه لتذكره أرمانوسة فقال : « لا تذكر القبط ، فاني لا أحب ذكرهم ، لأنهم هم الذين أخرجوا البلاد من أيدينا الى أيدي العرب ، وهم الذين باعوا دولتهم ووطنهم للغرباء ، ولولا ذلك ما استطاع العرب سبيلا الى وادي النيل . تبا لك يا مرقس » . قال ذلك وحرق أسنانه .

فتبسم الشيخ والتفت الى أركاديوس كأنه يستمهله اتمـام حديثه ثم قال : « نعم يا ولدي ، ان المقوقس خان دولته وسلم البلاد لعدوها ، ولكنك لو أنصفته لالتمست له عذرا » .

فقال : « وأي عذر التمسه وقد خان البلاد خيانة صريحة ؟ » .

قال : « انه خان البلاد ولكنه لم يبعها بثمن ، ان المقوقس خـان دولة الروم مضطرا وهو رومي الاصل مثلنا . فما الذي حمله على الخيانة ؟ أطمع في مال أو سلطان ؟ أم رغبة في التقرب من عظيم أو زعيم ؟ كلا ان المقوقس خان الروم فرارا من الظلم وتخلصا من جـور دولتنا واستبداد حكـامنا ، ما الذي ترجوه من حاكم يسمع كلامهم في تحقيره باذنـه ، ويرى قومه يهانون وتهضم حقوقهم أمام عينيه ؟ ويرى كنائسه تقفـل وأيقوناتهـا تكسر وبطـاركتها ينفون ويقتلون ؟ وكهنتها يزجون في السجون ؟ وما الـذي ترجوه من طـائفة ذاقت عذاب الموت وقـاست الذل والخسف قرونا متوالية ؟ أترجو منها الاخلاص والطـاعة ؟ أم تخاف عصيانهـا وتمردها ؟ . فالقبط اذا ابتاعوا حريتهم وراحتهم بتسهيل الفتح على الفاتحين . ونحن لا ننكر خيانتهم وانما أعقل الناس من عذر الناس . هب ان القبط حاربوا مع الروم فهل كنت تتوقع الفوز ؟ » .

فرفع أركاديوس رأسه وقال : « نعم كنت أرجوه ولا أشك فيه » .

قال : « أراك مخطئا ، وقد رأيت ما حل بالشام وفلسطين والعراق من قبل . ان هؤلاء العرب تألفوا يدا واحدة على عمل ففازوا وفتحـوا البلاد ، وأخرجوا الروم من الشام ، والفرس من العراق ، ولا ريب انهـا دولة أرسلها الله لاكتساح بقايـا الدول الفاسدة من الروم والفرس ، فلا بد من فوزهـا ان عاجلا أو آجلا . فلا يلام القبط على استبدالهم بنـير الرومانيين نير العرب وقد وقع الى أن جندكم لمـا دخلوا الحصن لحمايته ووصلوا الى كنيسة المعلقة أخرجوا راهباتهـا مهانات وهن مسيحيـات

وكسروا الايقونات والكنيسة مسيحية مثل كنيستهم » .

فخجل أركاديوس لأن رجاله هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنه تجاهل وظل صامتا ، فأتم الشيخ كلامه فقال : « أتدري ما فعل العرب عند دخولهم الحصن وقد فتحوه وحل لهم نهبه ؟ » .

قال : « ماذا فعلوا ؟ » .

قال : « دخلوا الكنيسة دخولهم معبدا من معابدهم ، فطمأنوا الراهبات وخففوا عنهن ، وأقروهن في ديرهن ، وكن قد أخرجن منه يوم دخولكم . وزد على ذلك انكم نفيتم بنيامين بطريرك القبط ، أما العرب فبعثوا يستقدمونه مكرما معززا . وان عجبت لشيء فأعجب لأنهم يرفقون بالحيوان فلا يمسونه بسوء ، فقد ترك أميرهم عمرو فسطاطه منصوبا بقرب الحصن لأن تقويضه يقضي على يمام عشش فيه . فهل يلام المقوقس لنفوره من الروم وميله الى العرب ؟ ما الذي يرجوه من هؤلاء الفاتحين لنفسه ؟ انه لا يرجو مالا ولا متاعا ولا جاها ولا شيئا آخر ، ولكنه سبق الى ذلك مكرها . قد يعد عمله خيانة ، ولكن فاعله لا يعد خائنا بل منتقما » .

وكان الشيخ يتكلم وشفتاه ترتجفان ، ولحيته تنتفض ، وأنامله ترتعش ، وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وأركاديوس مطرق يصغي يفكر في أمر هذا الرجل . على أنه أنزله من نفسه منزلة رفيعة لما سمعه من حديثه ، وعظم عليه حال الروم لعلمه ان كلام الشيخ حق لا ريب فيه ، فنهض وأخذ يمشي في أرض الحجرة ذهابا وايابا صامتا يفكر ، والشيخ جالس كأنه ينتظر ما يبدو من أركاديوس . فوقف أركاديوس وقال : « وما العمل يا مولاي ؟ » .

قال الشيخ : « العمل الا تلقي بنفسك الى التهلكة بعد أن علمت ما علمته من ضعف الروم وفرارهم ، أما أنت فكلنا يعرف فيك من

عزة النفس والبسالة ما يجعلك بمنأى عن اساءة الظن بك ، فأنت لا تفر من ساحة الحرب ولا تسلم للعدو سلاحك ، ولكن الرأي قبل شجاعة الشجعان » •

قال : « وماذا أفعل اذن ؟ » • قال : « أرى أن تتنحى عن الحرب الى مكان تأمن فيه على نفسك ، فاذا وضعت أوزارها بعث أمير العرب يستقدمك اليه معززا مكرما • فالاسكندرية مفتوحة لا محالة ، ولا يمضي يومان حتى تكون في قبضة العرب عنوة » • قال ذلك وتأوه ، ثم عاد الى الحديث فقال : « تصور يا بني ان الاسكندرية أم العلوم ومحور التجارة ومثال العمران بما فيها من المدارس العالية والمكتبات الشهيرة والكنائس العظيمة والطرق العامرة والاحياء الآهلة والقصور الفخمة والحمامات الكثيرة والمصارف والحوانيت وغير ذلك • تصور انها ستصير كلها الى أيدي هؤلاء البدو الخارجين من بلاد قاحلة ليست بذي زرع » •

فقال أركاديوس : « معاذ الله أن تصير اليهم » • فقال الشيخ : « هب انها لم تصر اليهم الآن فستصير اليهم غدا وعندها لا يتيسر لك الفرار والاختباء » •

فابتدره أركاديوس قائلا : « ولماذا التستر ؟ وما الفائدة من الحياة بعد الذل ؟ ان ذلك عار على الرجال » • فتبسم الشيخ وقال : « انك لا تزال في أبان الشباب ، ويلوح لي أنك لا أهل لك ولا زوج يهمك أمرها • وهب أنك وحيد في العالم لا تحب أحدا ولا يحبك أحد ، فاني لا أرى في اجتنابك هذه الحرب عارا ، انما العار أن تلقي بنفسك الى الموت • وفي الدنيا من يموت لموتك ويعيش لاجلك • عمن تدافع ؟ وماذا ترجو ؟ وقد قلت لك وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ان دولة الروم لم يبق لها ظل على مصر والشام ، فقد خرجت البلدان من حوزتها

لفسادهـا وانقسام رؤسائها فيما بينهم على خزعبلات دينية ما أنـزل الله بهـا من سلطان • ولم يكن هذا رأيي اليـوم فقط بل هو قول قلته منذ أعوام ، فغضب على حكامنا واضطهدوني ونفوني » •

فاشتاق أركاديوس الى معرفة الشيخ فقال : « ألم يأن لك أن تصرح لي باسمك ؟ » • فوقف الشيخ وقال : « لقد عاهدتني عهدا صادقا الا تلحق بي سوءا ، والوعد على الحر دين ، فهل أنت على وعدك ؟ » •

قال : « قل ولا تخف ، فانك شيخ جليل ، لا بأس عليك » •

قال : « اني يحيى النحوي » •

فعرفه لأنه كـان معروفا في الاسكندرية ومعدودا من علمائها وقد اضطهده الروم لأنه يعقوبي المذهب كالاقباط ، فازداد احترام أركاديوس له وتقديـره •

ونهض الشيخ وودع أركاديوس فاذن له ، وأوصى بعض الحراس بأن يوصله الى مأمنه ، وعاد الى حجرته وكلام الشيخ يقرع رأسه ويرن في أذنيه ، ولا سيما ما ذكره له عن حياته وأحبائه ، فهاج به الغرام فأقفل بابه وجلس الى نافذة تطل على ساحة وراء السور تنتهي الى معسكر العرب • فأخذ يفكر في أمر دولة الروم وخروج مصر والاسكندرية من يدها وتقلص ظلها عن مصر والشام ، وما هي فيه من الفوضى حتى حكم العقلاء بقرب انقضائها ، فأسف أسفا شديدا واشتد به الاسى • ثم تذكر أرمانوسة وأنها زوجه ، وأنه اذا أصابه سوء مسهـا هي الضر ، فوقع في حيرة ، وآثر أن يحافظ على حياته ، لشعوره بعظم التبعة التي ألقاهـا عليه زواجه بها • ولكنه استصعب ترك الاسكندرية والتقاعد عن الدفاع فقضى بقية ليله مترددا لا يقر له قرار • وفي مساء اليوم التالـي جـاء مرقس ، فحالمـا رآه خفق قلبه وتذكر مجيئه اليه في حصار الحصن . فتوقع أن يسمع منه خبرا فلما دخل وحياه • قال أركـاديوس : « مـا

وراءك ؟ » • قال : « ما ورائي الا الخير » • وسكت •

قال : « ما بالــك لا تتكلم ؟ قل ما وراءك ؟ اني أراك قلقا » • قال : « ليس ما يوجب القلق يا سيدي » •

قال : « وهل من بأس على أرمانوسة ؟ » • قال : « لا بأس عليها ، ولكنني آنست منها اليوم شوقا عظيما اليك ، وقد مضى الصوم الكبير ، ونحن في أسبوع الآلام ، وهي تصلي وتتضرع الى الله أن يحرسك ، فلما أصبحت اليوم وهو يوم خميس العهد أفاقت مذعورة وفي نفسها شوق شديد لرؤيتك وتود أن تؤديا فريضة الصلاة غدا معا في الكنيسة لانه يوم الجمعة الكبيرة » •

فابتدره أركاديوس قائلا : « وأي كنيسة ؟ » • قال : « كنيســة القديس بولس » • قــال : « وأين هي ؟ » قال : « في مريوط » •

قال مغضبا : « أتريد مني يا مرقس أن أخرج من السور كما فعلت بي يوم حصار الحصن ؟ ذلك لا يكون أبدا » •

فأجفل مرقس لما رأى من غضب أركاديوس ولم يبد جوابا •

فأخذ أركاديوس يذرع الحجرة ذهابا وايابا والاستياء باد عليه ، ومرقس واقف ، وبعد برهة قال مرقس : « أيأذن لي مولاي في كلمــة أقولهــا ؟ » •

فوقف أركاديوس وقال : « قل يا مرقس ، واذكر اني ارتكبت في خروجي من حصن بابل عارا لا أريد أن أرتكبه هنا » •

قال : « حاش لك يا مولاي أن ترتكب عارا ، ولكنني أذكرك بشخص عاهدت الله أن تحبــه وتحافظ على حياته ، فاذا تــذكرته فافعــل مــا يبــدو لــك » •

فلما سمع أركاديوس ذلك التعنيف اللطيف أطرق برهة ثم قال : « تظنني ناسيا أرمانوسة أو أنني أتخلى عنها ، ولكن الشرف والمروءة

يا مرقس .. ولا أظن أرمانوسة نفسها ترضى أن يكون زوجها جبانا يفر من ساحة الوغى » .

قال : « كيف يكون حالها اذا أصاب الاسكندرية سوء ؟ ولا أخفي عليك أننا نتوقع سقوطها قريبا ، لأن العرب يتهيأون للهجوم عليها ، والروم يفرون منها ، ولا أنكر على سيدي البطل أن الشهامة تقتضيه الثبات الى آخر نسمة من حياته ، ولكن أرمانوسة .. أذكر أرمانوسة وما يحل بها » .

فضاق أركاديوس ذرعا بالتردد ورفس الارض وعاد يذهب ويجيء ومرقس يتضرّع الى الله أن يغير ما بقلبه ويلهمه أن يأتي معه .

فعاد أركاديوس وأشار الى سيفه وقال : « أتريد يا مرقس أن أفر من الحصن ولا أستحيي من حسامي هذا ؟ كيف لا أخجل ؟ بل كيف لا أذوب خجلا اذا قيل اني فعلت ذلك وأنا أركاديوس بن الاعيرج زوج أرمانوسة ؟ فاعلم اني اذا خرجت من هذا الحصن وسقطت الاسكندرية في أثناء غيابي فأنا مائت لا محالة . فدعني أدافع عن دولتي ووطني وشرفي ، فاذا عشت عشت شريفا ، واذا قتلت مت شريفا وفاخرت أرمانوسة بأن زوجها كان شهما مات في سبيل الدفاع عن وطنه وشرفه . ذلك خير لها من الخجل كلما ذكرت الاسكندرية أو دولة الروم » .

فترقرقت الدموع في عيني مرقس لعلمه بقرب الخطر ، وبأن العرب يهاجمون المدينة في صباح الغد ، فلما رآه أركاديوس يبكي رق لغيرته وحنانه ، وتقدم منه فأمسكه بيده وقال : « لماذا تبكي يا مرقس ؟ هل خفت على أركاديوس من الموت ؟ ليس الموت يا صاحبي بالامر الذي يخافه العاقل ، وانما خوف العاقل من العار . واني وأيم الله شاكر شعورك ومحبتك وغيرتك علي وعلى أرمانوسة ، وان ذلك لمما يطمئن له قلبي فتكون لأرمانوسة نعم العون اذا مسني سوء » . قال ذلك وشرق بدموعه ، ثم تجلد ونأى بوجهه عن مرقس الى النافذة فأطل

منها على معسكر العرب ، وكـان البدر قد طلع فأرسل أشعته على تلك الغياض ؛ وأكثرها من النخيل الا سهلا رحبا عسكر العرب فيه ، فوقف أركاديوس برهة ينظر الى تلك الضاحية وهو لا يرى شيئا لعظم قلقـه واضطرابه ومرقس واقف يجهش في البكاء ، فانتبه أركاديوس لصوت بكـائه والتفت اليه وقال : « انك يا مرقس شديد الغيرة صادق الود ، وما أنا بناس مودتك ما عشت ، واذا مت فاذهب الى أرمانوسة وخفف عنها ، واذكر لها أن أركاديوس أبى أن يكون جبانا لئلا يقال أنه ليس أهلا لهـا . قم يا مرقس واذهب اليها الآن ، واحتفظ بها ، وما أنت في حاجة الى من يوصيك بأرمانوسة . وأرجو أن أراكم ظافرا والا .. » . وسكت وأمال وجهه ، ومرقس لا يزال يبكي . ثم مسح مرقس دموعه وتجلد وقـال : « كيف أخرج من عندك وأنا أرى الخطر قريبا ؟ أسأل الله أن يبعده عنك » .

قال : « ان الأعمار بيد الله ، فرب رجل يموت في أبان نعيمه وراحته ، وآخر يخوض المعامع ويستقبل النبال والرماح بصدره ويعمر طويلا . والعمر يا مرقس طال أم قصر لا بد من انقضائه ، وأما العار فانه بـاق لا يمحى . وأرى الآن أن تذهب الى أرمانوسة ، وكن أنت معها في ساعة الرهبة ، وساعداني بالصلاة ، وقل لها أن صليبها في عنقي ، وهو يدفع عني كل شر » .

فعلم مرقس أنه لا مناص من رجوعه ، فتقدم من أركاديوس وهو يمسح دموعه وقال : « أما وقد أصررت على البقاء فاني أبوح لـك بأن العرب سيهاجمون الاسكندرية غدا في الصباح الباكر فكن على حذر » . قال ذلك وودعه وخرج كـاسف البـال حزينا لا يدري كيف يقـابل أرمانوسة .

وكانت أرمانوسـة قد مكثت يومـا كاملا بعد ذهاب مرقس وهـي

تنتظر عودته ، فلما انقضى بعض الليل ولـم يأت ، قلقت : وكانت بربارة أشد قلقا منها لعلمهـا بعزم العرب على الهجوم في صبـاح اليوم التالـي كما أنبأهـا مرقس • فانتهزت فرصة وخرجت من الغـرفة الى الحديقة لعلها ترى مرقس قادما • ومـا لبثت أن رأت شبحـا عن بعد ، أخذ يقترب منهـا حتى تبينت انه هو مرقس فسارعت اليه ، وخفق قلبها حين استقبلها بـاكيا ، وسألته : « مـا الخبر ؟ » •

فأنبأهـا بما كـان من أمره مع أركاديوس ، واصرار هـذا علـى البقـاء في الاسكندرية ، فدقت يدا بيـد ، وقالت : « الافضل ألا تدخل على أرمانوسة الآن ، وألا نطلعها على شيء من هذا حتى لا يقتلها الحزن » •

ولم تشرق الشمس حتى كان العرب قد اقتحموا أسوار الاسكندرية ، وجاءت رسل المقوقس الى أرمانوسة يبشرونها بذلك ، وليمكثـوا عندها لحراستها حتى يلحق بهم اليها ، فاشتد بهـا الجزع علـى أركاديوس ، وأخذت في البكـاء والنحيب •

- ١٥ -

فتح الاسكندرية

بقي أركاديـوس بعد ذهـاب مرقس وحيدا في غـرفته ، وقـد أخذت الحميـة منه مأخذا عظيما ، وصمم على الدفاع عن وطنـه ودولته الـى آخر نسمة من حياته ، فخرج لينبىء البطريق بمـا نواه العرب في الصباح التالي ، فوصل الى قصره فلم يجده هناك ولم يهده أحد الى مقره ، فألح في طلبه ، وأرسل الرسل في البحث عنه ، فلم يقفوا له على خبر ، فعرف من ذلـك ، ومن قرائن أخرى ، أنه فر من الاسكندرية لمـا رأى

أهلها يفرون • فشق الامر عليه وقال : « لقد صدق يحيى النحوي ، والله ان الدفاع عن هذه الدولة حرام • ان الله قضى عليها فمــاذا يجــدي الدفــاع ؟ » • وحدثته نفسه أن يخرج هو أيضا ، ولكنه خشي أن يقولوا عنه كما قال هو عن البطريق ، فعاد الى حصنه وتهيــأ للدفاع جهده ، وبات بقية ليلته على حذر •

فلما طلع الفجر أفاق وأطل من مرامي السور ، فرأى المسلمين بفرقهم ورماحهم ونبالهم وتروسهم قد تفرقوا ، وأمامهم الفرسان يحملون الاعلام ويتأهبون للهجوم ، فأمر رجاله بالاستعداد والوقوف عند مراميهم ، ولبس درعه ولأمته وتقلد حسامه وخنجره ، ووقف يرقب تقدمهم ، فرأى كل فرقة منهم قد سارت وعلمهــا أمامها الى ناحية من السور ، وظلــت فرقة صغيرة متجهة نحو حصنه ، فأمر رجاله فرموها بالنبال فلم تجبهم ، وبقيت تتقدم حتى صارت على مقربة من السور ، وأمامها بضعة فرسان بالدرق والسيوف • فلمــا دنوا من السور أمرهم أميرهـــم فتحولوا الى جانب من السور يبعد عن معقل أركاديوس ، وأخذوا يتسلقونه متزاحمين كأنهم يتسابقون على وليمة • فلمــا سمع أركاديوس صوت القائد تنسم منه صوت عمرو بن العاص فقال: « هذا قائدهم •• ها قد التقينا في حومة الوغى ، وجاز لي قتاله كما قال مرقس ، وليس في أغلال الحديد » • ولكنه لم يتثبته لأنه لم ير وجهه المغطى بالخوذة والدرع ، فأطل من المرمى فلم يره • ولكنه رأى العرب قد دخلــوا المدينة وعلا الصياح في أنحائها • ثم سمع ضجة في معقله من الداخل فاستل حسامه ، وتحول نحو الصوت فلقيه بعض رجاله فأنبأوه بدخول العرب المدينة وسقوطها فلم يبال • وظل سائرا حتى رأى أصحاب الصيحة فاذا هم بعض العرب قد دخلوا معقله فصاح فيهم والسيف مشهر في يمينه : « أين هو أميركم ؟ فليبارزني • أنا أركاديوس إبن الاعيرج » • فما أتم كلامه حتى رأى بدويا مدرعا تقــدم

نحوه وسيفه مغمد ويداه فارغتان ، فنكس أركاديوس سيفه ، وقد عجب لذلك الرجل . وما لبث أن جاء العربي وحسر الدرع عن وجهه ، فاذا هو عمرو بن العاص يبتسم . فاستغرب أركاديوس مجيئه في تلك الحال . وقال له : « جرد حسامك وعليك بالبراز » . فلم يفهم عمرو . وكلمه بالعربية فلم يفهم أركاديوس وان تبين من ملامح وجهه انه جـاء مسالما لا محاربا . والتفت عمرو خلفه فاذا بزيــاد قد دخل ومعه مرقس ، فخاطب عمرو أركاديوس بواساطة زياد قائلا : « اني لم آت لأقاتل أركـاديوس البطل الشهير . ان مثلك لا يقاتل . وقد جئتك وسيفي مغمد لعلمي أن الخيانة ليست من شيمتك » .

فعجب أركاديوس من مروءته وقال : « لماذا لم تأتني محاربا هيـا تتبارز ؟ » .

قال : « لأني أشعر بجميل لك على يوم ضمنا وايــاك مجـلس البطريق . واختلفوا في أمري ، وكنت عالمـا بي فأغضيت . وهو جميل ذكرته لــك ، وما زلت أتوقع أن أكـافئك عليه ، فأنت صاحب الفضل السابــق » .

وكـــان أركاديوس كثيرا ما سمع بوفاء العرب وكرم أخلاقهم ، فلمـا اختبر ذلك بنفسه ، نظر الى مرقس فاذا هو واقف مع زيـاد ، وكل منهما ينظر اليه ويبتسم سرورا بنجاتــه من الموت . فأدرك أركاديوس أن ذلك كله انمـا كـان بمساعي مرقس . فوقف يتردد بين الفرح بالنجاة شريفا عزيزا وبين الحزن لسقوط الاسكندرية ودخولها في حوزة المسلمين . أما عمرو فهم بأركاديوس وصافحه قائلا : « هـا أنذا أصافحك وأؤاخيك منذ الآن . واعلم أنك صديقنا ولا تحسبنا أخذناك في الحرب ، فاننا جئناك زائرين لنشكرك على جميل سبق لك علينا ، وها أنذا تارك عند معقلك جنودا يمنعون رجالنا من دخوله » .

فازداد أركاديوس اعجابا بتلك المروءة وقال : « بورك فيك من شهم ، فأوصيك بالاسكندريين خيرا • لا تدع رجالك يفتكون بهم • فقد كفاهم الاسر » •

فلما خلا أركاديوس بمرقس قال : « ماذا فعلت يا مرقس ؟ وكيف حال أرمانوسة ؟ » •

فهم مرقس بيده يقبلها ويقبل الارض كأنه لا يصدق نجاته من الموت ، وقال : « الحمد لله على سلامتك يا سيدي ، ها قد رأيت ما تشتهيه نفسي ، ولا فضل لي في ذلك ، لأن عمروا شعر بفضلك عليه فعزم على أن يوافيك ، وها قد نجوت من الخطر شريفا بعد أن طلبته للمبارزة فلم يبارزك • أما أرمانوسة فانها في قلق عظيم ، ولا أدري ما حل بها ، فأذن لي بالذهاب اليها لأبشرها بسلامتك ، وأعود اليك فنسير معا اليها » •

قال ذلك وخرج ، وبقي أركاديوس وزياد ، فدخلا الحجرة فقال أركاديوس : « ما علاقتك يا زياد بالعرب والروم ؟ » •

قال : « اني خادم يحيي النحوي ، ولكنني في الاصل صديق عمرو ، وكنا نرعى الابل معا في الجاهلية ، ثم افترقنا ، فأقمت أنا في الاسكندرية ، ودخل هو في الاسلام وصار من أمراء المسلمين ، ولكنني أعرفه شهما غيورا ، فلما وقع في الأسر ، أحضروه الي في مجلس البطريق ، وكنت حاضرا ، فعرفك وخاف أن تذيع أمره ، فلما رأى منك الكتمان عد ذلك فضلا لك عليه ، وود انقاذك • وقد كنا أمس عنده في المعسكر ، فجاءه مرقس بعد نصف الليل ، فسأله هو عنك وعن معقلك حتى يحميه ، فأخبره • وجئنا في هذا الصباح معه كما رأيت » •

فقال أركاديوس : « وأين سيدك يحيي ؟ » • قال : « مختبيء في مأمن » •

فقال أركاديوس في نفسه : « هذا هو الفساد وهذه هي الفوضى ، وكيف يفوز قوم في حرب وقوادهم منقسمون . وعلماؤهم ناقمون ؟ أنا لله وانا اليه راجعون » . وعاد اليه رأيه في معاشرة المقوقس . ولكنه أصبح أكثر اتساعا .

* * *

وبعد بضع ساعات عاد عمرو ومرقس . فقال عمرو لأركاديوس : « اذا شئت الخروج الى أهلك فأننا مشيعوك الى حيث تشاء » . فعجب أركاديوس لعلم عمرو بعلاقته بأرمانوسة . ولحظ عمرو ذلك فقال : « لا تعجب . فقد علمت خبرك مع أرمانوسة . ويسرني أن أراكما الآن في وئام ، ولا تظلم حماك المقوقس . فانه معذور . واذا أردت الخروج الى عروسك فذلك اليك » .

فسأل أركاديوس زيادا : « هل تعرف مقر يحيي النحوي ؟ » . قال : « نعم » فركبا وسارا . فلما أطلا على مريوط . وأشرفا على بيت الشيخ حيث تقيم أرمانوسة خفق قلب أركاديوس . فلقيهم مرقس فجرى ليبشر أرمانوسة . ولما دخل أركاديوس القاعة لقي فيها جمهورا من الرجال . وفي صدرها يحيى النحوي ، وبجانبه المقوقس . فلما رآهما اضطرب وتردد ، فنهض يحيي اليه وقبله وأمسكه بيده وقدمه الى المقوقس . فوقف المقوقس وضم أركاديوس الى صدره وقبله قبلة الأب لابنه . فخجل أركاديوس وشعر بزوال حقده على حميه ، وهم به فقبل يده وجلس الى يمينه ويحيى بين أيديهما .

فقال يحيى : « لا تعجب يا بني من اجتماعنا في منزل أرمانوسة . فانا عالمون بما في نفسك على حميك . وما كان في نفسه هو على جماعة الروم ، وكلاكما معذور . وقد علمنا بما عقده الله بينك وبين

أرمانوسة من الروابط المقدسة فأردنا التوسط بينك وبين حميك ليفهم كل منكما الآخر ، فأنت الآن بمنزلة ابنه وهو بمنزلة أبيك » .

فقال المقوقس : « يعلم الله يا ولدي انني أطلت البال ، وصبرت صبر الرجال ، وأنا رومي الاصل مثلك ، ولكنني رأيت ذل القبط فأغثتهم فلم تصغ الدولة لصراخنا ولا سمعت بكاءنا ، وهذا أخي يحيي العالم شاهد على ما أقول . أما أنت فما برحت منذ عرفتك أشهد بشهادتك ومروءتك لأنك لم تأت عملا تلام عليه » .

فقال أركاديوس ، وقد صفا قلبه : « نعم يا عماه اني مثل ولدك ، ويكفيك شفيعا عندي أنك والد أرمانوسة ، وأنا وهي الآن واحد » .

فقال مرقس : « ما بالكم حجبتم أرمانوسة عنه وحجبتموه عنها ؟ » .

ولم يتم كلامه حتى دخلت بربارة وهمت بيدي أركاديوس تقبلهما ، ودخلت أرمانوسة على استحياء وعيناها ذابلتان لما قاسته في صباح ذلك اليوم ، ولم تستطع اظهار عواطفها ، فسلمت فنهض يحيي وأمسك بيد أركاديوس وأمسك المقوقس بيد أرمانوسة وجعلا يد كل من العروسين بيد الآخر وقال يحيي : « ما جمعه الله لا يفرقه انسان » .

وفي صباح الغد هنأهم عمرو بن العاص ، وخير أركاديوس بين الاقامة في الاسكندرية أو بأي مدينة أخرى ، فاستمهله حتى يكتب الى أبيه . فكتب اليه مع رسول أنفذه الى القسطنطينية ، فعاد الرسول بنبأ موت أبيه في السجن ظلما بلا محاكمة . فبكاه وكره القسطنطينية وأهلها وفضل البقاء بالاسكندرية .

وكان عمرو قد كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية ، وسأل عن المكان الذي يقيم به ، فكتب اليه : « اني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا ، فمتى أردت القدوم اليكم فاني أركب راحلتي حتى أقدم اليكم » .

وكان بين الاسكندرية والحجاز نهر النيل ، فانتقل عمرو الى حصن بابل ، وكـان الفسطاط الذي تركه هناك لا يزال باقيا وقد عشش فيـه اليمـام ، فخيم حوله ونصب الاعلام وبنى هناك مدينة سماها الفسطاط ، وهي أول عاصمة للمسلمين في مصر • أما أركاديوس فاختار الاقـامـة بالاسكندرية ، وعاش مع عروسه في زغد ، ومعهما بربارة ومرقس وأهله •

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين